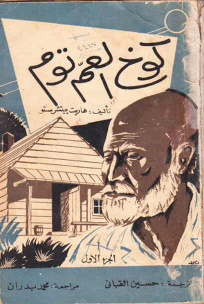

كوخ العم توم
تأليف: هاريت بيتشر ستو
الجزء الأول
ترجمة: حسين القباني
مراجعة: محمد بدران

الألف كتاب (٢٦٣)

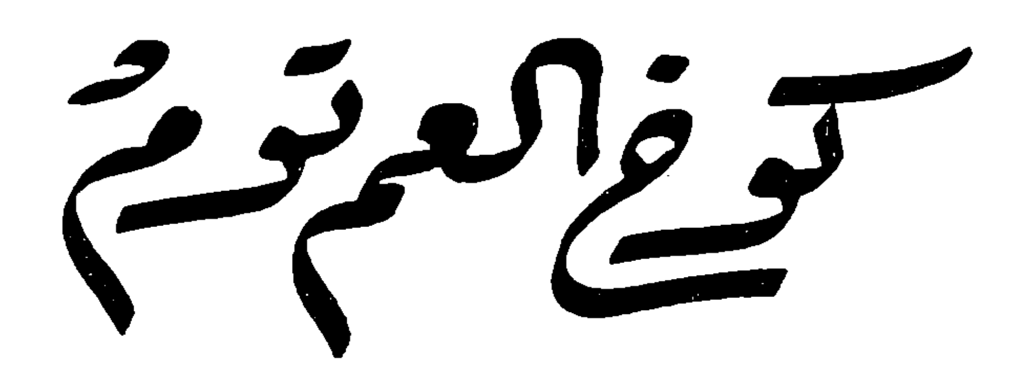
كوخ العم توم

الجزء الاول

ادارة الثقافة العامة
وزارة التربية والتعليم
الاقليم الجنوبي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة المجلس الأعلى
لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب (٢٦٣)



الجزء الأول

ترجمه
حسين محمد القباني

راجعه
محمد بدران

الناشر :
مطبعة أطلس
١١ - ١٣ شارع سوق التوفيقية . القاهرة



هذه ترجمة كتاب

UNCLE TOM'S CABIN

OR LIFE AMONG THE LOWLY

تأليف

Harriet Beecher Stowe

مقدمة بقلم المترجم

كانت مظاهر الفقر الشديد تبدو على السيدة الجالسة فى محطة سكة حديد بنسلفانيا فى ساعة مبكرة من صباح أحد الأيام ٠٠ وكانت أمارات القلق الشديد مرتسمة على وجهها الشاحب المعروق وهى تمسك حقيبة السفر بيد ، وتحاول بالأخرى تهدئة أطفالها المحيطين بها ٠٠ ذلك لأن ناظر المحطة كان قد رفض أن يسمح لها بالجلوس فى غرفة الانتظار الدافئة المريحة ٠٠!

وبعد ثلاثة أعوام من هذا اليوم ، كانت هذه السيدة الفقيرة نفسها محط أنظار مئات الألوف من الجماهير فى أمريكا وأوروبا ومناط اعجاب الأوساط الأدبية فى العالم كله ، ومؤلفة قصة « كوخ العم توم » التى كانت السبب الأساسى فى الحرب الأهلية الأمريكية لتحرير العبيد ٠٠

لقد مضى نحو مائة عام فقط على ظهور هذه القصة الرائعة التى كتبتها السيدة هارييت بيتشر ستو ٠٠ والتى أخرجتها فى يوم وليلة من ظلام الخمول والفقر الى نور المجد والثراء ، ذلك أن عدد النسخ التى بيعت منها حتى الآن قد بلغ خمسة وعشرين مليون نسخة ، وهو رقم قياسى لا يطمع فى مثله مؤلف آخر مهما بلغت شهرته ٠٠

والعجيب أن مسز ستو كانت — حين وضعت القصة — فى خريف العمر ، تعانى الشىء الكثير فى تربية أولادها السبعة ، وتبذل أعنف الجهد فى ادارة المنزل ، وفى كتابة بعض الموضوعات القصيرة لتساعد زوجها الفقير على مواجهة أعباء الحياة ٠٠

وكان السبب الذى دفعها الى كتابة هذه القصة العالمية ، أنها

رأت فى صباح يوم من أيام الآحاد عام ١٨٥١ منظرا حز فى قلبها . وأثار فى نفسها أبلغ العطف على هؤلاء السود المستعبدين فى أمريكا .. لقد رأت رجلا من الجنس الأبيض يأمر عماله بجلد عجوز أسود اشتعل رأسه شيبا .. وظل العمال يجلدون العجوز المسكين حتى فاضت روحه وهو يبتهل الى الله أن يغفر لجلاديه !!

فى تلك الأيام كانت الولايات الجنوبية بأمريكا تضم ثلاثة ملايين من السود الأرقاء ، وكانت أسواق النخاسة فى مدينة نيو أورليانز تشهد بيع سبعين ألف رجل وامرأة وطفل فى كل عام ..

وهكذا عادت مسز ستو الى بيتها وقد ملأت الدموع عينيها شفقة على هؤلاء البؤساء ، وفاضت عواطفها جياشة ، فاذا قلمها يجرى بوصف هذا المنظر ، واذا زوجها ـ وهو عالم فقير ـ يشجعها على جعل هذا المنظر نواة لقصة مطولة ، واذا هى تستمر فى الكتابة بعد أن اتفقت مع محرر احدى المجلات على نشر قصتها تباعا فى ثلاثة أسابيع ، ولكن ثلاثين أسبوعا تمر وفصول القصة لا تزال تنشر تباعا ، ولا يزال عشرات الألوف من القراء يتلهفون على صدور الصحيفة التى عجزت مطابعها عن اصدار جميع النسخ المطلوبة فى السوق ..

ولما صدرت القصة فى كتاب كامل ، تلقفها نحو عشرين ناشرا فى انجلترا وراحوا يطبعونها ويصدرونها لحسابهم الخاص .. ولقد أصدر أحدهم طبعة شعبية ثمنها خمسة قروش ـ وكانت تلك محاولة لاصدار الكتب فى طبعات شعبية ـ فباع منها فى خلال ثلاثة أشهر نحو ١٥٠٫٠٠٠ نسخة ..

وفى باريس أخذت ثلاث من كبريات الصحف اليومية تنشر القصة تباعا ، وما هى الا شهور حتى ترجمت الى أكثر لغات العالم ، حتى لغة مقاطعة ويلز بانجلترا ، وهو انتصار لم يظفر به تشارلز دكنز نفسه ..

وبلغ من شغف الناس بقصة « كوخ العم توم » أن وضع الشعراء لها عشرات الأغانى الحزينة التى أرسلت الدموع مدرارا من عيون

سكان نيويورك وباريس ‥ أما الرسامون فقد صوروا لوحات خالدة لكوخ العم توم ، وما لبثت صورة هذا الكوخ أن طبعت على أوراق اللعب وبطاقات البريد والتهانى فى الأعياد ‥

وحتى عام ١٩٣٩ كان عشرات الألوف من النظارة يبكون وهم يشاهدون المسرحيات المقتبسة عن هذه القصة وهى تمثل على مئات من المسارح فى العالم كله ‥

وفى خلال هذا كله ، كانت هاريت ستو ـ المؤلفة ذات القلب الكبير ـ تنفق معظم أرباحها على شراء العبيد واطلاق سراحهم ـ وانشاء المنازل والملاجىء لهم ، ومواصلة الكفاح الأدبى فى سبيل تحريرهم ٠

ولقد قال أبراهام لنكولن باسما وهو يصافحها لأول مرة

« أهذا أنت أيتها السيدة الصغيرة التى سببت كل هذه الحرب الكبيرة ‥ ؟! »

ولما انتهت الحرب بهزيمة الولايات الجنوبية وانتهاء عهد الرق والاستعباد ، هرع مئات الألوف من الجماهير الى مؤلفة قصة « كوخ العم توم » لتحيتها والهتاف المدوى لها ‥ ولم تستطع السيدة أن ترد على هذا كله الا باحناء رأسها ، وقد انسابت دموع الغبطة والشكر على وجنتيها ‥

وفى عام ١٨٩٦ ، قضت هاريت ستو نحبها بعد أن وضعت مجموعة من الكتب والقصص الأخرى ، ولكن واحدة منها لم ترق الى مستوى « كوخ العم توم »

حسين القبانى

الفصل الأول

وفيه تقدم المؤلفة القارىء الى رجل من رجال الانسانية

فى ساعة متأخرة من أصيل يوم بارد من أيـــام شهر فبراير كان سيدان جالسين على انفراد يحسوان الشراب فى قـــاعة طعام حسنة الرياش بمدينة ب · بولاية كنتكى · ولم يكن ثمة أحد من الخـدم ، وقد بدا السيدان بمقعديهما المتقاربين كأنما كانا يناقشان موضـوعا فى اهتمام شديد ·

وقد قلنا انهما سيدان من قبيل التساهل لا غير ، بيد أن أحدهما اذا وضع فى ميزان النقد والتمحيص ، لم يبد من السادة فى قليـل أو كثير · لقد كان رجلا قصيرا غليظا ذا ملامح عادية خشنة ، وسمت من التعـاظم المصطنع الذى يتسم به الرجـــل الوضيع المنبت الذى يحاول أن يشق لنفسه فى الحياة طريقا يصل به الى موضع فى الحياة أرفع منه شأنا · وكان مسرفا فى ملابسه غاية الاسراف · فالصدار الزاهى الكثير الألوان ، والمطرف الأزرق المرقط بنقـــاطه الصفراء اللامعة ، الذى يوائم رباط العنق المبهرج المتماوج الألوان ، كل هذا يتفق والسمت العام لذلك الرجل · أما يداه الكبيرتان الغليظتان فقد ازدانتا بالكثير من الخواتم ، كما كان يتحلى بسلسلة ساعة ثقيلة من الذهب ذات مجموعة من الأختام المختلفة الأحجام المتباينة الألوان · وكان من عادته وهو فى غمار الحديث أن يلوح بهـــا ويخشخش فى رضا ظاهر · أما حديثه فكان متحررا من كل قواعد النحو والصرف ، مرصعا ـ فى المواقف المناسبة ـ بمختلف التعبـــيرات البذيئة التى لا يمكن أن يعرينا شىء ، حتى الرغبــة فى دقة الوصف ، بتسجيلها هنـا ·

وكان لصاحبه ، المستر شلبى ، سمت السـيد وهيئته • وكان نظام بيته والمظهر العام الذى تنم عليه ادارة شئونه المنزلية يدلان على بساطة فى العيش ، بل وعلى غنى وثراء • وكان الرجلان ، كما ذكرنا آنفا ، مستغرقين فى حديث هام •

وقال المستر شلبى :

ـ هذه هى الوسيلة التى يمكن أن أرتب بها الأمر •
فقال الآخر وهو يرفع كأس شرابه فيجعله بين عينيه والضوء :

ـ اننى لا أستطيع أن أمارس التجارة على هذا النحـو • لا • لا أستطيع ألبتة يا مستر شلبى •

ـ لماذا يا هالى ؟! الواقع أن توم شخص ممتاز • انه جدير بهـذا المبلغ فى أى مكان • فهو شخص متزن ، أمين ، كفء ، يدير مزرعتى كلها فيجعلها تسير كالساعة •

فقال هالى وهو يصب لنفسه كوبا من الشراب :

ـ تعنى أنه أمين أمانة العبيد !

ـ لا • بل أعنى أنه أمين حقا • ان توم شخص طيب ، متزن ، عاقل ومتدين • لقد اعتنق ديننا فى اجتماع عام منذ أربعة أعـوام • وأنا أعتقد أنه متدين حقا • فقد ائتمنته منذ ذلك الحين على كل ما أمتلك من عقار وأموال وجياد ، وتركته يروح ويغدو فى البلـدة ، ووجدته دائما صادقا فى كل شىء ، قويم الخلق •

فقال هالى وهو يلوح بيده مترفعا :

ـ ان بعض الناس لا يؤمنون بوجود زنوج متدينين يا شلبى ، ولكننى أومن بوجودهم ، فقد كان لدى واحد منهم عندما ذهبت بآخر شحنة الى أورليانز • وكان يحلو للانسان أن يسمعه وهو يترنم بالصلاة • وكان أيضا رقيقا هادئا • وقد ربحت فيـه مبلغا كبيرا • وذلك لأنى اشتريته بثمن بخس من رجل كان مضطرا الى بيعه ، وقد ربحت فى هذه الصفقة ستمائة دولار • نعم أعتقد أن التدين صـفة طيبة فى الزنجى بشرط أن تكون صفة أصيلة فيه بلا مراء •

فرد عليه الآخر بقوله :

ـ هذا شيء طيب • ان كان ثمة شخص أصيل في صفة التدين ،فانه توم • ولماذا نذهب بعيدا ، فقد تركته في الخريف الماضي يذهب بمفرده الى مدينة سنسناتي ليقوم لى ببعض أعمالي وليعود الى بخمسمائة دولار • وقد قلت له « يا توم • انني أئتمنك لأني أعتقد أنك مسيحي ، وأعرف أنك لن تخون الأمانة • » وعاد توم فعلا ولم يكن يساورني أدنى شك في عودته لما كنت أعرف عن استقامته • وقد زعموا أن شخصا من السفلة قال له « توم • لماذا لا تهرب الى كندا » فرد عليه توم قائلا : « أوه •• ان السيد قد وثق بي ، ولهذا لا أستطيع » • لقد حدثوني عن ذلك ، وينبغي من ثمة أن أقول ان فراقه يشق على ، ولهذا أرى أن ترفع من ثمنه يا هالى حتى يغطى على كل ما لك على من دين ان كان لك ضمير •

ورد عليه النخاس في مزاح قائلا :

ـ لا بأس • ان لى من الضمير ما يمكن لأى رجل آخر يمارس هذه التجارة أن يدعى لنفسه ، أى أن لدى كما تعلم ، شيئا قليلا منه يكفى لأن أقسم به عند اللزوم • وعندئذ أكون مستعدا للقيام بأى شيء معقول مجاملة لأصدقائي • ولكن هذا العام ، كما ترى ، كان عاما شديدا أكثر مما يحتمله شخص مثلى ، لقد كان عاما قاسيا جدا •

وهنا زفر التاجر في شيء من التأمل والتفكير ، ثم صب لنفسه مزيدا من الشراب وعاد المستر شلبى يقول بعد برهة من الصمت المقرون بالقلق :

ـ هذا حسن يا هالى ، كيف اذن تتم هذه الصفقة ؟

ـ عظيم • أليس لديك غلام أو فتاة يمكن أن تضيف أحدهما الى توم ؟

ـ ليس لدى ، ان شئت الحقيقة ، ما يمكن أن أستغنى عنه • ان الحاجة الماسة هى التى ترغمنى على بيع توم ، والواقع أنى لا أحب، عادة ، التخلى عن عمالى •

وعندئذ انفتح الباب ودخل طفل مولد يجرى فى عروقه شىء من دماء الزنوج ، يتراوح بين الرابعة والخامسة فى العمـــر ، وكان فى مظهره ما ينم عن جاذبية وجمال : فشعره الأسود الناعم كخيــوط الحرير يحيط بوجهه الضحوك فى خصــلات مموجة مصقولة ، بينما تطل عيناه الكبيرتان السوداوان المفعمتان بالحرارة والرقة من خلال أهداب وطفاء طويلة ، وهو ينظر متطلعا فى القاعة ، وكان يرفل فى رداء بهيج ذى مربعات صفراء وقرمزية ، جيد التفصيل ، متقن الاعداد بحيث ينسجم وذلك الطراز من الجمال الأسمر المثير • وكان للصبى طابع خفيف الظل من الثقة بالنفس ، مقرون بالحيـــاء ، ينم على أن الغلام كان معتادا أن يلقى من سيده شيئا من الاهتمام والتدليل •

وهتف شلبى وهو يصفر ويقطف عنقودا من العنب ويلوح به اليه:

ـ هلم يا جيم كرو ! تعال •• خذ هذا الآن •

فهرول الصبى بكل ما فيه من قوة ليلقف هذه المنحــة بينما كان سيده يضحك قائلا :

ـ تعال هنا يا جيم كرو •

وأقبل الصبى ، وربت السيد على شعره المموج ، وداعب ما تحت ذقنه ، وقال له :

ـ والآن يا جيم • دع السيد ير كيف تستطيع أن ترقص وتغنى •

وشرع الصبى يردد احدى هذه الأغنيات الغريبة الشــائعة بين الزنوج ، بصوت عذب صاف مصحوب بالكثير من الحركات المضحكة باليدين والقدمين ، وبالجسم كله فى ايقاع منتظم تمام الانتظام مـع الموسيقى •

وصاح هالى قائلا وهو يلقى اليه بربع برتقالة :

ـ مرحى !

وقال سيده :

ـ والآن يا جيم • قلد مشية العم العجوز كادجو عندما يشكو من الروماتزم •

وسرعان ما اتخذت أطراف الصبى المـــرنة هيئة التشـــوه وقد احدودب ظهره ، ثم اذا هو يلقف عصا السيد فى يده ويحجل بها فى جوانب الغرفة وقد جعد وجهه فى اكتئاب ، وأخذ يتنقل يمينا ويسارا مقلدا رجلا عجوزا ·

وهنا انطلق الرجلان فى ضحك عريض متصل ·

وقال سيده :

ــ والآن يا جيم · أرنا كيف يعزف الشيخ روبينز على مزماره !

وسرعان ما مط الصبى وجهه فى استطالة عجيبة ثم شرع يرسل نغمات المزمار من خلال أنفه بوقار عجيب ·

وقال هالى :

ــ مرحى ! مرحى ! يا له من صغير عجيب · أؤكد لك أن هذا الطفل تحفة · أقول لك شيئا ·

قال هذه العبارة الأخيرة فجأة وهو يضرب كتف شلبى :

ــ الق بهذا الطفل مع توم وأنا أتم الصفقة · نعم ·· ســـأفعل · هلم الآن · ألا ترى أن هذا خير ما يمكن تسوية الصفقة بموجبه ؟

وفى تلك اللحظة فتح الباب برفق ، ودخلت امرأة مولدة شابة فى عروقها شيء من دماء الزنوج ، فى نحو الخامسة والعشرين من عمرها ، اذا حكمنا بمظهرها ·

ولم يكن الأمر بحاجة الى أكثر من نظرة يرسلها الطفل اليها لنعرف أنها أمه · فقد كانت لها نفس العينين الجميلتين الدعجاوين بأهدابهما الطويلة الوطفاء ، ونفس الخصلات المموجة من الشعر الأسود الناعم · وقد تحولت البشرة على خديها الى حمرة واضحة لم تلبث أن ازدادت وضوحا وهى ترى نظرات الرجل الغـــريب مركزة عليها فى جرأة واعجاب ظاهر · وكان ثوبها أشد الأثواب ملاءمة لها ، وهو مفصل باتقان ليبرز جمال قوامها الملفوف · وكانت اليد الرقيقة والقـــدم الصغيرة والكعب الدقيق من السمات التى لم تند ــ فى مظهرها ــ عن

عين التاجر واسع الخبرة بنواحى الجمال فى النساء ، فاذا هو يحيط به من نظرة واحدة .

وقال لها سيدها عندما توقفت ونظرت اليه فى تردد :

ـ ماذا يا اليزا ؟

ـ كنت أبحث عن هارى ، ان أذنت يا سيدى .

ووثب الطفل نحوها عارضا غنائمه التى كان قد جمعها فى ذيل ردائه ، بينما قال لها المستر شلبى

ـ لا بأس . انصرفى به اذن .

وانسحبت المرأة بسرعة ، حاملة الصبى بين ذراعيها .

وقال التاجر وهو يستدير الى صاحبه :

ـ يا للسماء ! انها تحفة حقا . ان فى مقدورك أن تظفر بثروة من وراء هذه الفتاة فى أورليانز يوما ما . لقد رأيت فيما مر بي أن أكثر من ألف دولار تدفع فى فتيات لسن أكثر من هذه جمالا .

فقال المستر شلبى بجفاء :

ـ اننى لا أحب أن أثرى عن طريقها .

ثم رغب فى تغيير مجرى الحديث ، ففتح زجـــاجة شراب جديدة وسأل صاحبه عن رأيه فيها ، فقال :

ـ عظيمة يا سيدى ، امرأة من الطراز الأول !

ثم استدار نحو شلبى ضاربا كتفه بيده فى غير كلفة وهو يقول :

ـ هلم . ماهى شروطك بخصوص هذه الفتاة ؟ ترى ماذا يمكن أن أقول عنها ؛ وماذا تبغى ثمنا لها ؟

ـ مستر هالى . انها ليست للبيع . ان زوجتى لا تطيق فراقها ولو كان الثمن وزنها ذهبا .

ـ أجل . أجل . ان النساء دائما يقلن مثل هذا ، لأنهن لا يحسن

ألبتة تقدير الأمور • ولكن اذا أنت بينت لهن ما يمكن أن نشتريه بما يزن الانسان ذهبا من الساعات والرياش والحلى ، فأحسب أن هذا ، فى رأيى ، يغير وجه الأمر •

فقال شلبى فى حزم :

ــ أقول لك يا هالى انه لا جدوى من الحديث فى هذا • لقد قلت لك لا ، وأنا أعنى •• لا !

فقال التاجر :

ــ لا بأس • اذن دعنى آخذ الطفل • وثق أنى سأتنازل عن الشىء الكثير من أجله •

ــ وماذا يمكن أن تفعل بالطفل ؟

ــ عجبا ! ان لى صديقا ينوى ممارسة هذا النوع من التجارة ،وهو يريد شراء الصبيان ذوى الجمال لتربيتهم • تصور بضاعة من هـــذا النوع تباع للعمل فى تقديم المشروبات وما الى هذا للأغنيــــاء الذين يستطيعون شراء الخدموالعبيد ذوىالجمال ! ان من مظاهر الفخامةفى بيتك أن يفتح الباب صبى جميل حقا ، وأن يقوم مثل هذا الصبى بين يديك وعلى خدمتك • ان أثمانهم مرتفعة ، وان هذا الشيطان الصغير قطعة موسيقية خفيفة الظل • انه تحفة •

وقال شلبى منكرا

ــ رغم هذا أفضل ألا أبيعه• فالواقع ياسيدى أننى رجل رحيم ، وانى لأكره أن أحرم الطفل من أمه •

ــ أهكذا أنت حقا ؟ أوه ! نعم • اننى أفهم حق الفهم أن شيئا من هذا القبيل أمر طبيعى ، وأنه من غير المستحب أحيانا أن نقسو عــلى النساء • وأنا دائما أكره مناسبات الفراق المليئة بالعويل والصراخ ، لأنها مثيرة للاستياء جدا • ولكننى وأنا أدير أعمالى ، أحـــاول أن أتجنبها عادة يا سيدى ، والآن ماذا لو أنك أرسلت الفتاة بعيدا لمدة يوم أو أسبوع أو نحو ذلك ، ثم يتم كل شىء بهدوء قبل أن تعود الى

البيت ؟ انه يمكن لزوجتك أن تشترى لها بعض الأقراط أو ثوبا جديدا أو شيئا من هذا القبيل لكى تسترضيها ٠

ــ أخشى ألا ننجح فى هذا ٠

ــ يا رعاك الله ! بل سوف ننجح ٠ انك تعلم أن هؤلاء الزنوج ليسوا مثلنا معشر البيض ٠ انهم سرعان ما يتغلبون على المصائب اذا أنت أحسنت سياستهم ٠ وان الناس الآن يقولون ٠٠٠

واتخذ هالى هيئة الشخص الودود الأليف وأردف قائلا :

ــ انهم يقولون ان هذا النوع من التجارة يحجر المشاعر ، ولكنى لم أجدها أبدا هكذا ٠ والحقيقة أننى لم أستطع ألبتة أن أمارس تجارتى هذه بالطريقة التى يتبعها البعض فى هذه التجارة ٠ فقد رأيتهم ينتزعون الطفل من ذراعى أمه ويعرضونه للبيع بينما الأم لا تنفك تصرخ كالمجنونة ٠وأن هذه الأساليب فاسدة تحطم البضاعة وتجعلها غير صالحة للخدمة أحيانا ٠ وقد عرفت ذات مرة فى أورليانز فتاة جميلة تهدمت تماما بسبب هذه المعاملة ٠ لقد كان صاحب هذه التجارة لا يريد ابنها ، وكانت هى من النوع الثائر الفائر حين يستبد بها الغضب ٠ وأذكر أنها كانت تعتصر طفلها وهى تتحدث ٠ وكانت حالتها رهيبة ٠ وان الدماء لتجرى باردةفى عروقى وأنا أتذكر هذا المنظر ٠ وعندما انتزعوا الطفل منها وأغلقوا عليها الباب بالمفتاح ، فقدت عقلها وماتت بعد أسبوع ٠ وكانت هذه خسارة تساوى ألف دولار يا سيدى ٠ هذا بسبب سوء السياسة ٠٠ نعم هذه هى الحقيقة ٠ انه من الأفضل دائما أن يلتزم المرء الأساليب الانسانية يا سيدى ٠ فهذه هى تجاربى ٠

واتكأ التاجر الى ظهر مقعده ، وعقد ذراعيه على صدره فى سمت الرجل الفاضل النزيه ، وهو يعد نفسه ــ على ما يبدو ــ صورة طبق الأصل من الرجل الانسانى المعروف ولبرفورس ٠

والظاهر أن الموضوع أثار اهتمام السيد الى حد كبير ٠ فبينما كان شلبى يقشر برتقالة وهو مستغرق فى التفكير ، اذا هو ــ هالى ــ يستطرد فى الحديث فى شىء من الحياء المحبوب وكأنما هو مدفوع

في الواقع بقوة الصدق لكى يقول بضع كلمات أخر :

ـ ليس من اللائق الآن أن يمتدح الانسان نفسه · ولكننى أقول هذا لمجرد أنه الحقيقة فقط · وأنا أعتقد أننى معروف بجلب أجمل شحنات العبيد التى يمكن أن يجلبها أحد · أو أن هذا على الأقل ما يقولونه عنى · واذا كنت قد نجحت مرة ، فمن الممكن أن أنجح مائة مرة على ما أظن· وكانوا جميعا فى أحسن حال من الصلاحية والسمنة· وانى لا أخسر الا أقل ما يمكن أن يخسره أى رجل فى هذه التجارة · وانى لأعلل هذا كله بحسن معالجتى للأمور يا سيدى · والانسانية أيها السيد هى أكبر دعامة فى أعمالى ان جاز لى هذا القول ·

وقال المستر شلبى حين لم يجد ما يقول :

ـ أحق هذا ؟

ـ ولكن هأنذا موضع السخرية والتندر بسبب آرائى هذه ياسيدى· وقد تحدث الى الكثيرون فى هذا الشأن فقالوا ان هؤلاء العبيد غير ذوى بال وغير ذوى أهمية ولكننى وقفت بجانبهم يا سيدى · نعم · وقفت بجانبهم ، وحققت أرباحا وفيرة منهم ، نعم يا سيدى · لقد غطوا نفقات استيرادهم ان صح هذا التعبير ·

وضحك التاجر لدعابته هذه ·

وكان فى شرحه للانسانية شيء من الأصالة اللاذعة جعل المستر شلبى لا يتمالك نفسه ، فشاركه الضحك · ولعلك يا قارئى العزيز تضحك أيضا ·· ولكنك تعرف أن للانسانية فى الوقت الحاضر صورا عديدة غريبة · وليس ثمة نهاية للأشياء العجيبة التى يفعلها الانسانيون ويتفوهون بها ·

وشجع ضحك شلبى التاجر على المضى فى الحديث قائلا :

ـ ان هذا عجيب ، ولكنى لم أستطع أبدا أن أقنع الناس بآرائى هذه · وهناك الآن توم لوكر ، شريكى القديم ، فى مدينة ناتشيز · لقد كان شخصا بارعا ، توم هذا ، انه لا يفض شركته مع أي شخص الا اذا وجد شريكا أشد قسوة ، كان ذلك مبدأه وقد كان

من عادتي أن أتحدث اليه ، فأقول له « يا توم ! ما جدوى ضرب فتياتك على رءوسهن بقسوة ، ولكمهن حين يبدأن فى العويل • ان هذا مدعاة للسخرية » وهكذا كنت أقول له « كما أن هذا لا يأتى بنتيجة • عجبا اننى لا أجد ثمة بأسا فى عويلهن • فهـذا أمر طبيعى • واذا كانت الطبيعة لا تفرج عن نفسها بهذه الطريقة ، فانها تفرج عن نفسها بطريقة أخرى ، وعدا هذا يا توم ، فان الضرب الشديد يضر فتياتك ، انه يسممهن ويرسم الكآبة على وجوههن • وأحيانا يجعلهن قبيحات الشكل ، ولا سيما الفتيات الصغيرات • كما أنه يجعل عرضهن فى الأسواق مهمة جد شاقة • والآن هكذا كنت أقول له « لماذا لا تداعبهن ، وتتلطف فى الحديث اليهن ، تأكد يا توم ، أن قليلا من الانسانية تلقى بها فى هذا المجال سوف تأتى لك بفوائد أكثر جدا مما يأتى به الضرب والتنكيل • نعم • ان الربح يزداد • تأكد من هذا يا توم » هكذا كنت أقول له • ولكن توم لم يستطع أن يعمل بهذه النصيحة ، ومن ثم أفسد كثيرا من أعمالى بحيث اضطررت الى فض شركتى معه رغم أنه انسان طيب القلب ، ومستقيم فى معاملاته كما تفهم الاستقامة فى هذه الأعمال •

فقال شلبى :

ـ وهل وجدت أن أساليبك هذه فى ادارة العمل قد عادت عليك بفوائد أكثر مما عادت أساليب توم عليه !

ـ عجبا ! نعم يا سيدى • يمكننى أن أقول هذا • فأنا بقدر ما تسنح الفرصة أتخذ جانب الحذر بعض الشيء فى النواحى المكدرة، مثل بيع الصغار ـ فأنا أبعدهم أولا عن أنظار أمهاتهم ، وعن أفكارهن، كما لعلك تعرف • وعندما يتم هذا بلباقة وحذر ، وعندما تجد الأمهات أنفسهن أمام الأمر الواقع ، لا يسعهن الا الاستسلام طبعا ، والتعود على بعد أطفالهن ، وليس هذا هو الشأن كما تعلم مع هؤلاء البيض الذين تعودوا أن يعيشوا دائما محتفظين بأبنائهم وزوجاتهم ومن اليهم • وأنت تعلم أن الزنوج الذين يجلبون بالطرق السليمة لا يتوقعون شيئا من هذا القبيل ، فاذا أنت أحسنت التصرف معهم جرت الأمور فى يسر •

فقال المستر شلبى :

ـ أخشى أن أقول ان عبيدى لم ينشـــئوا على هـــذا النحو الذى تصف ٠

ـ لا أظن ٠ فأنتم يا أهل كنتكى تفسدون عبيدكم ٠ انكم تحسنون بهم الظن ٠ ولكن ليست هذه هى الشفقة الحقيقية بعد كل شيء ٠فان الزنوج فى هذه الأيام لا يستأهلون الا أن يدفع بهم هنا وهناك فى أنحاء العالم وليباعوا الى توم أو ديك أو الى من لا يدرى أحد غير الله٠ وليس من الشفقة فى شيء أن نملأ صدر الزنجى بالآمال والأمانى ، وأن نحسن تنشئته والعناية به ٠ لأن أوقات الشدة التى تنتظـــره ستكون بذلك أقسى عليه ٠ والآن أجرؤ على القول بأن عبيدك هؤلاء سيكونون لقمة سائغة فى مكان كالذى يضج فيه بعض عبيدكالمزارعين بالغناء والصفير والهدير كالمجانين ٠ ان كل انسان كما تعلم يامستر شلبى يحسن الظن فى تصرفاته طبعا ٠ وأنا أعتقد أنى أعامل الزنوج بالطريقة التى هم أهل لأن يعاملوا بها دائما ٠

وقال له شلبى وهو يهز كتفيه قليلا وبصوت لا يخفى ما فيه من الشعور بعدم الموافقة ٠

ـ ان من أسباب السعادة أن يشعر الانسان بالرضا عن نفسه ٠

وقال هالى بعد فترة من الصمت كانا خلالها يتناولان بعض ثمـــار الجوز :

ـ والآن ٠ ما رأيك ؟

ـ سوف أفكر فى هذا الموضوع وأتحدث فيه مـــع زوجتى ٠ وفى الوقت نفسه اذا كنت يا هالى تريد أن يتم الأمر بالطريقة الهادئةالتى تتحدث عنها ، فيحسن ألا تجعل طريقتك هـــذه معروفة فى هـــذه المنطقة ، فانها قد تشيع بين عبيدى ، وعندئذ لا يمكن اتمـــام الأمر بهدوء عندما أبعد واحدا من أتباعى اذا هم عرفوا الحقيقة ٠

ـ أوه ٠ بالتأكيد ٠ لا شك فى هذا طبعا ٠ ولكننى لا أخفى عنك أنى متعجل جدا ٠ وأحب أن أعرف بأسرع ما يمكن ما ينتهى اليـــه الأمر ٠

قال هذا وهو ينهض ويرتدى معطفه • فقال شلبى :

ـ لا بأس • يمكنك أن تعود لزيارتى هذا المساء فيما بين السادسة والسابعة • وسوف تتلقى اجابتى •

وانحنى التاجر محييا وهو ينصرف ••.

وقال شلبى لنفسه بعد أن أغلق الباب وراء الزائر :
ـ كنت أحب لو استطعت أن أركل هذا الرجل وأطوح به على السلم مع ثقته هذه البغيضة بنفسه • ولكنه يعلم مدى ما أنا مدين له به • ولو أن شخصا آخر قال لى اننى لا بد أن أبيـــــع توم فى الولايات الجنوبية ـ لواحد من تجـــار الرقيق الملاعين ـ لوجب على أن أقول « هل عميلك هذا كلب حتى يجب أن يفعل هذا ؟ » والآن يبدو لى أنه لابد من وقوع هذا الأمر • وطفل اليزا أيضا ! وأنا أعـــــرف أنى سأتعرض لبعض المتاعب من زوجتى بسبب هذا ، وبسبب توم أيضا• وكل هذا سببه الدين • وا أسفاه ! لقد عرف هذا الشخص طريقــه لاستغلالى ، وهو ينوى أن يندفع فيه •

ولعل أخف أنواع نظم الرق هو ذلك النوع المعـــروف فى ولاية كنتكى • فان الميزة العامة فى شئون الزراعة ذات الطبيعـــة الهادئة المتدرجة ، أى التى ليست فيها فترات موســـمية تستلزم السرعة والتركيز فى العمل كما هو الشأن فى الولايات الواقعة أبعد جنوبا ، تجعل مهمة الزنجى فى كنتكى شـيئا معقولا وأخف وطأة • هـــذا بينما نجد السيد الذى يقنع بنظام الأرباح التدريجية بريئا من هذا الميل الى القسوة الذى يسيطر عادة على الطبيعــة الانسانية الواهنــة عندما تداعب الآمال صاحب العمل بأرباح كبيرة مفاجئة لا يحول بينه وبينها أكثر من استخدام هؤلاء الضعفاء المستسلمين •

ان أى شخص يزور بعض هذه الولايات ، ويشهد الروح الطيبــة التى تسود بعض السادة والسيدات من أصحاب الأعمال ، والولاء الودى الذى يكنه لهم العبيد ، قد تغريه الأحلام بامكان تحقيق تلك الأسطورة الشاعرية عن قيام مجتمع من المحبة والتآلف كذلك الذى كان قائما فى سفينة نوح ، الا أنه سرعان ما يدرك أن فوق هذا المظهر

الخداع يجثم ذلك الظل الرهيب : ظل القانون ! فمادام القـــانون يعتبر كل هؤلاء المخلوقات البشرية بقلوبهم النابضة وعواطفهم الحية ليسوا الا كغيرهم من الأشياء الكثيرة التى يمتلكها سادتهم ، وما دام فشل الواحد منهم أو سوء حظه أو سفاهته أو موت السيد الشفيق قد يدفع بهؤلاء المساكين فى أى وقت الى حياة بائسة شقية بعد أن كانوا ينعمون بحماية كلها رعاية وعنـــاية ، أقول انه ما دام الأمر كذلك ، فان من المستحيل القيام بأى اجراء حسن أو مرغوب فيـه حتى فى أفضل المناطق التى يسودها نظام الرق ٠

لقد كان المستر شلبى بوجه عام رجلا شفيقا عطوفا ، هادىءالطباع ميالا لرعاية أولئك العبيد المحيطين به ٠ ولم يحدث أبدا أن أحدا ممن فى ضيعته كان ينقصه شىء يتعلق بلياقته البدنية وراحته ٠ على أنه كان يغامر فى صفقات خاسرة ، ويسرف فى التفاؤل وانفاق المال حتى أغرق نفسه فى الديون ، ثم وقعت صكوك كثيرة من ديونه فى يدى هالى ، وهذه النتفة الصغيرة من أحواله هى المفتـــاح الذى يكشف لنا عن سر المحادثة التى سبق ذكرها ٠

وحـــدث أن اليزا ، وهى تقترب من باب القـــاعة ، سمعت من حديثهما ما جعلها تدرك أن التاجر يعرض شراء شـــخص ما من سيدها ٠ وخطر لها فوق هذا أن التاجر عرض شراء ولـــدها ٠ فهل يمكن أن تكون أخطأت السمع ؟

ان قلبها لينتفخ وينبض بعنف ، وانها رغما عنها لتضمه الىصدرها بقوة جعلت الصغير يتطلع الى وجهها فى دهشة ٠

ولاحظت سيدتها هذا فسألتها قائلة :

ـ اليزا أيتها الفتاة ! ماذا يئودك اليوم ؟

وذلك عندما قلبت اليزا وعاء الغسيل ، ومنضدة العمل ، وقدمت لسيدتها ـ فى ذهول ـ قميص نوم حريرى بدلا من الثوب الحريرى الذى أمرتها باحضاره من الصوان ٠

واضطربت اليزا قائلة :

ـ أوه ٠٠ سيدتى ٠

ثم رفعت اليها عينيها ، وانفجرت باكية ، ثم تهالكت على مقعد ، وراحت تنخرط فى النحيب ٠

وعادت السيدة تقول :

ـ عجبا يا طفلتى اليزا ! ماذا يئودك ؟

ـ أوه ٠ سيدتى ٠٠ سيدتى ٠ كان ثمة تاجر عبيد يتحـــدث مع سيدى فى القاعة ٠ لقد سمعته ٠

ـ ويحك أيتها الطفلة الحمقاء ٠ لنفرض أنه تحدث !

ـ أوه ٠ سيدتى ٠ أتظنين أن السيد سيبيع هارى ؟!

وألقت الفتاة المسكينة بنفسها على مقعـــد آخر ، وأخذت تنشج بالبكاء ٠

وقالت سيدتها بدهشة :

ـ يبيعه ؟ لا أيتها الفتاة الغبية ٠ أنت تعرفين أن سيدك لا يتعامل أبدا مع أولئك النخاسين الجنوبيين، ولم يقصد أبدا أن يبيع أحدا من خدمه طالما هم يحسنون السلوك ٠ عجبا أيتها الطفلة البلهاء ٠ منذا تظنين يرغب فى شراء طفلك هارى أتحسبين أن العالم كله مشغول به كما تنشغلين يا أوزتى ؟ هيا ٠٠ هيا ٠٠ هدئى من نفسك، وعلقى ثوبك ٠٠ والآن ٠٠ صـــففى شعرى هـــذا المرسل على ظهرى بتلك الضفائر الجميلة التى تعلمتها ذاك اليوم ، ولا تعودى الى اســـتراق السمع من وراء الأبواب مرة أخرى ٠

ـ سمعا ٠ ولكنك يا سيدتى لن توافقى أبدا على ٠٠ على ٠٠

ـ كلام فارغ يا صغيرتى ! تأكدى أننى لن أوافق أبدا ٠ لماذا تقولين لى هذا ؟ اننى لا أقبل بيع هارى تماما كما لا أقبل أن أبيع أحد أولادى ٠ ولكن ٠ حقا يا اليزا ٠ انك ستتمادين فى الزهو بذلك الصغير ٠ ان الانسان لا يستطيع أن يضع أنفه بين مصراعى الباب ، ومع ذلك فأنت تحسبين أن الرجل لم يأت الا لشراء ابنك !

ومضت اليزا ، بعد أن اطمأنت الى ما فى نبرات صوت سيدتها من

لهجة اليقين ، فى تزيينها ببراعة واتقان وهى تضحك مما كان يساورها من خوف ٠

وكانت مسز شلبى أصيلة المنبت ، كريمة المحتـــــد ، تجمع بين الذكاء واستقامة الخلق ، يضاف الى هذا رحابة فى التفكير كثيرا ما يلحظ المرء أنهـــا احدى الخصائص المميزة لنساء كنتكى ٠ هذا عدا روح دينية عالية ، ومبادىء سامية مع طاقة من نشاط موفور ، وكفاءة ممتازة فيما تقوم به من أعمال ٠

وكان زوجها ـ وهو ليس شديد التدين ـ يحترم ، مع هـــذا ، اصرارها وتمسكها بمبادئها ويكبر هذا فيها ، بل لعلــــه كان يحس بشىء من الرهبة ازاء آرائها ٠

وفى الواقع كان يتيح لها أوسع مجال لتبذل جهودها الحميدة من أجل راحة خدمها وتدريبهم وتهذيبهم وتحسين أحوالهم ٠ وذلك رغم أنه لم يكن يقوم بأى دور معين فى هذه الجهود ٠ والحقيقة أنه اذا لم يكن شديد الايمان بأعمال الخير الخارقة التى يقوم بها القديسون ، فالظاهر أنه كان يتصور ـ بطريقة ما ـ أن لزوجتـــــه من التدين والصلاح ما يكفى لاثنين ، وما يجعل الآمال تخامر نفسه ، بدخـول الجنة بفضل الموفور مـن سجاياها الحميدة التى لم يزعم يوما أن له مثلها ٠

وكان أشد مايثقل على فكره ، بعد محادثته مع ذلك النحاس ، هو الضرورة الحتمية لاخبار زوجته بالاتفاق المزمع ، ومواجهـــة ضروب المعارضة والتقريع التى كان يعلم أن هناك ما يبرر تعرضه لها ٠

وكانت مسز شلبى ، الغافلة تماما عن ارتباك زوجهـا ، والتى لم تكن تعرف غير طبيعته الهادئة الرحيمة بوجه عام ، صادقة حقـا فى دهشتها واستنكارها اللذين قابلت بهما مخاوف اليزا ٠ انها ـ فى الواقع ـ أهملت الموضوع تماما ولم تحاول أن تعيد التفكير فيه ٠ ولما كانت مشـغولة بالاسـتعداد لزيارة مسائية ، فان الموضـوع أمسى ـ بالنسبة لها ـ فى عالم النسيان ٠

الفصل الثانى

الأم

كانت السيدة ـ مسز شلبى ـ قد ربت اليزا ، منذ صباها ، فتاة محبوبة مدللة الى حد الاسراف ٠

وليس من شك فى أن المسافر الى الجنوب يلحظ ذلك الجو الخاص من الصفاء ، ومن رقة الصوت والسلوك التى تبدو فى حالات كثيرة هبة خاصة للنساء الربع زنجيات والخلاسيات « المولدات » ٠ان هذه المميزات الطبيعية فى الربع زنجيات كثيرا ما تكون مقترنة بجمال من نوع رائع مثير ، كما تكون مقترنة فى كل حالة تقريبا ، بمظهرشخصى محبوب جذاب ٠ وان شخصية اليزا ـ كما وصفناها ـ ليست مرسومة من الخيال ، وانما هى مرسومة من الذكريات ، كما رأيناها منذ أعوام خلت ، فى كنتكى ٠ لقد بلغت ـ وهى آمنة فى رعـــاية ســــيدتها وعنايتها ـ مرحلة الأنوثة دون الوقوع فى حبائل هذه المغريات التى تجعل من الجمال صفة وراثية قاتلة فى العبيد ٠ لقد تزوجت بشاب خلاسى لامع موهوب ، كان عبدا فى ضيعة مجاورة ، ويحمل اسم جورج هاريس ٠

وكان سيد هذا الشاب قد أجره للعمل فى مصنع أكيـــاس حيث دفعت به براعته وعبقريته لأن يعتبر العـــامل الأول به ٠ وكان قد اخترع آلة لتنظيف ألياف القنب كانت ـ باعتبـــار ثقافة المخترع وظروفه ـ دليـــلا على عبقرية ميكانيكية لا تقل عن عبقرية هويتنى مخترع حلاجة القطن ٠

وكان فى ذاته شخصا وسيما حلو المعشر ، ومن ثم أصبح موضـع

الحب فى المصنع بوجه عام • ولكنه لم يكن فى نظر القانون انسانا، وانما كان مجرد شىء ، ولذلك فان كل هذه الصفات الممتازة كانت خاضعة لسيطرة سيد سوقى مستبد ضيق التفكير • ان هذا السيد نفسه ، حين سمع عن شهرة اختراع جورج ، استقل مركبة الى المصنع ، ليرى ماذا يفعل ذلك المملوك الذكى • وهناك استقبله مدير المصنع بحماسة شديدة ، وراح يهنئه على امتلاكه لمثل هذا العبد الثمين •

ولقى السيد فى المصنع كل تكريم وترحيب ، ومضى جورج يطلعه على الآلات وهو فى روح معنوية عالية ، وكان وهو يتحدث بطلاقة ، يشد قامته ، ويبدو فى مظهر من الوسامة والرجولة ، جعل سيده يبدأ فى الشعور باحساس مزعج من مركب النقص ، فما شأن هذا العبد فى الخروج الى البلد واختراع الآلات ورفع الرأس عاليا بين الأسياد ؟ لسوف يبادر بوضع حد لهذا كله • لسوف يعود به الى الضيعة ، ويكلفه بالعمل فى العزق والحفر و « سنرى كيف يستطيع أن يسير مشدود القامة هكذا » • وبناء على هذا ، فان مدير المصنع وجميع العمال فيه ، دهشوا أيما دهشة حين طالب السيد ، فجأة ، بأجور جورج ، وحين أعلن عن رغبته فى العودة به الى البيت •

وراجعه صاحب المصنع قائلا :

ــ ولكن ، يا مستر هاريس ! أليس هذا أمرا مفاجئا ؟

ــ وماذا لو أنه كذلك ؟ أليس الرجل •• ملكى ؟

ــ اننا على استعداد ، يا سيدى ، أن نزيد قيمة التعويض •

ــ لا جدوى من المعارضة اطلاقا يا سيدى ، فأنا لست بحاجة الى تأجير أحد عبيدى لأحد ، ما لم أرغب فى هذا •

ــ ولكنه يبدو ، يا سيدى ، مخصصا للقيام بهذا العمل •

ــ ربما كان ذلك • ولكنه لم يحسن التخصص فى أى عمل عهدت به اليه ، وأنا واثق مما أقول •

فتدخل أحد العمال ــ لسوء الحظ ــ قائلا :

ــ ولكن •• عليك أن تفكر فى اختراعه لهذه الآلة !

ــ آه •• نعم ! آلة لتوفير العمل ، أليس كذلك •• ان فى مقدوره

أن يخترع هذا ، أنا جد واثق ، فهذه حال أى زنجى يترك وشأنه أية مدة • ان الزنوج جميعا بلا استثناء آلات لتوفير العمل •• ولو أنى تركته وشأنه لأصبح صعلوكا كارها للعمل •

وكان جورج قد وقف متسمرا فى مكانه عند سماعه لهذا المصير الرهيب الذى أعلنته فجأة قوة يعرف أنه عاجز عن مقاومتها • وعقد ذراعيه على صدره ، وزم شفتيه بقوة ، ولكن بركان المشاعر المرة كان يندلع فى صدره ، ويرسل شواظا من النار فى عـــروقه • وترددت أنفاسه قصيرة ، وتضرمت عيناه السوداوان الكبيرتان كجمرات الفحم، وكان من الممكن أن ينفجر فى اهتياج عنيف لولا أن مدير المصـــنع الشفيق لمس ذراعه وقال له فى صوت خفيض :

ــ امتثل يا جورج • امض معه الآن ، ولسوف نحاول أن نساعدك فيما بعد •

ولحظ السيد المستبد هذا الهمس ، وأدرك مغـــزاه ، رغم أنه لم يسمع شيئا مما قيل • ومن ثم شدد من عزيمته للاحتفـاظ بحقوق سيطرته على ضحيته •

وأعيد جورج الى المزرعة حيث عهد اليه بأحقر الأعمـــال الشاقة فيها ، وقد استطاع أن يكظم كل كلمة نابية فى نفسه ، ولكن عينيه المضرمتين ، وجبينه المكتئب المقطب ، كانا جزءا من لغة طبيعية لايمكن أن تغفل وعلامات أكيدة تكشف بوضــوح تام أن الرجل لا يمكن أن يصبح مجرد سلعة •

وكان جورج فى تلك الفترة السعيدة التى عمل خلالها بالمصنع ،قد رأى اليزا وتزوج بها • وفى أثناء هذه الفترة التى كان فيها موضــع ثقة مدير المصنع وحبه ، متمتعا بحرية الغدو والرواح حيثما يريد • وكان الزواج موضع الرضاء التام من المسز شلبى ، التى شعرت ، بسبب الميل الأنثوى الغريزى ، فى جمع الشمل بين الزوجين بالبهجة لزواج صفيتها الجميلة المحبوبة بشاب من طبقتها يبدو مناسبا لهـا من كل وجه • وهكذا تم زواجهما فى قاعة استقبال سيدتها الكبيرة ، وتولت سيدتها بنفسها تصفيف شعر العـــروس وتزيينه بأزهـــار البرتقال ، وألقت فوقه نقاب الزفاف الذى قلما استقر على رأس أجمل

عنه • ولم ينقص حفل الزفاف القفاز الأبيض ، أو الكعكة الكبيرة ، أو الخمر — أو الضيوف المعجبون يمتدحون جمال العروس وكرم سيدتها وسماحتها • وظلت اليزا — عاما أو عامين — ترى زوجها كثيرا ، ولم يكن ثمة ما يشوب سعادتهما ، الا موت طفلين لهما ، كانت اليزا شديدة التعلق بهما ، فبكتهما فى حزن عميق أثار المزيد من مواساة سيدتها التى راحت — فى لهفة الأم الحانية — توجه هذه العواطف الطبيعية الحارة فى نطاق العقل والدين •

وبعد مولد هارى الصغير ، بدأت على كل حال ، فى الاحساس التدريجى بالسكينة والاستقرار ، وأصبحت كل رابطة دماء ، وكل خلجة أعصاب تشدها الى ذلك الصغير ، سببا لتمتعها بالصحة والعافية • وظلت اليزا فى غمار هذه السعادة حتى ذلك الوقت الذى انتزع فيه زوجها بخشونة من مخدومه الشفيق فى المصنع ، وأعيد الى قبضة سيده الشرعى الحديدية •

وصدق صاحب المصنع فى وعده ، فزار المستر هاريس بعد رحيل جورج بأسبوع أو أسبوعين ، حينما ظن أن ما حدث من غضب وانفعال قد زال ، وحاول بكل وسيلة ممكنة أن يقنعه باعادته الى عمله السابق •

وقال المستر هاريس بعناد :

— لا داعى لأن تشق على نفسك بالمزيد من الحديث فى هذا الشأن فأنا أعرف ماذا أفعل ياسيدى •

— وأنا لا أفكر فى التدخل فيما تفعل ياسيدى • ولكن خطر لى أنك قد ترى من صالحك أن تؤجر رجلك لنا بالشروط التى تريدها •

— اننى أفهم الموقف تماما • فقد رأيت غمزاتك وهمساتك فى ذاك اليوم الذى أخذته فيه من المصنع • ولكن ، لا ترغمنى على ما لا أريد ، فنحن فى بلاد حرة ياسيدى والرجل ملكى ، ومن حقى أن أفعل به ما أشاء • هذا هو الأمر •

وهكذا ضاع آخر أمل لجورج ، فلم يبق أمامه الا حياة من الكدح والعمل الشاق ، تزداد مرارتها دائما بكل صغيرة مما يثير فى النفس الشعور بالاستياء والمهانة الذى يمكن أن تسببه طبيعة الاستبداد القاسية ٠

وقد قال مرة رجل رحيم جدا من فقهاء القانون : ان أسوأ مايمكن أن تفعله برجل هو أن تشنقه ٠٠ لا ٠٠ بل هناك ما هو أسوأ من هذا يمكن أن تفعله به !

الفصل الثالث

الزوج والوالد

مضت المسز شلبى الى زيارتهـــا ، ووقفت اليزا فى الشرفة على شىء من الاكتئاب وهى تشيع بنظراتهـــا المركبة المبتعدة ، واذا يد توضع على كتفها ، فلما التفتت اذا عيناها تتألقان بابتسامة مضيئة، واذا هى تقول :

ـ جورج • أهـــذا أنت ؟ لشـــــد ما أفزعتنى !•• ما أبهجنى بحضورك • لقد ذهبت سيدتى لقضاء فترة الأصيل فى الخـارج • فهلم الى غرفتى الصغيرة حيث يكون الوقت كله لنا •

قالت هذا وهى تجذبه الى غرفة نظيفة صـغيرة لها باب يفضى الى الشرفة حيث كانت تجلس عادة تخيط ملابسها ، وقريبة من سيدتها حين تدعوها • وعادت تقول :

ـ ما أشد سرورى ! لماذا لا تبتسم ؟ انظر الى هارى وكيف ينمو بسرعة •

وكان الصغير واقفا يختلس النظر الى أبيه من بين خصلات شعره المموج وهو متشبث بأطراف ثوب أمه التى قالت باسـمة وهى ترفع خصلاته الطويلة وتقبله :

ـ أليس جميلا ؟!

فقال جورج بمرارة :

ـ أتمنى لو أنه لم يولد أبدا • بل أتمنى لو أنى أنا أيضا لم أولد•

فجلست اليزا ، فى دهشة وخوف ، وأمالت رأسـها على كتف زوجها ، وانفجرت باكية • فقال لها بمودة واعزاز :

ـ لا لا يا اليزا • لشد ما أخطىء اذ أجعلك تشعرين هذا الشعور يا فتاتى المسكينة نعم •• انه لخطأ كبير •• لشد ما أتمنى لو أنك لم ترينى أبدا • فقد كان من الممكن أن تكونى سعيدة •

ـ جورج •• جورج •• كيف تتحدث هـــذا الحديث ؟ ما هـذا الشىء الفظيع الذى حدث أو الذى سيحدث ؟ اننى واثقة أننـــا كنا سعيدين ، حتى العهد الأخير •

ـ نعم يا عزيزتى •

قالها جورج ، ثم وضع الطفـل على ركبتيه وراح يمعن النظر فى عينيه الجميلتين الســـوداوين ويتخلل بأصابعه خصـــلاته المموجة الطويلة ، ويقول :

ـ مثلك تماما يا اليزا • وأنت أجمـــل فتاة رأيتها فى حيـاتى ، وأفضل واحدة أتمنى أن أراها • ولـــكن •• آه • أتمنى لو أنى لم أرك أبدا ، ولم ترينى أنت •

ـ آه •• ياجورج • كيف تقول هذا ؟

ـ نعم يا اليزا • ان الحياة كلهـا بؤس •• بؤس •• بؤس ! ان حياتى مرة كحياة الورود • ان شعلة حيـاتى تنطفىء رويدا • اننى رجل فقير ، بائس ، مسخر منبوذ • اننى سأنحدر بك معى • هـذا هو كل شىء • ما جدوى أن نحاول عمل أى شىء ، أو نحاول معرفة أى شىء ، أو نحاول أن نكون شيئا ! ما جدوى البقاء على قيد الحياة ؟ أتمنى لو أنى ميت •

ـ لا لا يا عزيزى جورج • ان ما تقوله منكر حقـــا ! وأنا أعرف شعورك بسبب فقدك العمل فى المصنع ، وبسبب أن لك ســـيدا قاسيا • ولكننى أرجوك أن تتذرع بالصبر ، وربما •••

فقاطعها قائلا :

ـ الصبر ؟ ألم أكن صابرا دائما ؟ هل تفوهت بكلمـة حين جاء وأخذنى ـدون أى مبرر ـ من المكان الذى كان كل من فيه شفيقا بى !

لقد دفعت اليه بكل قرش عملت به ۰ والجميع يقولون انني أحسن العمل ۰

ـ ان الأمر لفظيع ۰ ولكنه مع هذا سيدك كما تعلم ۰

ـ سيدى ! ومن ذا جعله سيدا لى ؟ هذا ما أفكر فيه ۰ أى حق له على ! فأنا رجل مثله تماما ۰ بل انني رجل أفضل منه ۰ فأنا أعرف من شئون العمل أكثر مما يعرف ۰ وأنا فى ادارة الأعمال خير منه۰ وفى مقدورى أن أقرأ أحسن مما يستطيع ، وأن أكتب بخط أجود من خطه ۰ وقد تعلمت هذا كله بنفسى ، فلا فضل له فى ذلك ۰ بل تعلمت هذا كله رغما عنه ۰ والآن بأى حق يتخذ منى حمار سخرة ! لكى ينتزعنى من الأشياء التى أستطيع أداءها بأفضل مما يستطيع هو ، ثم يعهد الى بعمل يمكن أن يقوم به أى حصان ؟ انه يحاول هذا معى ، كما يقول ، ليكسر نفسى ويذلنى ، وهو يكلفنى بأشق الأعمال وأحقرها وأقذرها عن عمد ۰

ـ آه ۰۰ ياجورج ۰۰ انك تخيفنى ! عجبا ۰۰ اننى لم أسمعك أبدا من قبل تتحدث على هذا النحو ۰ اننى أخشى أن ترتكب شيئا فظيعا ۰ وأنا لا أعجب أبدا من شعورك ولكن۰۰كن على حذر۰۰ أرجوك ۰۰ من أجلى ۰۰ ومن أجل هارى ۰

ـ كنت على حذر دائما ، وصابرا دائما ۰ ولكن الأمر يزداد سوءا على سوء ۰ وان اللحم والدم لا يستطيعان الاحتمال أكثر مما احتملا فهو ينتهز كل فرصة سانحة ليذلنى ويعذبنى ۰ لقد خطر لى أنى أستطيع أن أقوم بعملى كما ينبغى ، وأن أبقى هادئا ، وأن أجد بعض الوقت للقراءة والتعلم بعد الفراغ من العمل ، ولكنه كلما رأى كثرة ما أستطيع القيام به ، زاد من العبء على ، وهو يقول انه ـ بالرغم من أننى لا أقول شيئا ـ يرى فى أعماقى شيطانا ، وأنه ينتوى اخراجه ۰ ولسوف يخرج هذا الشيطان ذات يوم بطريقة لا يرضاها السيد ، والا فانى مخطىء ۰

فقالت اليزا والحزن باد عليها :

ـ ماذا يمكن أن تفعل ياعزيزى ؟

فرد عليها جورج قائلا :

ـ لقد حدث أمس فقط وأنا مشغول بحمل أحجار الى عربة ، أن وقف السيد توم الصغير يفرقع بالسوط قريبا من الحصان ليفزعه، فطلبت اليه ، بألطف صوت ، أن يكف · ولـكنه تمادى فى عمله · فرجوته مرة أخرى ، وعندئذ اســـتدار ، وبدأ يضربنى · فأمسكت بيده ، فراح يصرخ ويركلنى ، ثم هرع الى أبيه وقال له اننى كنت أتعارك معه ، وجاء الوالد ثائرا وقال انه سيعرفنى من هو سيدى ، ثم ربطنى فى شجرة ، وقطع له قضبانا منها ، وطلب اليه أن يجلدنى حتى يكل · وقد فعلها · ولكنى سأجعله يذكر هذا يوما ·

وتجهم وجه جورج ، واضطرمت عينـــاه بنظرات جعلت زوجته الشابة ترتعد ومضى هو قائلا :

ـ من جعل هذا الرجل سيدا على ؟ هذا ما أريد أن أعرفه ؟

فعادت اليزا تقول وهى حزينة :

ـ لقد كنت أرى دائما أنه ينبغى أن أطيع سيدى وسيدتى ، والا لما كنت مسيحية ·

ـ ان هذا معقول فى حالتك ، فانهما ربياك كأنك ابنة لهمـــا ، وأطعماك ، وكسياك ، ودللاك ، وعلماك ، ولهـــذا فأنت ذات تعليم جيد ، وهذه بعض الأسباب التى تبرر حقهما عليك · ولكنى كنت دائما موضع الركل والتحقـــير والسب ، وفى أحسن الحالات كنت أترك وشأنى · فأى فضل أعترف به لأحد ؟ لقد دفعت ثمن ايوائهم اياى بأجورى مائة مرة ، اننى لم أعد أحتمل ·· لم أعد أحتمل ··

قال هذا وهو يقبض يديه ويقطب جبينه فى عنف ·

وارتعدت اليزا ولزمت الصمت · فانها لم تر أبدا زوجها على هذه الحالة من قبل · وبدا كأن مبادئها الأخلاقية الرفيعـــة تنحنى أمام هذه العواطف الهوجاء كما ينحنى عود الغاب فى مهب الريح ·

وأضاف جورج قائلا :

ـ انك تعرفين الكلب الصغير المسكين كارلو ٠٠ الذى أعطيتنى اياه ٠٠ لقد أتحت للمخلوق البائس كل مافى وسعى من راحة ٠ كان ينام معى فى الليل ، ويتبعنى فى النهار ، وينظر المسكين الى كأنما يدرك مشاعرى ٠٠ وقد كنت أول أمس أطعمه من فتات طعام قليلة قديمة التقطتها عند باب المطبخ ، ومر السيد بى وقال اننى أطعمه من ماله ، وانه لا يستطيع أن يقبل أن يكون لكل زنجى عنده كلب ٠ ثم أمرنى أن أضع فى عنقه حجرا وأغرقه فى البركة ٠

ـ جورج ٠٠ لست أظنك فعلت هذا ٠

ـ أفعله ؟ لم أفعله أنا بل فعله هو ٠ لقد ظل هو وابنه توم يضربان الكلب المسكين بالحجارة فى الماء حتى غرق ٠ يا للبائس المسكين ! لقد كان ينظر الى وسيماء الحزن بادية عليه كأنما يعجب لماذا لا أنقذه ٠ وقد جلدت لأنى لم أغرقه بنفسى ٠ ولكنى لم أحفل٠ لسوف يعرف السيد أخيرا أننى لست من الذين يكسر الضرب شوكتهم ٠ وأن يومى سوف يأتى اذا لم يكن هو على حذر ٠

ـ ماذا تنوى أن تفعل ؟ ياجورج ، لا تفعل شرا ! فأنت اذا تركت أمرك لله ، وحاولت أن تؤدى الواجب ، فان الله سوف ينقذك ٠

ـ اننى لست متدينا مثلك يا اليزا ٠ فان قلبى مفعم بالمرارة ، وانى لأتساءل : لماذا يترك الله الأمور تجرى على هذا النحو ؟

ـ آه ٠٠ ياجورج ٠٠ ينبغى أن نؤمن بالله ٠ ان سيدتى تقول انه عندما تسوء الأحوال ، يجب علينا أن نؤمن بأن الله يصرف الأمور على خير وجه ٠

ـ من السهل أن يقول هذا قوم يجلسون على الأرائك ، ويركبون فى مركباتهم الخاصة ٠ ولكنك ان وضعت هؤلاء فى مكانى فلن تجدى الأمر فيما أظن بمثل هذه البساطة ٠ اننى أتمنى لو أستطيع أن أكون انسانا طيبا ،ولكن قلبى يتلظى ، ولم أعد أستطيع الاحتمال على كل حال ٠ وأنت لا تستطيعين الاحتمال لو كنت فى موضعى ، بل ولا تستطيعين الآن اذا أنا أخبرتك بكل ما يجب أن أقول ٠وأنت لم تعرفى بعد كل شىء ٠

ـ وماذا أنت فاعل الآن ؟

ـ كان السيد يقول في الأيام الأخيرة انه كان أحمق حين تركني أتزوج بعيدا عن مزرعته ، وانه يكره المستر شلبي وكل عشيرته ، لأنهم متكبرون يرفعون دائما رءوسهم فوق رأسه ، وانني قد تعلمت بعض الكبرياء منك ، وهو يقول انه لن يسمح لي بالحضور هنا بعد اليوم ، وانني سـوف أبني بزوجة وأقيم في أرضه • وكان في أول الأمر يؤنبني ويتوعدني بهـذه الأقوال ، ولكنه أخبرني أمس أنه ينبغي أن أتخذ مينا زوجة لي ، وأن أستقر في كوخ معها ، والا باعني في أدنى النهر •

فقالت اليزا ببساطة :

ـ عجبا ! ولكنك تزوجتني على يد الكاهن ، تماما كأنك رجـل أبيض •

ـ ألا تعرفين أن العبد لا يستطيع الزواج ؟ فليس في هذه البلاد قانون لهذا ، فأنا لا أستطيع أن أتمسك بك كزوجة اذا أراد السيد أن يفرق بيننا • هذا هو السبب في أني أتمنى لو أنني لم أرك ، ولم أولد • كان هذا أفضل لنا معا ، كان أفضل لهذا الطفل المسكين لو أنه لم يولد أبدا • فان هذا كله قد يحدث له فيما بعد •

ـ ولكن سيدي جد عطوف •

ـ نعم ، ولكن من يدري ؟ انه قد يموت • وان الطفل عندئذ قد يباع لشخص لا نعرفه • ما جدوى ابتهاجنا بجماله ونشاطه وذكائه؟ واني لأقول لك يا اليزا ان سيفا سينفذ في شغاف روحك من أجل كل صفة بهيجة طيبة يتصف بها ابنك • ان هـذه الميزات تجعله أثمن من أن تستطيعي الاحتفاظ به •

ونفذت الكلمات كأسنة الحـراب في قلب اليزا • ولاحت أمام عينيها رؤيا النخـاس ، ثم اذا هي تمتقع كأنما أهوى عليها أحـد بضربة مميتة ، فراحت تشهق بأنفاسها • ونظرت في توتر عصبي الى الشرفة حيث كان الصبي ، الذي ضاق بالمحادثة الكئيبة ، قد عاد

اليها ، وراح يركب منتصرا عصا المستر شلبى ، فى رواح وغدو ٠ وقد رغبت فى أن تفضى بمخاوفها الى زوجها ، ولكنها منعت نفسها عن ذلك وهى تفكر :

« لا ٠٠ لا ٠٠ ان لديه مايكفيه من الأعباء ٠٠ هذا المسكين ٠ لا ٠ لن أخبره ٠ وعدا هـــذا فان الأمر ليس حقا ٠ وان سـيدتى لم تخدعنا أبدا »

وقال الزوج بصوت حزين :

ـ والآن يا اليزا يافتاتى ، تشجعى ، وداعا ٠٠ لأنى راحل ٠
ـ الى أين أنت ذاهب ياجورج ؟
فقال وهو يشد نفسه :

ـ الى كندا ٠ وعندما أكون هناك ، سوف أشتريك ٠ هـــذا كل ما بقى لنا من أمل ٠ ان لك سـيدا عطوفا ، ومن ثم فلن يرفض أن يبيعك لى ٠ لسوف أشتريك أنت والطفل ، والله على ما أقول شهيد ٠

ـ يا للفظاعة ! كيف تكون الحال لو قبض عليك ؟
ـ انهم لن يقبضوا على يا اليزا ٠ لسوف أموت أولا ٠٠ لســوف أظفر بالحرية أو أموت ٠

ـ انك لن تقتل نفسك ؟

ـ لا حاجة بى لهذا ٠ انهم اذا رأونى هاربا فسوف يقتلوننى من فورهم ٠ لن يسمحوا لى أبدا بأن أنحدر فى النهر حيا ٠

ـ آه ياجورج ٠٠ كن على حذر من أجلى ٠ لا ترتكب شيئا نكرا ٠ لا تقتل نفسك أو أحدا غيرك ٠ حقا انك قد استثرت كثيرا ٠٠ أكثر مما ينبغى ٠ ولكن حذار ٠٠ اذا كان لا مندوحة من هربك ، فاهرب بحذر وحيطة ، وابتهل الى الله ليكون فى عونك ٠

ـ اذن ، يا اليزا ٠ اسمعى أقص عليك خطة هربى ٠ لقد استبدت برأس السيد فكرة ارسالى الى هنا فورا برسالة للمستر سيمز المقيم على مسافة ميل قبل هذا المكان وأعتقد أنه يتوقع أنى سآتى اليك

لأخبرك بما أعانيه ، وبما استقر عليه الأمر • ولسوف يسره اذا ظن أن ما أخبرك به سوف يكدر « جماعة شلبى » كمـــا يسميهم • والآن سوف أعود اليه مستسلما ، أتفهمين ، كأن كل شيء بيننا قد انتهى • وقد أعددت لذلك العدة • وهناك أولئك الذين سيعاونونني وفي خلال أسبوع أو نحوه ســوف أكون بين المفقودين يوما • ادعى الله يا اليزا فلعل الله يتقبل منك أنت الدعاء •

ـ ادعه أنت ياجورج ، وتوكل عليـــه ، وعندئذ لن ترتكب أمرا نكرا •

ـ سأفعل ، واستودعك الله الآن •

قال جورج ذلك وهو يمسك بيدى اليزا ويطيل النظر الى عينيها دون أن يريم ، وبقى الاثنان صـــامتين برهة •• ثم كانت آخـــر كلماتهما التى انفجرا بعدها بالبكاء المر والنحيب ـ وكان فراقهمـا فراق من آمالهم فى اللقاء أوهن من نسيج العنكبوت ـ وهكذا افترق الزوج وزوجته •

الفصل الرابع

أمسية في كوخ العم توم

كان كوخ العم توم بناء خشبيا صغيرا ، على مقربة من « البيت » ، كما يسمى الزنجي ، في ازدهاء ، مسكن سيده . وكانت أمامه رقعة من حديقة منظمة حيث تزدهر في كل صيف ، بسبب الرعاية الدقيقة ، أشجار الشليك والعناب ومجموعة من الفواكه والخضروات . وكانت واجهته كلها مكسوة بنبات البنونيا القرمزي ومجموعة أزهار محلية كانت في تشابكها وانتشارها لا تكاد تترك فراغا ترى منه عروق الخشب الغليظة . وهنا أيضا ، في الصيف ، كانت مختلف الزهور الموسميات مثل أزهار النونر والبطونة ونوار الليل تجد ركنا ظليلا تعرض فيه بهاءها ، وتغدو موضع ابتهاج العمة كلو وزهوها .

وهيا بنا ندخل المسكن . لقد فرغ القوم من طعام المساء ، وتركت العمة كلو — التي تولت اعداده بصفتها رئيسة الطهاة — لتقوم بأعمال أقل شأنا في المطبخ ، مثل رفع الأواني ، وغسل الأطباق ، ثم الذهاب الى كوخها الآمن ، لتحمل « للرجل العجوز » عشاءه . ومن ثم فلا يخطرن الشك ببالك انها هي نفسها التي تراها الآن واقفة أمام الموقد ، مشغولة في اهتمام شديد ببعض الأطعمة الفائرة أثناء التحمير في وعاء الطهو ، ثم وهي ترفع — في جد ووقار — الغطاء عن قالب الكعكة ، حيث تنم الرائحة المنسابة منها عن « شيء لذيذ » . وان الوجه الأسود المستدير اللامع هو وجهها ، وقد بلغ من لمعانه مايثير الظن بأنها قد تكون دهنته ببياض البيض كما تفعل بفطائر الشاي ، وكان وجهها المكتنز كله يشرق بالقناعة والرضى تحت عمامتها المنشاة ذات المربعات ، وكان هذا

الوجه على كل حال ينم ، اذا لم يكن بد من الاعتراف ، عن لون بسيط من الشعور بالذات الذى يناسب أبرع طاهية فى الناحية كلها كما يشهد بذلك ويعترف الجميع للعمة كلو ٠

انها حقا طاهية بكل خلجة ونأمة فى كيانها كله ٠ وليس ثمة دجاجة أو ديك رومى أو بطة فى فناء مخزن المحصولات الا وترتسم الكآبة على وجهها حين ترى العمة كلو مقتربة منها وقد بدا على وجهها أنها تفكر فى وضع حد لحياتها ٠ والواقع أنها كانت يقينا دائمة التفكير فى اعداد الدواجن ، وحشوها وتحميرها الى درجة يمكن أن توحى بالفزع فى قلب أية دجاجة حية لو كانت لها موهبة التفكير ٠ أما ألوان كعكها المصنوع من الحنطة على مختلف الأنواع والأشكال والأنماط التى تند كثرتها عن الحصر ، فقد كانت صناعتها سرا غامضا فى نظر جميع الذين يقلون عنها دربة وبراعة فى الطهو ٠ وان جانبيها البدينين ليهتزان بالزهو الصادق والضحك وهى تسرد كل المحاولات الفاشلة التى طالما بذلها الواحد بعد الآخر من زملائها فى المهنة ليرتفعوا الى مستواها ٠

وكان حضور الضيوف الى البيت ، واعداد وجبات الغذاء والعشاء على أحدث « طراز » يوقظ كل طاقات النشاط فى روحها ، وليس ثمة منظر أحب اليها من رؤية حقائب السفر مكومة فى الشرفة ، لأنها عندئذ تدرك أنها ستقوم بمجهودات جديدة فى ميدانها ، وستحرز انتصارات جديدة ٠

ونحن نجد العمة كلو ، فى الوقت الحاضر ، على كل حال ، مشغولة بالنظر فى قالب الكعكة ، ولكننا سنتركها الآن فى عملها هذا اللطيف ، حتى نفرغ من تصويرنا للكوخ ٠ كان فى أحد الأركان سرير مغطى فى عناية بمفرش أبيض ناصع ، وبجانبه قطعة من السجاد ذات حجم كبير ٠ وعلى هذه القطعة من السجاد اتخذت العمة كلو موقفها ، بوصف كونها فى طبقات الحياة العليا ، وفى الواقع أنها ، أى السجادة ، والسرير القائم بجانبها ، والركن كله ، كانت موضع اهتمام خاص ، وحرما غير مباح ــ بقدر الامكان ــ للصغار الأشقياء العابثين ٠ والحق أن هذا الركن هو قاعة

الاستقبال فى المسكن • أما فى الركن الآخر فثمة سرير أشد تواضعا معد ـ كما يبدو ـ للاستعمال • وكان الجدار فوق المصطلى محلى ببعض الرسوم الزاهية المستمدة من الكتاب المقدس ، وبصورة القائد واشنطن مرسومة بالألوان وبطريقة لاشك تدهش ذلك البطل لو حدث أن رأى مثلها يوما •

وعلى مقعد خشبى غليظ فى الركن ، جلس طفلان بشعر مفلفل وعيون سوداء لامعة ووجنات مكتنزة براقة ، يرقبان أولى محاولات مشى الطفلة التى تتكون ، كالمعتاد ، من النهوض على قدميها والتوازن برهة ، ثم السقوط • وكانت كل سقطة بعد الأخرى تقابل بهتاف عال باعتبارها نوعا من البراعة لا شك فيه •

وكان ثمة منضدة ، تعانى فى قوائمها بعض الروماتزم ، موضوعة أمام الموقد ، ومغطاة بمفرش عليه أقداح وأطباق زاهية الزخارف ، تنم عن اقتراب موعد الطعام • والى هذه المنضدة جلس العم توم ، أحسن عمال المستر شلبى ، والرجل الذى يجب ـ بصفته بطل قصتنا ـ تقديم صورة كاملة له للقراء • كان رجلا كبير الجسم ، عريض الصدر ، متين الأسر ، لامع السواد ، بوجه تنم ملامحه الافريقية الأصيلة عن سمات الوقار والثبات والفطنة المقترنة بالكثير من الشفقة وحب الخير • وكان فى مظهره العام شىء يكشف عن شعوره بالاحترام الذاتى والتبجيل الخاص ، ومع ذلك فانه ـ أى هذا الشعور ـ ممتزج بلون من البساطة المتواضعة المحببة للنفس •

وكان فى تلك اللحظة شديد الاهتمام بلوح اردواز موضوع أمامه، يحاول أن ينسخ عليه ، فى بطء وحذر ، بعض الحروف • وكان المشرف على هذه العملية السيد الصغير جورج ـ وهو غلام ذكى فى الثالثة عشرة من عمره ـ وكان يدرك كل الادراك كما يلوح أهمية مكانته بوصفه معلما •

وقال الغلام بنشاط حين رأى العم توم يرسم ذيل أحد الحروف خطأ :

ـ لا ·· ليس هكذا ياعم توم ·· ان رسمك لهذا الحرف يجعله يبدو حرفا آخر ·

وقال العم توم وهو ينظر فى إعجاب واحترام الى المعلم الصغير الذى راح يخط الحرفين المتشابهين بضع مرات لتعليمه الفوارق بينهما :

ـ يا للبراعة ·· هكذا يكون الأمر ·

وأمسك بقلم الرصاص بأصابعه الكبيرة الثقيلة وشرع يعيد الكتابة فى صبر وأناة · أما العمة كلو فقد قالت وهى تتوقف برهة عن تحمير قطعة من اللحم ، وتنظر الى السيد الصغير جورج بفخر :

ـ ما أشد السهولة التى يؤدى بها البيض الأعمال · والطريقة التى يكتب بها السيد جورج الآن ، ويقرأ أيضا ، ثم يأتى هنا فى الأمسيات ليقرأ علينا دروسه ، ان هذا الأمر ممتع حقا ·

فقال جورج :

ـ ولكننى ياعمتى كلو بدأت أشعر بجوع شديد ·· ألم توشك هذه الكعكة التى فى القالب أن تنضج ؟

ـ على وشك النضج ياسيد جورج ·

ورفعت العمة كلو الغطاء وأمعنت فيها النظر وهى تقول :

ـ جميلة التحمير ·· نعم ·· محمرة لذيذة ·· آه ·· أنا وحدى التى أصنع هذا · لقد تركت سيدتى زميلتى سالى تحاول ذاك اليوم أن تصنع بعض الكعك لكى تجعلها تتعلم كما تقول · فقلت لها « ياسيدتى ·· افعلى » وقد حز فى نفسى حقا أن أرى بعض الفطائر تفسد بهذه الطريقة ·· لقد ارتفع بعضها من جانب واحد فلم يكن لها أى شكل أكثر من شكل الحذاء ·

وبهذا التعبير الأخير من الزراية بعدم خبرة سالى ، رفعت العمة كلو الغطاء بسرعة عن القالب ، وكشفت للعيان كعكة كبيرة جيدة النضج لا يخجل من عرضها أى متجر للحلوى · ولما كانت هذه أهم

طعام فى وجبة العشاء ، فقد شرعت العمة الآن فى اعداد باقى الطعام بسرعة واهتمام وهى تهتف للأطفال :

ـ ها ٠٠ أنت ياموسى ويابيت ٠٠ أفسحا الطريق لى أيها الزنجيان ٠٠ وأنت يابولى ياحلوه ٠٠ أفسحى الطريق لى ٠٠ ان ماما ستعطيك بعض الطعام ٠٠ قليلا قليلا قليلا ٠٠ والآن ياسيد جورج ، ارفع كتبك هذه واجلس للطعام مع رجلى العجوز ، ولسوف أحمر اللقانق الآن بسرعة ، وأملأ الأطباق أمامكما بالفطير فى أقل من لحظة ٠٠

فقال جورج :

ـ لقد أرادوا منى أن أتناول العشاء فى البيت ٠ ولكننى أعرف أين أجد الطعام الشهى يا عمتى كلو ٠

فقالت العمة كلو وهى تملأ طبقه بفطيرة زبد ساخنة :

ـ حقا انك تعرف أيها العزيز ٠ انك تعرف أن عمتك العجوز تحتفظ لك بأشهى الطعام ، وتتركك تأكل كما تريد ٠٠ هلم ٠

ولكزت العمة كلو الغلام باصبعها فى دعابة وعطف ، ثم استدارت بنشاط الى صفحة الكعك ٠

وقال السيد الصغير جورج حين رأى موجة النشاط تخف فى منطقة الصفحة :

والآن ٠٠ علينا بالكعك ٠

ثم رفع سكينا كبيرة فوق هذه الكعكعة فأمسكت العمة كلوبذراعه فى لهفة وهى تقول :

ـ بارك الله فيك يا سيد جورج ! انك لن تقطع هذه الكعكعة بمثل هذه السكين الكبيرة الثقيلة ٠ انها تحطمها كلها وتفسد انتفاخها الجميل ٠ هنا سكين صغيرة قديمة حادة أحتفظ بها لهذا الغرض ٠ انظر ٠٠ انها تقطعها بخفة الريشة ٠٠ والآن ٠٠ كل ٠٠ انك لن تجد شيئا أشهى مذاقا منها ٠

وقال جورج وهو يتحدث بفم ممتلىء :
ـ ان توم لنكون يقول ان طاهيتهم جينى أبرع منك ٠

فقالت العمة كلو فى ازدراء :

ان جماعة لنكون هؤلاء لا فى العير ولا فى النفير ٠ أعنى اذا قورنوا بجماعتنا من السادة ٠ انهم قوم محترمون ٠ ولكنهم جد عاديين ٠ انهم لا يعرفون شيئا عن الذوق الجميل ٠ بل انهم لم يبدءوا بعد معرفة شىء من هذا ٠ قارن السيد لنكون بالسيد شلبى ٠٠ يا للفارق الكبير ٠ ومسز لنكون ؟ هل فى مقدورها أن تنساب فى الغرفة مثل سيدتى ؟ أعنى بنفس الرشاقة والأبهة كما تعلم ؟ ٠٠ دعك من هذا ولا تقل لى شيئا عن آل لنكون ٠

وهزت العمة كلو رأسها الى أعلى كشخص يتمنى لو أنه لم يعرف أمثال هؤلاء ٠

وقال جورج :

ـ ولكننى سمعتك تقولين ان جينى طاهية بارعة ٠

ـ نعم ٠٠ ربما قلت هذا ٠ وأنا أعنى بارعة فى طهو الطعام البسيط العادى ٠ ان جينى يمكنها أن تبرع فى هذا ٠ يمكنها أن تصنع أرغفة جيدة من الخبز ، ولكن فطيرة الحنطة التى تصنعها ليست ممتازة ، نعم ٠٠ ليست ممتازة ٠٠ ان جينى لا تستطيع صنع فطائر ممتازة ٠ لأن الفطائر الممتازة شىء رفيع ٠٠ يا الهى ٠٠ اننا اذا دخلنا فى الجوانب الرفيعة من فن الطهو ،فماذا فى وسع جينى أن تفعل ! آه ٠٠ انها أيضا تصنع الكعك ٠٠ انها يقينا تستطيع ، ولكن بلا اتقان فنى ٠ هل يمكنها أن تصنع فطيرة ناعمة تذوب فى الفم ، ومع ذلك تبدو ككرة من الذرور ؟ والآن ٠٠ لقد حدث عندما تزوجت مس مارى أن جاءت جينى وأطلعتنى على فطائر الزفاف التى صنعتها ٠ فأنا وجينى صديقتان كما تعلم ٠ ولم أقل شيئا لها ٠ ولكن أتعرف الحقيقة يا سيد جورج ؟ اننى ما كنت لأغمض عينى أسبوعا لو أنى صنعت فطائر كهذه ٠٠ عجبا ٠٠ انها لم تكن فطائر اطلاقا ٠٠
ـ أعتقد أن جينى كانت تراها فطائر ممتازة ٠

ـ تراها كذلك ؟ أحق ؟ لا شك فى ذلك ، لأنها كانت تستعرضها أمام الجميع بسذاجة كما ترى ٠٠ أتدرى لماذا ؟ لأنهـا هى لم تكن تعرف الحقيقة ٠ والأسرة لم تقل شيئا فان أحدا لم يكن يتوقع أنهـا تعرف شيئا ٠ كانوا يقولون ان « الخطأ ليس خطأها » آه يا سـيد جورج ، انك لا تعرف نصف امتيازاتك فى المولد والتربية ٠

وهنا تنهدت العمة كلو ، وقلبت صدفتى عينيها فى انفعال شديد وقال جورج :

ـ أنا واثق أنى أفهم كل امتيـازاتى فيمـا يختص بالكعك والفطير ٠ اسألى توم لنكون كيف أزهو عليه فى هـذا الشأن كلما التقيت به ٠

وتراخت العمة كلو فى مقعدها ، واستغرقت فى ضحك عريض لهذه الفكاهة البارعة من السيد الصغير ٠وظلت تضحك حتى انحدرت الدموع على خديها الأسودين اللامعين ، كل هذا وهى تداعبه باللكز والتربيت ، وتقول له انه تحفة ، وانه يجب أن ينصرف ، وانه كفيل بأن يقتلها بدعاباته ، وانه يقينا سيقتلها يوما ، وكانت بـين كل عبارة وأخرى تنطلق فى ضحكات ، كل منها أطول وأقوى من الأخرى، حتى ظن جورج أنه حقا شخص بارع الفكاهة الى حد خطـير ، وأن الواجب عليه أن يكون حذرا فى حديثه « الظريف الى أقصى حد » ٠

ـ اذن فأنت باهيت توم ؟ أليس كذلك ؟ يا الهى ٠٠ ماذا ينوى أن يفعل الصغار بنا ؟ اذن فأنت زهوت عليه بى ؟ يا الهى يا سيد جورج ٠٠ لقد أضحكتنى حتى لأخشى على نفسى من الموت ضحكا ٠

فقال جورج :

ـ نعم ، قلت له « توم ، عليك أن ترى بعض الفطائر التى تصنعها عمتى ٠٠ انها فطائر ممتازة »

ـ ان توم للأسف لا يستطيع هذا الآن ٠

وامتلأ قلب العمة العطوف بالشفقة على توم المحروم من أطـايب صنعها ، ومن ثم مضت تقول :

ـ ينبغي أن تدعوه الى طعام العشاء يوما يا سيد جورج . سيكون هذا جميلا منك ، ولا يجوز أن تباهى أحدا بما أنعم الله به عليك ، لأن هذه النعمة منحة لنا ويحسن أن تتذكر هذا دائما .

وبدا الوقار والجد على وجه العمة كلو وهى تقول هذا ، أما جورج فقال :

ـ حسنا .. انى أنتوى دعوة توم يوما فى الأسبوع التالى ،وعليك أن تقدمى اليه أشهى ما لديك يا عمتى كلو حتى تذهليه ، وسنطعمه طعاما لا ينسى مذاقه أسبوعين .

فقالت العمة كلو مبتهجة :

ـ نعم .. نعم .. بالتأكيد .. لسوف ترى . رباه ما أعظم بعض ولائمنا الفاخرة . أتذكر فطيرة الدجاج العظيمة التى صنعتها عندما أولمنا وليمة للقائد نوكس ؟ لقد أوشكت أن أتعارك مع سيدتى على طريقة طهوها . اننى لا أدرى ماذا يدور بأذهان السيدات أحيانا ، ولكن عندما يكون الانسان أحيانا مرهقا بأثقل التبعات ، ان أمكن قول هذا ، ومشغولا بتدبير أمور البيت ، فانهن يخترن هذا الوقت للتدخل فى عمله . وهكذا كانت سيدتى تريد منى أن أفعل هذا بهذه الطريقة أو بتلك ، وكنت فى بعض الأحيان أضيق بهذه الحال فأقول « والآن يا سيدتى انظرى الى أصابعك هذه البيضاء الطويلة المتألقة بالخواتم كأنها الزنابق البيضاء حين تتألق عليها قطرات الندى . ثم انظرى الى يدى السوداوين الغليظتين ، أفلا ترين أن الله قد شاء أن يجعل منى صانعة فطائر ، وأن يجعل منك سيدة حجرة الاستقبال ؟ نعم .. كنت سليطة جدا يا سيد جورج .

فقال جورج :

ـ وماذا قالت أمى ؟

ـ ماذا قالت ؟! عجبا . لقد ارتسمت الدهشة البالغة فى عينيها .. عينيها هاتين الجميلتين ثم قالت « أظن يا عمتى كلو .. أنك على صواب » هكذا قالت ثم انصرفت الى حجرة الاستقبال .. لقد كان

ينبغى لها أن تضربنى على رأسى بسبب خشونتى معها · ولكن هـذا ما حدث ·· اننى لا أرى للسيدات المرفهات مجالا فى المطابخ ·

ـ لقد أحسنت طهو الطعام فى تلك الوليمة ·· هكذا قال الجميع على ما أذكر ·

ـ أتقول هذا لى ؟ ألم أكن واقفة وراء باب قاعةالطعام فى ذاك اليوم نفسه ؟ ألم أر القائد يقدم صفحته ثلاث مرات طالبا المزيد من فطيرة الشليك وهو يقول « يبدو يا مسز شلبى أن لديكم طاهية ممتـازة » يا الهى ·· لقد كدت أنفجر من فرط السرور ·

ثم أردفت العمة كلو قائلة وهى تشد قامتها زهوا :

ـ ان القائد ليعرف ما هو الطهو الجيد · انه رجل لطيف جدا ، هذا القائد ، انه منحدر من أعرق الأسر فى ولاية فرجينيا · وهـو يعرف كل ما ينبغى أن يعرف ، كمـا أعرفه أنا · ان فى جميـع الفطائر نكهة خاصة ناشئة عن الصنوبر المدقوق يا سيد جورج ،ولكن ليس كل انسان يعرف سر هذه النكهة ، أهو ملزم بمعـرفته · أما القائد فقد عرف ·· أدركت أنه عرف من الملاحظـات التى أبداها · نعم ·· عرف سر هذه النكهة ·

وكان جورج قد وصل عندئذ الى هذه المرحلة التى لابد أن يصل اليها ، حتى الصبى ، « فى الظروف غير العادية » عندما يجد أنه لا يستطيع حقا أن يأكل لقمة أخرى ، ومن ثم يجد فسحة من الـوقت لملاحظة تلك الكومة من الرءوس ذات الشعر المفلفل والعيون البراقة التى كانت ترقب عملية الأكل فى لهفة من الركن المقابل ·

وقال جورج وهو يقطع أجزاء من الفطيرة ويلقى بها اليهم :

ـ ها ·· خذ يا موسى أنت وبيت ·· انكما تريدان شيئا من هذا أليس كذلك ، هلم يا عمتى كلو ·· اصنعى لهما بعض الكعك ·

وانتقل جورج وتوم الى مقعد مريح فى ركن المدفأة ، بينما أخذت العمة كلو ـ بعد أن صنعت كمية من الكعك ـ طفلتها على حجرها ، وشرعت تملأ على التعاقب فمها هى وفم الطفلة ، وتوزع بعضها عـلى

موسى وبيت اللذين كانا ـ كما يبدو ـ يفضلان أكل نصيبهما وهما يتدحرجان على الأرض تحت المائدة ، يداعب أحدهما الآخر ،ويشدان أصابع قدم الطفلة بين الحين والآخر ٠

وكانت أمهما تقول لهما وهى تركلهما بين حين وحين كلما ارتفع ضجيجهما تحت المائدة

ـ كفى شغبا ٠ أتفهمان ؟ ألا تستطيعان أن تكونا مهذبين عندما يأتى السادة البيض لزيارتنا ٠ كفا عن هذا ٠ أتفهمان ! يحسن أن تعرفا الواجب والا عرفت كيف أعاقبكما بعد أن ينصرف السيد جورج ٠

ومن العسير آن نعرف نوع العقاب الذى كانت تنوى أن تنزله بهما، ولكن أيا كان نوعه ، فقد كان ـ كما يبدو ـ هينا بحيث لم يترك التهديد به غير أثر بسيط فى الشقيين الصغيرين المذكورين ٠ وقال العم توم :

ـ والآن ، ما هذا ؟ يبدو أنهما لا ينقطعان عن الخبث أبدا بحيث لا يستطيعان كبح جماح نفسيهما ٠

وعندئذ خرج الصبيان من تحت المائدة بوجهين مليئين بعسل الحلوى ، ثم راحا يقبلان الطفلة بقوة ٠

وقالت الأم وهى تدفع برأسيهما المفلفلين بعيدا :

ـ ابتعدا ٠٠ انكما ستلتصقان على هذا النحو فلا تنفصلان أبدا ٠ اذهبا الى النبع واغتسلا

وقرنت تعنيفها هذا بصفعة رنت عالية ، ولكنها ، كما يبدو ، لم تطلق منهما الا ضحكات عالية وهما يتسابقان فى الخروج من الباب، ويصدران أصواتا عالية من المرح ٠

أرأيت أشقى من هذين الصغيرين ؟

قالت العمة كلو هذا فى صوت ينم عن السرور وهى تتناول منشفة قديمة تحتفظ بها لمثل هذه الطوارىء ، ثم صبت عليها بعض الماء من

ابريق شاى عتيق ، وبدأت تزيل العسل عن وجـه الطفلة ويديها ، وبعد أن ظلت تصقلها حتى لمعت ، وضعتها فى حجر توم ثم أخذتهى ترفع أدوات طعام العشاء عن المائدة • وأمضت الطفلة وقتها فى شد أنف توم وخمش وجهه ، وطمر يديها السمينتين فى شعره الخشن ، وبدا أن هذه العملية الأخيرة أثارت الرضى فى نفسها •

وقال توم وهو يمسك بها مادا ذراعيه ليمعن النظر اليها :

ـ أليست صغيرة جميلة ؟

ثم نهض ووضعها على كتفه العريضة ، وبدأ يتواثب ويرقص بها، بينمـا أخذ السيد جورج يداعبها بمنديله ، والصـبيان موسى وبيت ـ بعد عودتهما ـ يزأران لها كالدببة حتى أعلنت العمة كلو أنهمـا « سيطيحان برأسـها » بأصواتهمـا • لأن هـذه العملية كما تقول من الأحداث اليومية فى الكوخ • ولكن هذا القول لم يحـد شيئا من المرح حتى أخذ الجميع يضجون ويرقصـون الى أن أنهكهم التعب وأعاد اليهم الاتزان •

وقالت العمة كلو وهى تتناول صندوقا غير متقن الصنع على شكل عربة صغيرة :

ـ أرجو الآن أن يكون التعب قد هد قواكم •

ثم مضت تقول للصغيرين :

ـ والآن أنت يا موسى ويا بيت •• اخرجا بهذه ، لأن الاجتمـاع سينعقد الآن •

ـ أوه •• أماه •• اننا لا نريد الخروج •• بل نريد شـهود الاجتماع •• انه عجيب ، ونحن نحبه •

فقال جورج وهو يدفع بالعربة الصغيرة بعيدا :

ـ أعيدى يا عمتى كلو هذه الى مكانها ، واتركيهما يجلسا معنـا فى الاجتماع •

وبدا على العمة كلو ، بعد أن أدت ما عليها ، أنها شـديدة السرور

وهى تعيد العربة الى موضعها وتقول :

ـ لعل هذا يعود عليهما ببعض الخير •

وتحول الكوخ عندئذ الى لجنة لاعداد الاجتماع وتنظيمه • وقالت العمة كلو :

ـ وماذا سنفعل بشأن الكراسى ؟ •• أعترف أننى لا أدرى •

ذلك أن الاجتماع ظل يعقد أسبوعيا فى كوخ العم توم منذ أمد بعيد دون مزيد من الكراسى ، ولكن يبدو أنه كان هناك بعض الأمل فى العثور على طريقة لحل هذه المشكلة •

وقال الصغير موسى :

ـ لقد خلع عمى العجوز بيتر فى الأسبوع الماضى أرجل هذا الكرسى القديم •

فقالت العمة كلو :

ـ اغرب عن وجهى • أكبر الظن أنك بشقاوتك قد نزعت أرجله •

وقال موسى :

ـ أعتقد أن فى الامكان تثبيته الى الجدار •

فقال بيت :

ـ ولكن لا ينبغى أن يجلس عمى بيتر العجوز عليه ، لأنه دائما يقفز وهو يرتل ، وقد قفز عاليا عبر الغرفة فى الأسبوع الماضى •

وقال موسى :

ـ يا الهى الرحيم •• أطلب منه الترنيم وهو يبدأ فورا يردد «هيا يا أتقياء ويا مذنبون ، تعالوا واسمعوا » ثم اذا هو ينكفىء ••

وراح الصبى يقلد ، فى دقة ، صوت العجوز الأخنف ، ثم ينكفىء على الأرض ليحكم التمثيل •

وقالت العمة كلو :

ـ كفى ٠٠ كفى ٠ ألا يستطيع أحدكما أن يكون مهــذبا ٠٠ ألا تخجلان ؟

ولكن جورج ، على كل حال ، اشترك مع المسيىء فى الضحك ، وأعلن فى لهجة اليقين أن موسى « تحفة » ، وهكذا بدا أن تعنيف الأم كان بلا أثر ٠

وقالت العمة كلو لتوم :

ـ أيها العجوز ٠٠ عليك أن تحضر البرميلين هنا ٠

وقال موسى لبيت على انفراد :

ـ ان براميل أمى مثـــل كوار الدقيق الذى لم ينفد من الأرملة التى كان السيد جورج يقرأ عنها فى الكتاب المقدس ٠٠ انها لا تتلف أبدا ٠

ـ اننى واثق أن أحد البرميلين تحطم فى الأسبوع الماضى وأسقط الجميع على الأرض أثناء الترتيل٠ والثانى كاد يقع ٠ أليس كذلك ؟

وبينما كان بيت وموسى يتحـدثان اذ دحرج برميلان فارغان الى الكوخ وثبتا من الجوانب بالحجارة ، ووضعت فوقهما ألواح الخشب، وكانت هذه العملية ، مع وضــع بعض الجرادل والقصـاع مقلوبة لتكون مقاعد وازالة المقاعد الأخرى المكسورة ، هى الترتيب الأخير للاجتماع ٠

وقالت العمة كلو :

ـ ان السيد جورج قارىء ممتاز ، ولهذا أعتقد أنه ســيبقى معنا ليقرأ لنا ٠ ويبدو أن هذا الاجتماع سيكون أكثر امتاعا ٠

ووافق جورج من فوره ، لأنه غلام يحب كل ما يزيد من قدره ٠

وسرعان ما امتلأت الغرفة بخليط من المجتمعين الذين يتراوحون فى العمر من عجائز فى الثمانين الى صبية وفتيات فى الخامسة عشرة ودارت أحاديث خفيفة لا ضرر منها فى مختلف الموضـــوعات ، مثل المكان الذى اشترت منه العمة سالى منديلها الأحمر الجديد وكيف

« أن سيدتى ستعطى ليزى ذلك الثوب الحريرى المرقط عندما تتسلم رداءها الجديد » ، وكيف أن السيد شلبى يفكر فى شراء جوادسباق جديد سوف يضيف الى المنطقة أمجادا أخرى ٠ وكان عدد قليل من المصلين المنتمين الى أسر قريبة من المكان ، قد حصلوا على اذن بشهود هذا الاجتماع ، وجاءوا معهم بشذرات مختلفة منتقاة من المعلـــومات والأخبار عن الأقوال والأفعال فى المنازل والمنطقة ، وكانت هـــذه المعلومات تنتقل من شخص الى آخر كما يحدث مثل هذا فىالأوساط الأرقى من هذا الوسط ٠

ثم بدأ الترنيم بعد حين وسر منه جميع الحاضرين سرورا لا شكفيه ولم تكن عيوب « خنافة » الصوت لتحول دون ظهور الجمال الطبيعى فى ترديد المنشدين المتحمسين ٠ وكانت الكلمات أحيانا هى كلمات بعض الأناشيد المعروفة التى تنشد فى الكنائس ، وكانت فى أحيان أخرى كلمات عارمة مجهولة الأصل ، التقطت خــــلال الاجتماعات العامة ٠

وكان القوم يرتلون قرار احدى هذه المقطوعات بنشـــاط وتحمس شديدين :

« أموت فى ميدان المعركة ٠٠
« أموت فى ميدان المعركة ٠٠
« والمجد يكلل روحى ٠٠ »

وثمة مقطوعة أخرى محبوبة على وجه خاص ، كانت تردد بهـــذه الكلمات :

« ٠٠ اننى ذاهب الى المجد ٠٠ ألا تأتون معى !
« ألا ترون الملائكة تلوح لى ٠٠ وتنادينى ؟
« ألا ترون المدينة الذهبية ، واليوم الخالد ؟

وكانت تردد دائما مقطوعات أخرى حافلة بالخيال الدينى ٠ ذلك لأن عقلية الزنجى العاطفية والخيالية ، كانت تتعلق بالأناشــــيد والتعبيرات ذات الطبيعة التصويرية القـــوية ٠ وكان بعضهم وهم ينشدون يضحك ، وبعضهم يصيح ، وبعضهم يصـــــفق أو يصافح

البعض الآخر فى ابتهاج وكأنهم قد وصلوا ، فعلا ، بسلام الى الجانب الآخر من النهر .

وتلا هذا ألوان مختلفة من الوعظ وسرد التجارب ، مع ترديد الترانيم بين حين وآخر ، ونهضت امرأة عجوز شمطاء ، اعتزلت العمل منذ أمد بعيد ، ولكنها كانت موضع احترام شديد لأنها تحفظ الكثير من أحداث الماضى ، واعتمدت على عكازها وقالت :

ـ يا أولادى ! .. اننى شديدة الابتهاج اذ أراكم جميعا وأسمعكم جميعا مرة أخرى ، لأنى لا أعرف متى أذهب الى ملكوت الله . ولكننى غدوت مستعدة لهذا يا أولادى . ويبـــــدو أنه لم يعد الا أن أحمل حزمتى الصغيرة ، وأضـع قبعتى على رأسى ، وأنتظر وصول المركبة لتحملنى الى وطنى . ويخيل الى فى الليل أنى أحيـانا أسمع كركبة العجلات ، وأنى لهذا أقف فى الانتظار طوال الوقت . وعليكم الآن أن تكونوا مستعدين أيضا . لأنى أقول لكم جميعا يا أولادى .

ثم دقت الأرض بعصاها فى عنف وأردفت قائلة :

ـ ان ملكوت الله شىء عظيم .. انه شىء عظيم يا أولادى .. انكم لا تعرفون عنه شيئا ، انه مدهش رائع .

وجلست المرأة العجوز والدموع تنحدر من عينيها لفرط انفعالها ، وأنشد المجتمعون كلهم :

« يا وطنى ، يا وطنى المشرق
« اننى ذاهب الى وطنى . »

ورجا الحاضرون السيد جورج أن يقرأ لهم الفصول الأخـيرة من سفر الرؤيا وكثيرا ما كان يقـــاطع بعبارات الدهشة : « اســمعوا هذا .. تصوروا هذا .. هل يتحقق هذا كله يقينا ؟ »

وكان جورج ، الذى كان غلاما ذكيا أحسنت أمه تربيته الدينية ، حين وجد نفسه موضع الاعجاب العام ، يفسر الآيات من حين الى حين فى جد ووقار يحمد عليهما ، فكان لذلك موضع اعجاب الشباب ودعوات

الشيوخ وأجمع الحاضرون كلهم على أن « القس نفسه لا يستطيع أن يقرأ هذه القراءة أحسن منه وأن قراءته تثير الدهشة بحق »

وكان العم توم يعتبر شيخا فى الشئون الدينية بين جيرانه فى المنطقة ـ ولما كان بطبيعته رئيس جماعة تغلب عليها مبادىء الأخلاق الطيبة ، مع عقلية أكثر اتساعا فى أفق التفكير من غيره ، فقد أخذ الجميع ينظرون اليه باحترام ، ويرونه شبه رئيس دينى بينهم ، وربما كانت مواعظه البسيطة ، الصادرة من القلب ، المخلصة فى طابعها صالحة لتهذيب أشخاص أكثر منه ثقافة ٠ ولكن ابتهالاته هى التى كانت ممتازة حقا ، فلم يكن ثمة ما يفوق بساطتها المؤثرة ، ولهفتها الطبيعية وكثرة ما فيها من العبارات المقتبسة من الكتاب المقدس وقد بدت كأنها مطبوعة فى روحه وأصبحت جزءا من نفسه ، ومن ثم فهى تنساب من بين شفتيه بلا وعى ٠ لقد كان يبتهل فى صدق واخلاص،كما قال أحد شيوخ الزنوج المتدينين ، وكثيرا ماكانت ابتهالاته تترك أثرها العميق فى عواطف سامعيه الأتقياء الخاشعين حتى بدا فى كثير من الأحيان أنها قد تضيع وسط التعليقات التى تنطلق حوله من كل مكان ٠

بينما كان هذا يجرى فى كوخ العم توم ، كانت أحداث أخرى تجرى فى قاعات بيت السيد ٠

كان النخاس والمستر شلبى جالسين معا فى قاعة الطعام السابق ذكرها ، حول مائدة مغطاة بأوراق وأدوات كتابية ٠

وكان المستر شلبى مشغولا باحصاء بعض حزم من الأوراق المالية التى كان ـ وهو يحصيها ـ يدنو بها الى النخاس الذى كان يعيد احصاءها ثم يقول :

ـ تماما ٠٠ والآن ٠٠ لتوقع هذه الأوراق ٠

وسحب المستر شلبى بسرعة مستندات البيع اليه ، ووقعها فى تعجل الرجل الذى يسرع فى أداء مهمة بغيضة اليه ، ثم دفع بها مع الأوراق المالية ٠ وتناول هالى من حافظة كادت تبلى من كثرة الاستعمال ، مستندا من الرق ثم قدمه الى المستر شلبى ـ بعد

أن نظر فيه برهة ـ فتسلمه بحركة تنم عن لهفة مكبوتة ٠
وقال النخاس وهو ينهض قائما :

ـ الآن لقد تمت الصفقة

وقال المستر شلبى بصورة الرجل الذى يفكر فى أمر
ـ لقد تمت ٠

ثم زفر زفرة طويلة وكرر قوله !
وقال النخاس :

ـ يبدو أنك لست مبتهجا لهذا ٠٠ هكذا يخيل الى !
فرد عليه شلبى قائلا :

ـ هالى ٠٠ أرجو أن تذكر أنك وعدت بشرفك ألا تبيع توم دون آن تعرف أى نوع من السادة الجدد سيشترونه ٠
فقال النخاس :

ـ عجبا ! ولكن هذا ما فعلته أنت !
فقال شلبى بكبرياء :
ـ انها الظروف ، كما تعرف ، هى التى أرغمتنى
فرد عليه النخاس قائلا :

ـ انك تعرف أنها قد ترغمنى أيضا ٠ وعلى كل حال سوف أبذل جهدى لأضع توم فى أيد طيبة ٠ أما عن سوء معاملتى له ، فلا حاجة بك لأن يساورك أقل خوف من هذا واذا كان هناك ما أشكر الله عليه، فهو أنى لم أعد أبدا قاسيا هذه الأيام ٠

فلما نطق التاجر بهذه الأقوال التى عرض فيها ما يتصف به من مبادىء الرحمة لم يشعر المستر شلبي بكثير من الاطمئنان اليها واذ كانت هى خير ما تتيحه الظروف المحيطة به من أقوال تبعث على الطمأنينة فى نفسه فقد سمح للنخاس أن ينصرف فى صمت ، ثم لجأ هو الى لفافة واحدة كبيرة يهدىء بها أعصابه ٠

الفصل الخامس

مشاعر الممتلكات البشرية عند انتقالها من يد الى أخرى

أوى المستر شلبى وزوجته الى جناحهما لقضاء الليل • وكان هو متراخيا فى مقعد كبير مريح ، ينظر فى بعض الرسائل التى وردت فى بريد ما بعد الظهر • وكانت هى واقفة أمام المرآة تمشط جدائل وخصلات شعرها الذى سبق أن صففته اليزا • وذلك لأنها حين لمحت وجنتى الفتاة الشاحبتين ، وعينيها المحزونتين ، سمحت لها بالانصراف ، وأمرتها بالذهاب الى فراشها • وبطبيعة الحال أذكرتها عملية تمشيط شعرها بالمحادثة التى جرت بينها وبين اليزا فى الصباح ، فاستدارت نحو زوجها ، وقالت فى غير مبالاة :

ـ بهذه المناسبة يا آرثر •• من ذلك الصعلوك الذى دعوته الى طعام العشاء الليلة ؟

فقال شلبى وهو يتململ فى مقعده ويثبت نظراته على أحد الخطابات :

ـ ان اسمه هالى •

ـ هالى ؟ من هو ، وما قد تكون مهمته هنا ؟ أرجو أن تخبرنى •

ـ انه رجل أتممت معه بعض الصفقات فى آخر مرة كنت فيها بمدينة ناشين

ـ وهل هذا يجيز له أن يجعل نفسه هنا كأنه فى بيته ، ثم يزورنا ويدعى للعشاء معنا ؟

ـ أنا الذى دعوته •• فقد كان ثمة أعمال بينى وبينه ينبغى تصفيتها •

ـ هل هو نخاس ؟

ولاحظت المسز شلبى ارتباكا معينا فى حركة زوجها وهو يقــول رافعا رأسه :

ـ عجبا ؟ ما الذى جعلك تقولين هذا يا عزيزتى ؟

ـ لا شيء ٠غير أن اليزا جاءتنى بعد الغداء وهى فى حالة قلق شديد تبكى وتنتحب ، وتقول انك كنت تتحدث مع تاجر ، وأنها سمعتــه يعرض شراء ابنها ـ يا للطفلة الحمقاء !

ـ أفعلت هذا !!

قالها المستر شلبى وهو يعود الى الورقة التى بدا أنه مهتم بما فيها بضع لحظات دون أن يدرك أنه يمسكها مقلوبة ٠ وقال لنفســه ٠ « لسوف ينكشف الأمر حتما ، سواء كان الآن أو فيما بعد »

واستطردت المسز شلبى قائلة وهى تواصل تمشيط شعرها :

ـ وقلت لاليزا انها حمقاء صغيرة بسبب مخاوفها ٠ وأنك لا يمكن أن تفعل شيئا كهذا ، وكنت ، بطبيعة الحال ، أعرف أنك لم تقصد أبدا أن تبيع أحد عبيدنا ، لا سيما لشخص كهذا ٠

وقال زوجها :

ـ يا اميلى ٠٠ هذا ما كنت أشعر به دائما وأقوله ٠ ولكن الحقيقة هى أن الكساد ران على أعمالى بحيث لم أعد أستطيع الاستمرار فيها، ومن ثم يتحتم على بيع بعض عمالى ٠

ـ الى هذا المخلوق ؟ مستحيل ! لا يمكن أن تكون جادا فى هــذا يا مستر شلبى ٠

ـ يؤسفنى القول انى جاد ٠ فقد وافقت على بيع توم ٠

ـ ماذا تقول ؟ ذلك المخلوق الطيب الوفى ـ خادمك الوفى منــذ طفولته ! يامستر شلبى ألم تعده أيضا بتحريره ؟ ألم نتحدث أنا وأنت

اليه مائة مرة عن هذا ؟ ٠٠ أستطيع أن أصدق كل شيء الآن ٠٠٠ أستطيع الآن أن أصدق أن في امكانك بيع هاري الصغير الابن الوحيد للمسكينة اليزا

قالت المسز شلبي هذا بصوت يجمع بين الحزن والغضب ٠ وقال زوجها :

ـ اذا كان لابد أن تعرفي كل شيء ، فليكن ما تريدين ٠ لقد وافقت على بيع توم وهاري معا ، ولست أدري لماذا أتعرض للاستنكار كأني وحش ، لأني أفعل ما يفعله كل انسان في كل يوم ٠

ـ ولماذا تختار هذين ولا تختار سواهما ؟ لماذا تبيعهما دون غيرهما، اذا كان لابد من البيع ٠

ـ لأنهما أغلى ثمنا من غيرهما ٠٠ هذا هو السبب ٠ وكان يمكن أن أختار غيرهما اذا شئت ٠ لقد عرض التاجر على ثمنا عاليا لاليزا اذا كان هذا الخبر يروقك أكثر ٠

فقالت المسز شلبي بحدة :

ـ يا للشقي !

ـ ولكني لم أنصت اليه في هذا لحظة ، احتراما لمشاعرك ٠٠ نعم ٠٠ لم أرض ٠ ولهذا يحسن أن تقدري موقفي بعض الشيء ٠

فقالت المسز شلبي وهي تستعيد رباطة جأشها :

ـ سامحني ياعزيزي ٠كنت متسرعة معك٠ لقد دهشت وكنت غير مستعدة اطلاقا لهذه الصدمة ٠ ولكنك يقينا ستسمح لي بالتشفع لهذين المسكينين ٠ ان توم شخص نبيل القلب وفي وان كان أسود اللون ٠ وأنا أعتقد يامستر شلبي أنه لا يتردد في أن يفتديك بحياته اذا اضطر يوما الى ذلك ٠

ـ أنا أعرف هذا ٠ ولكن ما جدوى هذا كله ٠٠ انني مضطر الى ذلك ٠

ـ لماذا لا تضحي بشيء من المال ؟ انني مستعدة أن أشترك في

هذه التضحية بمالى • لقــد حاولت يامستر شلبى •• حاولت بكل ما ينبغى أن تكون عليــه السيدة المسيحية من اخــلاص ، أن أقوم بواجبى نحو هؤلاء المساكين البسطاء المعتمدين علينا • لقــد عنيت بهم ، وعلمتهم ، وراعيتهم ، وعرفت منذ ســنوات كل مبــاهجهم والأشياء البسيطة التى يهتمون بهــا ، ولن أســتطيع الآن أن أرفع رأسى بينهم ، أبدا ، من أجل أرباح مادية قليلة ، قد بعنا مثل هــذا المخلوق الوفى الممتــاز الأمين •• توم المسكين ، وانتزعنا منه فى لحظة ، كل ما علمناه من حب وتقدير ، لقد علمتهم واجبات الانسان نحو الأسرة ، نحو الوالد والابن ، نحو الزوج والزوجـــة ، فكيف أســتطيع أن أتحمــل وزر الاعتراف بأننــا لا نقيم وزنا لروابط الأسرة ، أو للواجبات الانسانية ، أو للعــلاقات أيا كانت قدسيتها من أجل المال ؟ لقد تحدثت مع اليزا عن ابنها •• عن واجبهــا نحوه بوصـــفها أما مسيحية لكى ترعاه وتدعو الله له وتنشئه على الدين المسيحى • والآن ماذا يمكن أن أقول اذا أنت انتزعته منهــا ، وبعته روحا وجسدا الى رجل حقير لا مبادىء له ، لمجرد مال قليل • لقــد قلت لها ان روحا واحدة أغلى من مال الدنيا كله •• فكيف ستصدقنى حين ترانا نغدر بهــا ونبيع ابنها ، نبيعه الى من قد يهلك روحــه وجسده •

ـ اننى آسف اذ تشعرين على هــذا النحو يا اميلى • اننى آسف حقا • واننى أحترم مشاعرك أيضا رغم أنى لا أزعم مشاركتك فيها الى أقصى حــد • ولكننى أقول لك الآن ، جادا ، ان هــذا كله بلا جدوى ، اننى فعلت هذا مرغما • ولم أكن أنوى أن أخبرك بالحقيقة يا اميلى ، ولكننى أخبرك بكلمات صريحة أننى كنت مخيرا بين بيــع هذين الشخصين ، أو بيع كل شىء فى حوزتى • فاما أن يضيعا ، أو يضيع كل شىء • لقد استولى هالى عــلى صك رهنية اذا لم أســدد قيمتها مباشرة أصبح من حقه أن يأخذ كل شىء مقابلها • لقد بذلت كل ما فى وسعى ـ فيما عدا الاستجداء ـ للوفاء بقيمتها ، ولم يبق لاستكمال الســداد الا ثمن هذين ، وتحتم على أن أضحى بهمــا • وأعجب هالى بالطفل ، ووافق على تسوية الأمر اذا اشتراه ، ورفض أى عرض آخر • ولما كنت بين يديه ، لم يسعنى الرفض ، فاذا كان

هذا شعورك لبيعهما ، فماذا يكون شعورك لو بيع كل شيء نملكه ؟
وتسمرت المسز شلبى فى مكانها كمن أصيب بضربة قاضـــية ، وأخيرا استدارت الى منضدة الزينة ، وأراحت وجهها بين يديهـا ، وندت عنها آهة حرى . وأخيرا قالت :

ــ هذه لعنة الله على الرق ..! انها لعنة مريرة .. مريرة بشعة .. لعنة على السيد ، وعلى العبد ! كنت حمقـــاء اذ حسبت أن فى مقدورى أن أعمل خيرا أيا كان من هذا الشر العظيم . انهـا لخطيئة أن يمتلك الانسان عبدا فى نطاق مثل هذا القانون الذى نخضع له. كنت دائما أشعر بهذا . كنت دائما أعتقد هـــذا منذ كنت صـبية وازداد شعورى بعد ذلك حين ترددت على الكنيســـة . ولكنى كنت أحسب أن فى مقدورى تخفيف هـــذا الوزر .. بالشفقة والرعاية والتهذيب . كنت أظن أن فى مقدورى أن أجعـــل عبيدى يشعرون معى بأحسن مما لو كانوا أحرارا .. ولشد ما كنت حمقاء فى هذا .

ــ عجبا يا زوجتى .. يبدو أنك ستصبحين من المنـــادين بالغاء الرق .. أى الغائية متحمسة .

ــ الغائية ؟! لو أنهم عرفوا كـــل مانعرف عن الرق ، لأمكنهم أن يقنعوا جميع الناس ! وأنا لست بحاجة لأن يقنعونى . فأنت تعرف أننى لم أر يوما أن الرق صواب .. ولم أشعر أبدا بالرغبــة فى أن يكون لى عبيد .

ــ انك فى هذه الحـــالة تختلفين عن الكثير من الرجال العقـلاء المتدينين . أتذكرين موعظة المستر ب. فى يوم الأحد الماضى ؟

ــ اننى لا أريد سماع مواعظ كهذه . ولا أرغب فى سماع المستر ب. مرة أخرى فى كنيستنا . ربما لا يستطيع القساوسة أن يمنعوا الشر ، ربمـا عجزوا عن ذلك كمـــا يعجز عنه أى واحـد منا . أما أن يدافعوا عنه ، فانه مما يتعارض دائما مـــع نظرتى السليمة الى الأمور . وأعتقد أنك أيضا لم تر شيئا من الخير فى هذه الموعظة .
قال شلبى :

ــ ينبغى أن أقول ان هؤلاء القساوسة يغالون أحيـانا فى نظرتهم

الى الأمور أكثر مما نفعل نحن الخطأة المساكين • فان علينا ، نحن رجال الدنيا ، أن نتغاضى عن أشياء كثيرة مختلفة ، وأن نعتاد كثيرا مما لا نرضى عنه كل الرضى • ولكننا لا نتصور كيف يفوقنا القساوسة والنساء فى نظرتهم الى المبادىء أو المثل العليا • هذه حقيقة • ولكننى الآن ، يا عزيزتى ، أعتقد أنك تقدرين ظروفى ، وترين أننى فعلت خير ما سمحت به الظروف •

فقالت المسز شلبى بسرعة وهى تعبث ذاهلة بساعتها الذهبية :

ــ آه •• نعم •• نعم •• ليس لدى حلى ثمينة ذات قيمة •

ثم أضافت قائلة :

ــ ولكن •• ألا يمكن أن يفيد شيئا من ثمن هذه الساعة • لقد كانت غالية الثمن جدا حين اشتريتها لى • فلو كان فى مقدورى ، على الأقل ، انقاذ طفل اليزا ، لضحيت بأى شىء أمتلكه •

فقال مستر شلبى :

ــ اننى آسف •• أشد الأسف •• اننى آسف اذ يستبد بك الحزن هكذا • ولكن هذا كله لا جدوى منه • والحقيقة يا اميلى هى أن كل شىء قد تم • ان مستندات البيع الموقعة منى فى يدى هالى الآن ، ويجب أن تحمدى الله أن الأمر ليس أسوأ من هذا • لقد كان فى مقدور هذا الرجل أن يحطمنا جميعا • وقد نجونا منه أخيرا • فلو أنك تعرفينه كما أعرفه أنا ، لأدركت أننا نجونا بمعجزة •

ــ أهو قاس الى هذا الحد ؟

ــ لا •• ليس قاسيا كما يفهم من هذا اللفظ بالضبط ، وانما هو رجل عملى •• رجل لا يعرف شيئا غير التجارة والربح ــ بارد الطبع ، جرىء ، لا يلين •• كالموت والقبر • انه لا يتردد فى بيع أمه مقابل ربح كبير دون أن يقصد أى ضرر بأمه العجوز فى الوقت نفسه •

ــ هل يمتلك الآن هذا الشقى ، توم الوفى الطيب ، وابن اليزا ؟

ـ الحق ياعزيزتى ، أن ما حدث يحز فى نفسى جـــدا ٠ انه شيء أكره مجرد التفكير فيــه ٠ ان هالىَ يريد تعجيــل الأمور ، ويتسلم ممتلكاته غدا ، ولهذا سوف أعـــد جوادى مبكرا وأنطلق به ٠ اننى لا أستطيع رؤية توم ٠٠ تلك هى الحقيقة ٠ ويحسن بك أن ترحلى غدا الى مكان ما ومعك اليزا ٠ ولندع الأمر يتم أثناء غيبة اليزا ٠

فقالت المسز شلبى :

ـ لا لا ٠٠ لا يمكننى بأى حال أن أشارك أو أساعد فى هذا العمل القاسى ٠ لسـوف أمضى لزيارة المسكين توم ، أعانه الله فى محنته ، ولسوف يعلمون ، على كل حال ، أن سـيدتهم تعطف عليهم وتحس بالألم من أجلهم كما تحس نحو اليزا ٠ وليغفر لنـا الله ٠ ماذا فعلنا حتى تنزل بنا هذه المحنة القاسية !

وكان هناك ، لهذه المحادثة ، سامع لم يكن المستر أو المسز شلبى يتوقع وجوده ٠فقد كان يتصل بهذه الشقة حجرة كبيرة لها باب يفضى الى الممر الخارجى ٠ وعندما صرفت المسز شلبى اليزا تلك الليلة ، فان مشاعرها المهتـاجة المضطربة أوحت اليها بالاختباء فى هـذه الحجرة ، واستطاعت بوضع أذنها على فتحة البـاب أن تسمع كل ما دار من حديث ٠

وعندما سكنت الأصوات ، نهضت وتسللت بعيدا ٠ وبدت وهى ممتقعة الوجه ، مرتعدة الجسم ، جامدة الملامح ، مزمومة الشفتين ، مخلوقة تختلف تماما عن تلك الرقيقة الخجول التى كانت من قبل ٠ وسارت بحذر فى طول المدخل ، ووقفت لحظة عند باب سـيدتها ، ورفعت يديها فى دعاء صامت الى السماء ، ثم استدارت وانسابت الى غرفتها ٠ وكانت غرفة هادئة نظيفة فى نفس الطابق الذى تقع فيـه غرفة سيدتها ، وكانت بها تلك النافذة المشمسة البهيجة التى طالما جلست فيها تغنى وتخيط ملابسـها ٠ وكانت بها خزانة صـغيرة للكتب ، وعدد من الأشياء المختلفة بينها هدايا أعياد الميـلاد ، وفى الحجرة الملحقة بها صـوان بسيط تضع فيه ملابسـها ، وخزانة الأدراج ٠٠ وعلى الجملة ، كان هنا بيتهـا ٠ وكان فى جملته ، بيتا

سعيدا بالنسبة لها • ولكن ، هناك ، على السرير ، كان طفلها النائم وخصلات شعره الطويل متهدلة حول وجهه الغـائب عن الشعور ؛ وكان فمـه الوردى مفتوحا ، وكانت يداه السمينتان الصـغيرتان متراخيتين على مفرش السرير ، والبسمة على وجهه منتشرة كشعاع الشمس •

وقالت اليزا :

ـ يا للطفل المسكين •• لقد باعوك •• ولكن أمك ستنقذك •

ولم تسقط عبرة واحدة على الوســادة لأن القلب فى مثل هـذه المحن لا يرسل دموعا ، بل يرسل قطرات من الدماء لا غير •• فهـو يسفك دمه فى صمت •

وتناولت ورقة وقلما وكتبت مايلى :

« ياسيدتى •• ياسيدتى العزيزة •• لا تحسبينى ناكرة للجميل •• لا تقسى فى الحكم على مهما يكن الأمر ، لقد سمعت كل ما دار بينك وبين سيدى من حديث الليلة ، ولسوف أحاول انقـاذ ابنى ، ولن تعتبى على ! بارك الله فيك وجزاك خـيرا عن كل ما أوليتنا من عطف »

وبعد أن طوت الرسالة بسرعة وكتبت عليها الاسم ، قصـدت الى درج وأعدت لفـافة من الملابس لها ولابنها ، وشـدتها الى خصرها بمنديل فى احكام ، وقد بلغ من حنان الأم ، حتى فى لحظات الفزع هذه ، أنها لم تنس أخذ لعبة أو لعبتين من لعبـه الأثيرة ، وكذلك الببغاء الدمية الزاهية اللون لكى تداعبه بها حين توقظه • وقد عانت بعض الشىء وهى توقظ النائم الصـغير ، وأخيرا ، وبعـد شىء من الجهد ، نهض جالسا وراح يلعب بالطائر بينمـا كانت أمه ترتدى القبعة والمطرف •

وقال لها حين رآها تقترب من الفراش بقبعته ومعطفه الصغير :

ـ أين نذهب يا أماه ؟

وازدادت الأم اقترابا منه ، وأمعنت النظر فى عينيه ، مما جعله يدرك أن شيئا غير عادى قد حدث • وقالت له :

ـ اسكت يا هارى ٠٠ لا ترفع صوتك فى الحديث والا سمعونا ٠ ان رجلا شريرا يوشك أن يأتى ليأخذ هارى الصغير من أمه ، ويحمله بعيدا ، فى الظلام ٠ ولكن الأم لن تتركه يفعل هذا ٠ انها ستضع القبعة على رأس هارى ، وتلبسه المعطف ، وتهرب به لكيلا يستطيع الرجل الشرير أن يلحق بهما ٠

بعد أن قالت هـــذا ، شدت أربطة ملابس الطفل البسيطة ، ثم أخذته بين ذراعيها ، وهمست اليه بالبقـــاء ساكنا ، ثم فتحت باب غرفتها المؤدى الى الشرفة الخارجيـــة ، وانسابت الى الخـــارج بلا صوت ٠

وكانت الليلة باردة ، وضاحة بلألاء النجوم ، ولفت الأم طفلهـا بالمطرف فى عناية ، بينما ظل هـــو ساكنا من فرط خوف غامض ، متعلقا بعنقها ٠

وكان الكلب برونو العجوز ، النيوفوندلندى الضخم ، الذى يرقد فى نهاية الفناء كالمعتاد ، قد نهض فى غمغمة خفيضة عند اقترابهـا منه ، فلما همست باسمه فى رفق أسرع الحيوان الذى طالما دللتـه ولعبت معه ، وهز ذيله ، واستعد لمصاحبتها رغم محاولته أن يفهم ، بعقلية الكلب البسيطة ، ما قد تعنيه هذه الجولة السرية فى منتصف الليل ٠ وبدا أن بعض الأفكار عما ينبغى أو لا ينبغى أخذت تشيع الارتباك الشديد فى نفســه ٠ ذلك أنه كثيرا ما كان يتوقف أثنـاء انسياب اليزا الى الأمام ، وينظر فى حيرة اليها أولا ، ثم الى البيت، وكأنه اطمأن بعد تفكير ، فعاد وجرى وراءها ٠ وبعد لحظات قليلة ، وصــلا الى نافذة كوخ العم توم ، فتوقفت اليزا ، ونقرت برفق على زجاج النافذة ٠

وكان الاجتمـاع الدينى فى كوخ العم توم قد طال لـكثرة ما تلى فيه من الترانيم ، الى ساعة متأخرة ، وكان العم توم قد اســـتغرق بعد ذلك فى صلوات وتأملات روحيـــة ، فكانت النتيجـة أنه ظل مستيقظا مع شريكة حياته الموقرة ، على الرغم من أن الساعة كانت

بين الثانية عشرة والواحدة بعد منتصف الليل •

وقالت العمة كلو وهي تنهض مسرعة وتزيح الستارة :

ــ يا الهي الرحيم •• ما هذا ؟ لترحمني السماء ان لم تكن هذه اليزا ! ارتد ملابسك أيها العجوز ، بسرعة ، وهذا أيضا برونو العجوز يدور حول الكوخ ، ماذا حدث بحق السماء ، لسوف أمضي وأفتح الباب •

وطبقت القول على العمل ، واذا الباب ينفتح بقوة ، واذا ضوء الشمعة التي أوقدها توم بسرعة يسقط على وجه الهاربة الشاحب وعينيها السوداوين المذعورتين •

وقالت العمة كلو :

ــ بارك الله فيك •• ان الفزع يخامرني وأنا أنظر اليك يا اليزا ! هل أصابك المرض أم ماذا دهاك ؟

ــ انني هاربة يا عمي توم ويا عمتي كلو •• هاربة بطفلي •• لقد باعه السيد •

فقال الاثنان في صوت واحد وهما يرفعان أيديهما في استنكار وهلع :

ــ باعه ؟

فقالت اليزا مؤكدة :

ــ نعم •• باعه • لقد تسللت الى الحجرة القريبة من باب غرفة سيدتي الليلة ، وسمعت السيد يخبرها أنه باع هاري •• وباعك أنت أيضا ياعم توم لتاجر رقيق ، وأنه سيغادر البيت صباحا على جواده ، وأن التاجر سوف يتسلمكما اليوم •

وكان توم قد وقف ، أثناء هذا الحديث ، بيديه مرفوعتين ، وعينيه محملقتين ، كأنه انسان يحلم • ثم اذا هو يتهالك جالسا في بطء شيئا فشيئا على مقعده القديم بعد أن نفذ معنى الحديث الى عقله ، ثم ألقى برأسه على ركبتيه •

وقالت العمة كلو :

ـ ليرحمنا الاله الكريم ! أوه ٠٠ ان الأمر يبدو غير حقيقى • ماذا فعل توم حتى يضطر السيد الى بيعه ؟

ـ انه لم يفعل شيئا ٠٠ وليس لهذا باعه • ان السـيد لم يكن راغبا فى البيع ، وكانت سيدتى طيبة دائما • لقد سمعتها ترجو وتتوسل من أجلنا • ولكنه أخبرها أنه لا جدوى من الرجاء ، لأنه غارق فى الديون ، وأن هذا التاجر مسيطر عليه ، وأنه اذا لم يوف بدينه فسوف ينتهى الأمر ببيع هذين وبيع كل شىء معهما • لقد كان الرجل يضيق عليه الخناق • وقال السيد انه جد آسف ، ولكن ٠٠ كان ينبغى أن تسمعاها ، وهى تتحدث ! انها ان لم تكن هـذه مسيحية حقا وملاكا ، لم يكن أحد غيرها • اننى فتاة شريرة اذ أتركها • ولكن ، لم يكن فى وسعى أن أفعل غير هـذا • لقد قالت بنفسها ان روحا واحدة أثمن من أموال العالم كله • وان للطفل روحا ، فاذا أنا تركته يبتعد عنـا ، فمن يدرى ماذا يحدث له • لابد أن ما فعلته صوابا ، فاذا لم يكن صوابا ، فليغفر اللهلى • فليس فى وسعى أن أفعل غير ما أنا فاعلة •

فقالت العمة كلو :

ـ أيها الرجل العجوز ! لم لا تهرب أنت أيضـا ؟ أتنتظر حتى ترحل الى أدنى النهر حيث يقتلون الزنوج بسوء التغذية ومشقة العمل ؟ اننى أفضل الموت ألف مرة على رحيلك الى هنـاك فى أى يوم ٠٠ لا تزال أمامك فسحة من الوقت • هلم أسرع مع ليزى • ان لديك تصريحا بالذهاب والعودة فى أى وقت • هلم ٠٠ تشجع ٠٠ لسوف أجمع لك حاجاتك •

ورفع توم رأسه ببطء ، ونظر حوله فى حزن وهدوء ، ثم قال :

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ اننى لن أهرب ٠٠ دعى اليزا تمضى • ان هذا من حقها • ولن أكون الشخص الذى يقول لها ، ليس من طبيعة الأمور أن تبقى • ولكنك سمعت ما قالته ٠٠! فان كان لابد أن أباع ، والا بيع كل من فى هذا المكان ، أو دمر كل شىء تدميرا ٠٠ فلأبع اذن •

وأظن أن فى مقدورى أن أتحمل هذا كما يتحمله أى انسان غيرى ·

ثم أردف قائلا بعد أن اهتز صدره العريض الخشن بشهقة بكاء :

ـ كان السيد يجدنى دائما رهن أمره ، ولسوف أكون هكذا على الدوام · اننى لم أخيب أبدا ثقة أحد بى ، ولم أستغل تصريح مرورى فى شىء يخالف ما وعدت به ، ولن أفعل هذا أبدا · ان من الخير لى أن أباع بمفردى عن أن أكون سببا فى خراب هذا المكان وبيع كل ما فيه · ولا ملام على السيد يا كلو ·· لسوف يعنى بك·· وبالأطفال المساكين ··

وعندئذ التفت نحو سرير الأطفال الممتلىء بالصغار ذوى الشعور المفلفلة ، وانهار · ثم اعتمد على ظهر المقعد ، وأخفى وجهه بيديه الكبيرتين ، وأخذت شهقات البكاء العالية الخشنة الثقيلة المبحوحة تهز المقعد ، وراحت قطرات الدموع الكبيرة تتساقط من بين أصابعه على الأرض · انها ياسيدى دموع كالتى يذرفها الرجل على تابوت ابنه البكر ·· انها دموع كالتى تذرفها عينا المرأة وهى تسمع صيحات طفلها المحتضر · ذلك لأنه ياسيدى كان رجلا ـ ولستأنت الا رجلا مثله · والمرأة وان ارتدت الحرير وتحلت بالجواهر ، فما هى الا امرأة · وان الحزن لعاطفة مشتركة بين الجميع فى لحظات المحنة العنيفة والبؤس البئيس ·

وقالت اليزا وهى واقفة بالباب :

ـ والآن ·· لقد رأيت زوجى بعد ظهر هذا اليوم ، ولم أكن أعرف عندئذ ماسوف يحدث لنا · لقد دفعوا به الى آخر ملجأ له ·· وقد ذكر لى اليوم أنه سيهرب · فحاولا ـ ان استطعتما ـ أن تبلغاه رسالة منى · قولا له كيف ذهبت ، ولماذا ذهبت · وقولا له اننى سأحاول الوصول الى كندا · أرجو أن تحملا اليه حبى ، واخبراه اذا لم أره مرة أخرى ··

وأشاحت بوجهها ، ووقفت وظهرها اليهما برهة، ثم أردفت قائلة بصوت أبح :

ـ أخبراه أن يظل كريما بقدر ما يستطيع ، وأن يحاول اللقاء بى فى ملكوت السماء • والآن •• استدعيا برونو الى الكوخ واحجزاه عندكما ، فلا ينبغى أن يأتى معى ••

وبعد كلمات وعبرات قليلة أخيرة ، وبعد عبارات وداع ودعاء ، أمسكت بطفلها الخائف المدهوش بين ذراعيها ، وانسابت به خارجة من الدار وهى صامتة ••

الفصل السادس

اكتشاف الأمر

لم يستغرق المستر شلبى وزوجته فى النوم فورا بعد الحديث المطول الذى دار بينهما فى الليلة السابقة ، وكانت النتيجة أنهما ناما الى ساعة متأخرة بعض الشيء عن المعتاد فى الصباح التالى . وقد قالت المسز شلبى بعد أن دقت الجرس بضع مرات بلا جدوى :

ــ لا أدرى ماذا يشغل اليزا عنى ؟

وكان المستر شلبى واقفا أمام المرآة يشحذ موساه عندما فتح الباب وأقبل غلام ملون يحمل ماء الحلاقة .

وقالت المسز شلبى للغلام :

ــ آندى .. اذهب الى غرفة اليزا وقل لها اننى دققت الجرس لاستدعائها ثلاث مرات .

وأردفت قائلة لنفسها وهى تتنهد :

ــ يا للمسكينة .

وسرعان ما عاد آندى بعينين جاحظتين لفرط الدهشة وهو يقول :

ــ يا الهى ياسيدتى ! ان أدراج ليزى كلها مفتوحة ، وحاجاتها كلها متناثرة فى كل مكان ، وأعتقد أنها قد هربت .

واتضحت الحقيقة فى ذهن كلا الزوجين فى لحظة واحدة ، وقال المستر شلبى :

ــ اذن فقد ارتابت فى الأمر وهربت .

وقالت المسز شلبى :

ـ حمدا لله ٠٠ أرجو أن تكون هربت حقا ٠

ـ أيتها الزوجة ٠٠ انك تتحدثين بحماقة ! ان الأمر سيكون بالغ الحرج بالنسبة لى اذا كانت هربت حقا ٠ لقد رآنى هالى وأنا أتردد فى بيع طفلها ، وسوف يظن أننى ضالع معها فى تهريبه على هـذا النحو ٠ ان هذا يمس شرفى !

وانصرف المستر شلبى من الغرفة مسرعا ٠

وحدث هرج شديد وأخذ ورد ، وفتح للأبواب واغلاق ، وظهور وجوه من جميع الألوان ، من مختلف الأماكن ودام ذلك ربع ساعة تقريبا ٠ وكان ثمة شخص واحـــد فقط قد يمكنـه أن يلقى بعض الضوء على الأمر ، ظل صامتا ، وتلك هى كبيرة الطهاة العمة كلو ٠ لقد شرعت فى اعداد بسكويت الصباح فى صمت وكآبة شـــديدة رانت على وجهها الضاحك عادة ، وكأنها لم تر أو تسـمع شيئا من الضجة الدائرة حولها ٠

وسرعان ما اجتمع نحو اثنى عشر من الغلمان الخبثاء الملونين عند سياج الشرفة ، كالغربان ، وقد قرر كـل منهم أن يكون الأول فى التبليغ عن تصرف السيد بمناسبة ما حدث ٠

قال آندى :

ـ لسوف يفقد صوابه حقا ، أنا واثق من هذا ٠

وقالت ماندى ذات الشعر المفلفل :

ـ نعم ٠٠ إنه يسب ويلعن ٠ سمعته أمس أثناء طعام العشـاء ٠ وسمعت كل شيء عن الموضـوع عندئذ ، لأنى دخلت الحجرة التى تحتفظ فيها سيدتى بالأباريق الضخمة ، وقد سمعت كل كلمة ٠

وكانت ماندى التى لم تفكر أبدا فى معنى أية كلمـــة تسمعها ، أكثر مما تفكر قطة سوداء ، قد اتخـذت الآن سمت الحكيم العالم ،

وراحت تثرثر ، ناسية أنها ، رغم تكومها حقا بين الأباريق الكبيرة ، كانت مستغرقة فى النوم طوال الوقت ٠

وعندما ظهر هالى أخيرا مرتديا حـــذاء الركوب والمهماز ، قوبل بالأنباء السيئة التى كانت على كل لسان ٠ ولم يخب أمل العفاريت الصغار المجتمعين عند سياج الشرفة فى سماعه وهــو يسب ويلعن بقوة وحماسة وعنف ممـــا أثار البهجة والعجب فى نفوســهم وهم يفرون ويروغون هنا وهناك ، ليكونوا بعيدين عن وقع الســوط ، وسرعان ما سقط الجميع ، وهم يصيحون ، متراكمين ضاحكين على الطنف القديم تحت الشرفة حيث راحوا يركلون بأقدامهم ويضجون بالصياح المفعم بالسرور والرضى ٠

وتمتم هالى بين أسنانه :

ـ آه لو وقع الشياطين الصغار فى يدى !

ـ ولكنهم لم يقعوا فى يدك !

قالها آندى بنغمة المنتصر ، وهو يأتى بحركات وأصوات غريبـة بعد أن ولى التاجر التعس ظهره وابتعد ٠

وقال هالى حين دخل غرفة الاستقبال فجأة :

ـ لقد حدث ياشلبى أمر بالغ الغرابة ٠ يبدو أن تلك الفتاة هربت مع طفلها ٠

ـ هالى ٠٠ ان مسز شلبى هنا ٠

فانحنى هالى قليلا وقال وهو لا يزال مقطب الجبين :

ـ معذرة ياسيدتى ٠ ولكننى لا زلت أقول ، كما سبق أن قلت ، ان هذا نبأ عجيب ، فهل هو صحيح ياسيدى ؟

فقال المستر شلبى :

ـ سيدى ٠٠ اذا أردت أن تتبـــادل الحـديث معى ، فينبغى أن تراعى بعض آداب الليـــاقة ، هلم يا آندى وخذ قبعـة مستر هالى

وسوطه ، اجلس ياسيدى ، نعم ياسـيدى ، يؤسفنى أن أقول ان الفتاة التى أثار اهتياجها ما سمعته بنفسها أو ما بلغها عن موضوعنا، حملت ابنها فى الليل وهربت ·

فقال هالى :

ـ لقد كنت أتوقع أن أعامل بانصاف فى هذا الأمر ·

فاستدار المستر شلبى بعنف نحوه وقال :

ـ ياسيدى ! ماذا يمكن أن أفهم من هذه الملاحظة ؟ ان أى شخص يشك فى شرفى ، ليس له عندى غير جواب واحد ·

فخنع التاجر عندئذ ، ثم قال بصوت خفيض بعض الشىء :

ـ ان من أصعب الأمور على شخص ، أتم صفقة عادلة ، أن يعامل على هذا النحو ·

فقال مستر شلبى :

ـ يامستر هالى ·· لو لم أعتقد أن لديك سببا للاستياء ، لما استطعت أن أحتمل منك هذه الطريقة الخشنة الخالية من كل لياقة التى دخلت بها غرفتى هذا الصباح · وأقول أكثر من هذا ، على كل حال ، انه كلما دعت المظاهر ، فانى لن أسمح بأى اهانة توجه الى وكأنى شريك ضالع فيما حدث من ظلم · وفوق هذا أرى من واجبى أن أقدم اليك كل مساعدة من جياد وخدم وغير هذا لاسترداد ممتلكاتك ·· وعلى الجملة يا هالى ـ

ثم حول نبرات صوته الهادئة المتعالية الى نبراته العادية الصريحة البسيطة وأردف قائلا :

ـ فان خير ماينبغى أن تفعله هو أن تحافظ على سماحتك وأن تتناول بعض طعام الافطار ثم نرى بعد ذلك ماينبغى أن نفعله ·

وعندئذ نهضت المسز شلبى وقالت ان مشاغلها تمنعها من الجلوس الى مائدة الافطار هذا الصباح ، وعهدت الى امرأة خلاسية محترمة لكى تقدم القهوة الى السيدين ، وانصرفت من الغرفة ·

وقال هالى وهو يحاول أن يرفع الكلفة تماما :

ـ ان السيدة العجوز لا تحب خادمك المتواضع اطلاقا ٠٠

فقال شلبى بجفاء :

ـ اننى لست معتادا أن أسمع أحدا يتحدث عن زوجتى بمثل هذه الحرية ٠

فضحك هالى ضحكة مغتصبة وقال :

ـ أرجو المعذرة ٠ ان الأمر كله دعابة طبعا ٠٠ كما تعلم ٠

ـ ان بعض الدعابات أثقل ظلا من غيرها ٠

فغمغم هالى لنفسه قائلا « انه يتعالى على الآن ويتكبر منذ أمس بعد أن وقعت مستندات الصفقة » ٠

لم يحدث أبدا أن أثار سقوط أحد رؤساء الوزارات فى البلاط من الاثارة ما أحدث نبأ مصير توم بين زملائه ٠ كان النبأ موضوع الحديث بين جميع الناس فى كل مكان ، ولم يجر فى البيت أو الحقل الا الحديث عن نتائجه المحتملة ٠ وكان هرب اليزا أيضا ـ وهو حادث لم يسبق له مثيل فى ذلك المكان ـ سببا مساعدا فى اثارة مشاعر الجميع ٠

وكان سام الأسود ـ الذى سمى هكذا لأنه أكثر سوادا بثلاث درجات من أى واحد من أبناء الأبنوس فى المكان ـ يستعرض الأمر بدقة من جميع نواحيه واحتمالاته ، استعراضا يتسم بسعة النظرة والاهتمام الشديد بما يعود عليه بالخير ، كل هذا بأسلوب خليق بأن يفخر به أى وطنى أبيض فى واشنطن ٠

قال سام وهو يزيد من رفع سرواله بعد أن وضع مسمارا طويلا فى الحمالة بدلا من زر مفقود ، وهى عملية يبدو أنها أثارت فى نفسه الكثير من الرضى :

ـ انها ريح ملعونة تلك التى لا نعرف من أين تهب ٠٠ نعم انها ريح ملعونة ٠٠ والآن وقد سقط توم ، فان هناك مجالا بالطبع لأن

يقوم بدله بعض الزنوج منا • فلم لا أكون أنا ؟ هـذه هى الفكرة •• لقد كان توم يروح ويجيء فى أنحاء المنطقة ، بحذاء لامع ، وتصريح فى جيبه ، وأبهة وعظمة ، فمن غيره كان يستمتع بكل هذا ؟ والآن لماذا لا يستمتع سام بهذا أيضا ؟ هذا ما أريد أن أعرفه •

فقطع عليه آندى حبل ثرثرته قائلا :

ـ هيا يا سام ! يا سام ان السيد يريد منك أن تسرج الجوادين جيرى وبيل •

ـ هاى •• ماذا جرى الآن أيها الصغير ؟

ـ عجبا ! انك لم تعرف كما أظن أن ليزى حطمت القيد وهربت بطفلها •

فقال سام فى احتقار لا حد له :

ـ أنت تعلم جدك ! لقد عرفت ما حـدث قبلك بزمن طويل •• أن هذا الزنجى ليس ساذجا الى هذا الحد •

ـ على كل حال يريد السيد أن تسرج بيل وجيرى فورا ، وسوف أذهب أنا وأنت مع المستر هالى للبحث عنها •

ـ عظيم الآن ! هذا هو الوقت المناسب ! ان سام هو الذى يلجأون اليه فى مثل هـذه المناسبات • انه الزنجى القدير • لسوف ترى كيف ألحق بها •• ولسوف يرى السـيد ماذا يستطيع سـام أن يفعل •

فقال آندى :

ـ آه •• ولكن عليك ياسام أن تدبر الأمر وتحسن التفكير ، لأن سيدتنا لا تريد أن نلحق بها ، والا فالويل لك •

فحملق سام بعينيه وقال :

ـ هاى ! كيف عرفت هذا ؟

ـ سمعتها تقول هذا بنفسى فى هذا الصباح المبارك عندما حملت

ماء الحلاقة الى السيد • لقد أرسلتني لأرى السبب في عدم ذهاب ليزى اليها لتقوم على خدمتها ، فلما قلت لها انهـــا هربت ، نهضت فجأة وقالت « حمدا لله » • أما السيد فقد استبد به الغضب وقال « أيتها الزوجة انك تتحدثين بحماقة » ولكن •• يا الهى •• انهـــا سوف تضمه الى جانبها أيضا • انني أعرف كيف يتم هـذا • ومن ثم يحسن بنا جميعا أن نقف في جانب السيدة••هذا ما أقوله لكم•

ولما سمع سام الأسود هذا ، هرش رأسه المفلفل الذى وان لم يكن محتويا على ذكاء فارط ، فانه لم يزل محتويا على الشيء الـكثير من الآراء التى يسعى اليها الساسة من جميـــع الألوان والبلدان ، ويسميها العـــامة « معرفة الـكفة الراجحـــة » • ومن ثم توقف ليفكر برهة في اهتمام ، ثم عاد ورفع سرواله مرة أخرى كعـــادته دائما كلما احتاج الى ما يعينه في حيرته الفكرية • وأخيرا قال :

ـ ليس هناك حد لعجائب هذه الدنيا •

وكان سام يتحدث كالفيلسوف ، مؤكدا كلمته هذه ، وكأنه رجل مرت به الكثير من التجارب في مختلف الجـواء والبيئات ، ومن ثم انتهى الى هذه النتيجة :

ـ والآن •• أستطيع أن أقول عن يقين ان سيدتى ســـوف تقيم الدنيا وتقعدها من أجل ليزى •

ـ نعم •• ستفعل • ولـكن ألا تستطيع أن تهم أيهـــا الزنجى الأسود ؟ ان السيدة لا تريد ذلك المستر هالى أن يظفر بابن ليزى•• هذا هو الأمر !

ـ هاى !

قالها سام بصوت منغوم لا سبيل الى وصفه ولا يعرفه الا الذين سمعوا هذه الكلمة ينطقها الزنوج • وعاد آندى يقول :

ـ وسأقول لك أكثر من هذا •• أعتقد أنه يحسن بك أن تسرع باسراج هذين الجوادين •• لأنى سمعت السيدة تسأل عنك ، وقد وقفت طويلا تنثر حماقاتك وحسبك هذا •

وعندئذ بدأ سام يقوم بعمله فى نشاط واهتمام ، وما هى غير لحظات حتى كان يتقدم نحو البيت فى خيلاء راكبا أحد الجوادين اللذين كانا يجريان بسرعة ، وقبل أن يقفا وثب من فوق أحدهما ، وشدهما — كالاعصار — الى مربط الخيل بجانب باب البيت ، هذا بينما كان جواد هالى يتواثب ويشد فى عنانه ٠

وقال له سام وقد التمع وجهه الأسود ببريق ماكر :

— هاى هاى ٠٠ هل أنت خائف ؟ لسوف أصلح أمرك الآن ٠

وكان ثمة شجرة زان تظلل المكان ، وكان يتناثر تحتها بكثرة ثمار أشجار الزان المخروطية الصغيرة الحادة الصلبة كالبندق ٠ وتناول سام بندقة منها بين أصابعه واقترب من الجواد وربت عليه وبدا أنه مشغول بتهدئة ثائرته ، ثم تظاهر بأنه يصلح وضع السرج ، ثم اذا هو يدس خلسة البندقة الصغيرة الحادة تحته بطريقة تجعل أى ضغط على السرج يثير أعصاب الجواد دون أن يترك أى أثر أو جرح على ظهره ٠ ثم قال وهو يقلب عينيه فى رضى وابتسام :

— لسوف تصلح هذه أمرك ٠

وفى تلك اللحظة ظهرت المسز شلبى فى الشرفة وأومأت اليه ، فتقدم سام اليها وقد قرر أن يؤدى لها تحية لا تقل عن تحية أى طالب لمنصب شاغر فى سانت جيمس أو واشنطن ٠

وقالت له :

— لماذا تتسكع هكذا يا سام ؟ لقد أرسلت اليك أندى ليتعجلك !

فقال سام :

— بارك الله فيك ياسيدتى ٠٠ ان اسراج الجوادين لا يتم فى لحظة ، لقد كادا أن يفلتا منى ليجريا الى المرعى الجنوبى ، والى ما لا يعرف أحد غير الله أيضا ٠

— كم مرة طلبت اليك ياسام ألا تحشر اسم الله بلا مناسبة فى أحاديثك ؟ ان هذا لا يليق ٠

ـ أوه ·· بارك الله روحي · لقد نسيت · ولن أعود الى هذا مرة أخرى ياسيدتى ·

ـ عجبا يا سام ·· لقد قلتها مرة أخري منذ قليل ·

ـ أحق هذا ؟ يا لله ! أعنى ·· اننى لم أكن أقصد أن أقولها ·

ـ ينبغى أن تكون حذرا يا سام ·

ـ اسمحى لى بالتقاط أنفاسى ياسيدتى وسوف أبدأ من جديد في حذر شديد ·

ـ ان عليك ياسام أن تذهب مـــع المستر هالى لتدله على الطريق وتعاونه · واحرص على راحة الجياد ياسام · فأنت تعرف أن جيرى كان يعرج في الأسبوع الماضي ، ومن ثم فلا ترغمه على سرعة العدو ·· أتفهم ؟

وكانت مسز شلبى تقول العبـــارات الأخيرة بصـــوت خفيض ونبرات قوية لها دلالتها · ومن ثم قال سام وهو يقلب عينيه تقليبا كثير الدلالة :

ـ دعى هــذا الطفل يتولى الأمر وحــده ·· الله يعلم ·· هاى ·· لا ينبغى أن أقول هذا ـ

ووضع يده على فمه بسرعة وفى حركة تنم عن الخوف المبالغ فيه مما جعل السيدة تضحك رغما عنها ، ثم مضى يقول :

ـ نعم ياسيدتى ·· سوف أرعى الجياد ·

وقال حين عاد واتخذ موقفه تحت شجرة الزان :

ـ والآن يا آندى ·· اننى لن أدهش اطلاقا اذا أسقط هذا الجواد سيده بعد قليل ، فان هذا النوع من الجياد يفعل شيئا كهــذا حين تتوتر أعصابه ·

ثم لكز آندى فى جانبه بطريقة لها معناها ، فقال آندى وقد فهم المعنى لساعته :

ـ هاى ٠

ـ نعم ٠٠ أترى يا أندى ، ان السـيدة تريد أن تكتسب ليزى بعض الوقت ، وهذا واضح وطبيعى لكل من يلاحظ ٠ ولسوف أقوم لها بخدمة بسـيطة ٠ لسوف أطلق جميـع الجياد لكى تتوزع فى الغابة ، وذلك حتى لا يسرع السيد بالرحيل ٠

ولما ابتسم أندى ، مضى سام قائلا :

ـ أترى يا أندى ٠٠ أذا حدث أى شيء غير طبيعى للسيد هالى مع جواده ، فعلينا أن نطلق جوادينا لكى نساعده ، نعم ـ

والقى كل منهما برأسـه الى الوراء ، وراحا يضحكان بصـوت خفيض متصل وهما يطرقعان أصابعهما ، ويركلان بأرجلهمـا فى سرور بالغ ٠

وظهر هالى فى تلك اللحظة بالشرفة ، هادىء الأعصـاب بعض الشيء بعد أن شرب بضعة أقداح من القهوة الجيـدة ، ومن ثم راح يتحدث وهو يبتسم وقد عاد اليه مرحه ٠ أما سام وأندى فقد اتخذا من بعض سعف النخيل ما يقوم مقام القبعة ، واندفعـا الى مربط الجياد ليكونا على أستعداد لمساعدة السيد ٠

وكانت سعفة نخيل سام مضطربة الجدائل ، مرفوعة العساليج فى انطلاق وتحد كأى تاج لزعيم هندى ، هـذا بينما كانت سـعفة أندى متفرقة الحوافى ، منفصلة الأطراف ، وكان الغـلام قد خرق قاعها فى براعة بابهامه ، وارتداها راضـيا وهو يتلفت حوله كأنه يقول :

ـ من ذا يقول اننى لا أرتدى قبعة ؟

وقال هالى :

ـ استعدا يا ولدى وكونا نشطين ، فلا ينبغى أن نضيع الوقت ٠

فقال سام وهو يضع العنان فى يده ويمسك بالركاب ، بينمـا كان أندى يفك الوثاق :

ـ لن نضيع شيئا منه ياسيدى ٠

وما أن لمس هالى السرج حتى قفز الجواد عاليـــا ، فجأة ، وألقى براكبه على الأرض اللينة على بعد بضع أقدام ٠ واندفع سام ، وهو يصيح ويلوح بيديه ، نحو العنان ، ولـــكنه لم ينجح الا فى دس أطراف سعفة النخيل فى عينى الجواد ، ولم يفلح هـذا فى تهدئة أعصابه ٠ فقلب سام بقوة على الأرض ، ثم أرسل نخيرا عاليا مرتين أو ثلاثة ، وضرب الهواء بقائمتيه الخلفيتين بعنف ، ثم انطلق نحـو نهاية الممر متبوعا بالجوادين جيرى وبيل اللذين لم يتوان أندى عن اطلاقهما ، طبقا للاتفـــاق المبيت ، وعن حثهما على سرعـة الانطلاق بصيحاته المزعجة ٠ وأعقب هذا خليط من الاضطراب والفوضى ، فقد أخذ سام وأندى يجريان ويصيحان ، والـكلاب تنبح هنـا وهناك ، ومايك وموسى وماندى وفانى وكل من فى المكان من الصغار ، ذكورا واناثا ، ينطلقون ويصفقون ، ويصفرون ويصيحون بكل ما لديهم من قوة وحماسة ٠

وبدا أن جواد هالى ، الذى كان أبيض اللون سريع العدو نشيطا ، قد تأثر بروح الضجيج المنتشر حوله ، فاذا هو يندفع بكل قواه فى الممر البالغ طوله نحو نصف ميل ، وتحف بجوانبه المنحـــدرة فى رفق غابات لا حدود لها ، واذا هو يشعر بأشد الابتهاج وهـو يرى الى أى حد يسمح لمطارديه بالاقتراب منه ، فلما كانوا على بعد قبضة منه ، اذا هو يندفع ناخرا فى احتقار كأى جواد شرير مثله ،وينطلق فى بعض ممرات الغابة ٠ ولم يكن هناك ما هو أبعد فى ذهن سام من السماح لأحد المطاردين بامساك الجياد حتى يحين الوقت المناسب ٠ وكانت محاولاته لتحقيق هـــذا الغرض نوعا من البطولة الحقـة ٠ وكانت قبعة سام المصنوعة من ســـعفة النخيل مثل سيف « قلب الأسد » دائمـــا فى المقدمة ، وفى خضم المعركة بحيث كانت تبرز وتؤدى مهمتها كلما بدا أى احتمـــال فى الامساك بأحـد الجياد ٠ فعندئذ كان يندفع بكل قواه صـــائحا « هلم اليه ٠٠ أمسكوه ٠٠ أمسكوه » وذلك بطريقة تزيد الطين بلة ٠

وكان هالى يجرى هنا وهنـــــاك ويسب ويلعن ويضرب الأرض

بقدميه فى غضب وثورة . وعبثا حاول المستر شلبى أن يصيح بأوامره من الشرفة . أما المسز شلبى فكانت وهى تطل من نافذة غرفتها تضحك تارة وتبدى دهشتها تارة أخرى ، دون أن يخفى عليها الهدف الحقيقى لكل هذا الاضطراب .

ثم ظهر سام آخر الأمر حوالى الساعة الثانية عشرة مزهوا راكبا الجواد جيرى ، وبجانبه جواد هالى يتصبب عرقا ، يتطاير الشرر من عينيه متسع المنخارين ، يدل ذلك على أن الحرية لم تخمد جذوتها كلها فيه .

وصاح سام صيحة الظافر :

ـ لقد أمسكنا به .. ولولا جهودى ، لما استطاع أحد أن يصل اليه .. فأنا الذى أمسكته .

فغمغم هالى بصوت لا ينمّ عن الرضى :
ـ أنت ؟ لو لم تكن أنت .. لما حدث شىء من هذا كله .
فقال سام فى صوت ينم عن الاهتمام الشديد :

ـ ليرحمنا الله جميعا يا سيدى .. أتقول هذا عنى أنا الذى كنت أجرى وأطارد حتى تصبب العرق منى ؟

فقال هالى :

ـ ويحك .. لقد ضيعت من الوقت ثلاث ساعات تقريبا بسبب حماقتك اللعينة . والآن هلم بنا نمض ، وكفى لغوا .
فقال سام بنغمة المستنكر :

ـ عجبا يا سيدى .. أعتقد أنك تنوى قتلنا جميعا .. نحن والجياد ، فها نحن أولاء نوشك أن نسقط من الاعياء ، وان الجياد جميعا تتصبب عرقا . لا شك يا سيدى أنك لا تفكر فى أن تبدأ السير الا بعد الغداء . ان جواد سيدى يحتاج الى تنظيف وتدليك وفى وسعك أن ترى كيف لوث نفسه ، وان جيرى يعرج أيضا . ولست أظن أن سيدتى تريدنا أن نرحل على هذا النحو أيا

كان الأمر ، بارك الله يا سيدي . ان في وسعنا أن نلحق بليزى حتى لو توقفنا هنا برهة ، فانها لم تكن يوما مشاءة كبيرة .

وكانت مسز شلبى قد سمعت هذه المحادثة من الشرفة ، فقررت أن تقوم بدورها ومن ثم تقدمت وأعربت ـ بلباقة ـ عن أسفها لماحدث لهالي ، وأكدت عليه الانتظار الى طعام الغداء ، قائلة ان طاهيتها سوف تأتي به الى المائدة فورا .

وهكذا مضى هالي ، بعد أن أدرك الموقف ، الى غرفة الاستقبال في شيء من اللباقة وحسن السلوك ، بينما تقدم سام ، وهو يقلب عينيه وراءه بمعنى خاص ، مع الجياد الى المربط العام .

وقال سام لأندي حينما بلغ معه مكانا آمنا وراء المخزن حيث ربط الجياد

ـ أرأيته يا أندى . ؟ أرأيته ؟ آه يا الهي .. أليس هذا جميلا جمال الاجتماع الديني ونحن نراه يتواثب ويركل ويسبنا .. ألم أسمعه ؟ لقد كنت أقول لنفسي : « سب والعن يا صاحبي العجوز ، فهل جاءك السباب بالحصان الآن ، أو أن عليك أن تنتظر حتى نمسكه لك » يا الهي يا أندى .. يخيل الي أني أراه الآن ..

واستند سام وأندى بظهريهما الى جدار المخزن وراحا يضحكان حتى شبعا من الضحك

وعاد سام يقول :

ـ كان ينبغي أن تراه وهو يبدو مجنونا حين أحضرت جواده اليه . يا الهي .. كان يمكن أن يقتلني لو استطاع ، بينما كنت واقفا في براءة وتواضع .

ـ يا الهي . لقد رأيتك .. حقا انك لحصان عجوز يا سام .

ـ هكذا أعتقد أنا أيضا . أرأيت سيدتي واقفة في الشرفة .. لقد كانت تضحك .

ـ انني واثق من هذا وان كنت لم أر شيئا وأنا أعود .

فقال سام وهو يتقدم بوقار نحو جواد هالى ليغسله :

ـ أترى يا أندى ٠٠ لقد اكتسبت ما يمكن أن تسميه عادة قوة الملاحظة ٠ وهى عادة مهمة جدا يا أندى ، وأنا أنصحك بتنميتها فى نفسك الآن وأنت صغير ٠ ارفع الى هذه القدم الخلفية للحصان يا أندى ٠ أترى يا أندى ٠ ان قوة الملاحظة مفيدة جدا للزنجى ، ألم تجعلنى أرى من أين تهب الريح فى هذا الصباح ؟ ألم أر ماذا أرادت سيدتى ، رغم أنها لم تخبرنى بما تريد ؟ هذه هى قوة الملاحظة يا أندى ، وأعتقد أنها هى التى يمكن أن تسميها موهبة ٠ فالمواهب تختلف باختلاف الناس ولكن تنميتها تجعلها جد مفيدة ٠

فقال أندى :

ـ أعتقد أنه لولا أنى عاونت قوة ملاحظتك فى هذا الصباح ، لما أمكنك أن تكون بارعا هذه البراعة كلها ٠

فقال سام : « انك يا أندى ٠٠ غلام تبشر بمستقبل عظيم ، ولا مجال للشك فى هذا ، وأنا أقدرك كثيرا يا أندى ، ولا أشعر بأى خجل أبدا وأنا ألتمس الرأى منك ٠ ولا ينبغى أن يستهين الانسان بأى أحد ، لأن لكل جواد كبوة ٠ فهلم اذن يا أندى الى البيت الآن ، وأكبر ظنى أن السيدة سوف تقدم لنا طعاما فاخرا هذه المرة ٠

الفصل السابع

كفاح الأم

من المستحيل أن نتصور مخلوقا آدميا أكثر احســـاسا بالبؤس والعزلة من اليزا عندما وجهت خطواتها بعيدا عن كوخ العم توم ٠

ذلك أن آلام زوجها والمخاطر التى تحف به وبابنها قد اختلطت فى عقلها باحساس مضطرب بالمغـــامرة التى هى مقبلة عليها بتركهـا البيت الوحيد الذى عرفته فى حياتها ، وحرمانها من رعـاية صديقة تحبها وتحترمها ، وهو احساس كاد يذهب بعقلها ٠ ثم هناك الفراق عن كل شىء مألوف لها ـ المكان الذى نشأت فيه ، والأشـجار التى لعبت تحتها ، والغياض التى سارت بينها مساء فى كثير من الأيام السعيدة بجانب زوجها الشاب ـ وكان يخيل اليها أن كل شىء كمـا يبدو فى ضوء النجوم البارد الواضح، يتحدث اليها ، يؤنبها ويسألها: الى أين ترحلين عن بيت كهذا ؟

ولكن حب الأم لأطفالها أقوى من هذا كله ٠٠ وهى عاطفة تكـاد تبلغ حد الجنون عند اقتراب الخطر المخيف من الابن ٠ فقـــد كان طفلها فى السن التى تمكنه من السير الى جانبهـــا ، وكان يمكن فى ظروف مختلفة ، أن تمسك بيده وتتركه يسير معها ، ولكن مجـرد التفكير الآن فى ابعاده عن ذراعيها يجعلها ترتعد ، وهكذا أخـــذت تضمه الى صدرها فى قوة وهى ترتجف وتمضى بسرعة فى طريقها ٠

كانت الأرض المجمدة بالصقيع تصر تحت قدميها ، وكانت هى ترتعد حين تسمع هذا الصوت ، وكان كل حفيف ورقة شجر ،وكل ظل متأرجح ينساب ، يرسل الدماء من رأسها الى قلبها ، ويزيد من سرعة خطوها ٠ وكانت تعجب فى ذات نفسها لهذه القوة التى بـدا

أنها ملأت جسمها ، ذلك أنها أحست بأن ابنها ضعيف كأنه ريشة ٠ وكان يبدو أن كل خلجة خوف تزيد من هذه القوة الخارقة التى تدفع بها الى الأمام ، بينما كانت شفتاها الشاحبتان تندفعان فى تسبيحات متواصلة ودعاء الى اله السموات والأرض الرحيم قائلة : « العـون يا الهى ٠٠ النجدة يا الهى »

لو كان ابنك هارى ، أيتها الأم ، أو ابنـــــك ويلى ، هو الذى سينتزع منك غدا صباحا على يد نخاس وحشى ـ لو أنك رأيت هـذا الرجل ، وسمعت أن مستندات البيع قد تم توقيعها واستلامها ،وأنه ليس أمامك للهرب الا ما بين الثانية عشرة والصباح ، فبأية سرعـة كان يمكنك أن تسيرى ؟ أى عدد من الأميال كان يمكنك أن تقطعى فى مثل هذه الساعات القليلة مع وجود ابنك الحبيب على صـــدرك ، ورأسه الصغير الغـــافى على كتفك وذراعاه الصــــغيرتان الرقيقتان تتعلقان فى أمان بعنقك !

ذلك أن الطفل كان نائما ٠ وكانت جدة الحادث والخوف قد أطارت النوم من عينيه ٠ ولكن أمه أسرعت فأخفتت كل صوت ونفس ، ومن ثم أكدت عليه أنه اذا التزم السكينة ، فسوف تنجيه حتما ٠ وهكذا تعلق بعنقها فى هدوء ، دون أن يلقى ، قبل أن يستغرق فى النوم ، الا الأسئلة التالية :

ـ أماه ٠٠ ليس بى حاجة الى البقاء متيقظا ٠٠ أليس كذلك ؟

ـ بلى يا حبيبى ٠٠ نم اذا شئت ٠

ـ ولكن اذا نمت يا أماه ، فهل تمنعينه من أن يأخذنى ؟

ـ نعم ٠٠ والله شهيد على ما أقول ٠

قالت الأم هـذا وقد زاد امتقاع وجنتيها واشـــتد تألق عينيها الكبيرتين السوداوين ٠ وعاد الطفل يسأل :

ـ أنت واثقة يا أماه ٠٠ أليس كذلك ؟

ـ بلى ، أنا واثقة ٠

قالتها الأم بصوت أدهشها ، فقد خيل اليها أنه صادر من روح

بداخلها ليست جزءا من نفسها ، وألقى الغـــلام برأسه المتعب عـلى كتفها ، وسرعان ما استغرق فى النوم • ولشد ما كانت لمسة ذراعيه الدافئتين وهبات أنفاسه الرقيقة على عنقها تزيد ، كما يبدو ،الحماسة والهمة فى حركاتها ! لقد خيل اليهـــا أن القوة تتدفق فيهـــا فى مجار كهربائية من كل لمسة رقيقة ومن كل حركة لابنها النائم المطمئن اليها • ألا ما أسمى سيطرة العقل على الجسم تلك الســـيطرة التى تجعل اللحم والعصب قويين لا يقهران بحال ، وتجعل أوتار الجسم صلبة كالحديد • وبذلك يصبح الانسان الضعيف قويا جد القوة •

وكانت حدود المزرعة ، ودغل الشجيرات ، ورقعة الغابة تمر بها وهى تمضى فى طريقها فتصيبها بالدوار ، ومع ذلك فقد ظلت ماضية تاركة وراءها شيئا مألوفا بعد شىء دون أن تتمهل أو تتوقف ، حتى اذا احمر المشرق ولاح ضوء النهار كانت قد ابتعدت عدة أميال من كل أثر مألوف على الطريق العام الممتد أمامها •

وكانت كثيرا ما تقصد ـ مع سيدتها ـ لزيارة بعض الأقارب فى قرية « ت » الصغيرة التى لا تبعد كثيرا عن نهر أهيو ، ومن ثم كانت تعرف الطريق جيدا • وكان الذهاب الى هناك وتجنب عبور نهر أهيو من بين الخطوط الأولية السريعة فى مشروع فرارها • أما بعد هذا فلم يكن أمامها الا الاعتماد على الله وحسب •

ولما بدأت الجياد والمركبات تسير على الطريق العام أدركت بفضل تلك الفطنة اليقظة التى تتمخض عنها النفس المحتاجة والتى تبـدو كأنها وحى يوحى اليها ـ أدركت أن سيرها السريع المندفع وأمارات الشرود البادية على وجهها يلاحظها الناس فتثير الشك فى أمرها • ومن ثم وضعت الطفل على الأرض وأصلحت وضع ثوبها وقبعتهـــا وواصلت السير بخطى ظنتها تتفق مع المظهر الذى تريد الاحتفاظ به، وكانت قد تزودت فى لفافتها الصغيرة بذخيرة من الكعك والتفـــاح استغلتها فى اغراء الطفل على سرعة المسير فأخذت تدحرج التفـاحة بضع ياردات أمامها فيعدو الطفل وراءها بكل قوة ، وأخــذت تكرر هذه الحيلة بضع مرات ، أتيح لهما بفضلها قطع عدة أنصـــاف من الأميال •

وبعد فترة من الوقت وصلا الى رقعة من الغابات متكاثفة الشجر طرق أذنها فيها خرير جدول صاف يسمع من داخلها · ولما شكا الطفل من الجوع والظمأ ، تسلقت معه السياج وجلست وراء صخرة كبيرة أخفتهما عن المارة فى الطريق ، ثم قدمت له طعام الافطار من لفافتها الصغيرة ، وعجب الطفل وحزن لأنها لم تأكل معه ، ولما حاول ، وهو يضع ذراعيه على عنقها ، أن يدس قطعة كعك فى فمها ، خيل اليها أن الغصة فى حلقها توشك أن تخنق أنفاسها وقالت له :

ـ لا لا يا هارى يا عزيزى ·· ان أمك لا تستطيع أن تأكل حتى تراك فى مأمن · ينبغي أن نمضى ·· ونمضى ·· ونمضى ·· فى سيرنا حتى نصل الى النهر ·

وهرعت مرة أخرى الى الطريق ، ومرة أخرى حاولت أن تحزم أمرها للمسير فى هدوء وانتظام الى الأمام ·

وغدت على مسافة أميال كثيرة من أية منطقة قريبة يمكن أن تعرف فيها شخصيتها · فاذا حدث والتقت بأى فرد يعرفها ، فقد رأت أن شهرة مخدوميها فى العطف والرحمة ستكون فى ذاتها ستارا يمنع الشك فى أمرها ، ويجعل من غير المحتمل أن يظن الناس أنها هاربة· ولما كانت أيضا بيضاء البشرة بحيث لا يعرف حقيقة أنها تنحدر من آباء ملونين الا بالفحص الدقيق ، ولما كان طفلها أبيض كذلك ، فقد سهل عليها الى حد كبير أن تمضى فى طريقها دون أن تثير الشك فى أمرها ·

وكانت هذه الفروض تطوف بذهنها عندما وقفت وقت الظهيرة عند بيت ريفى نظيف لتستريح وتشترى بعض طعام الغداء لنفسها ولطفلها ، ذلك لأن توتر أعصابها الشديد بدأ يخف مع تناقص الخطر كلما طالت المسافة ، وهكذا وجدت نفسها متعبة وجائعة معا ·

وبدا أن سيدة البيت الريفى ، الحنون الثرثارة ، كانت أميل الى البهجة منها الى الاكتئاب لوجود شخص معها تبادله الحديث ، ثم صدقت ، بلا ارتياب ، ما قالته اليزا من أنها « ذاهبة فى رحلة قصيرة

لتمضى أسبوعا مع أصدقاء لها » وهذا ما كانت ترجو ــ فى قــــرارة نفسها ــ أن يحدث ٠

وقبيل غروب الشمس بساعة ، دخلت قرية « ت » على نهر أهايو ، متعبة دامية القدمين ، ولكن قلبها كان لا يزال قويا ٠ وكانت نظراتها الأولى متجهة صوب النهر الذى كان يقع بينها وبين الحرية كما يقع نهر الأردن بين الأردن وأرض كنعان ٠

كان فصل الربيع عندئذ فى باكورته وكان النهر فياض العبــاب مضطرب الأمواج تطفو على سطحه وتدور هنا وهناك فى مائه الفائر كسف كبيرة من الجليد ٠ وكان هذا الجليد قد احتجز وتراكم بكميات كبيرة وامتلأت به القناة الضيقة المنطلقة حول المنحنى وعلا بعضهـــا فوق بعض وتكون منه بذلك حاجز مؤقت يعتــــرض الجليد الهابط فتكون منه طوف ضخم متماوج يملأ النهر كله ويكاد يصل الىشاطئه وكان سبب هــذا كله ما انفرد به شاطىء النهر المجاور لولاية كنتكى من شكل فريد فقد كانت الأرض هنا تنثنى بحيث تدخل فى الماء الى مسافة كبيرة ٠

وقفت اليزا لحظة تفكر فى هذا المنظر غير المســـتحب فرأت من فورها أنه سيمنع من سير القارب الذى اعتاد أن ينقـــــل الناس الى الشاطىء الآخر منه فما كان منها الا أن اتجهت واستدارت الى خان على الشاطىء لعلها تحصل هناك على بعض المعلومات ٠

وكانت صاحبة الخان تقوم بمختلف أعمال الطهو والتحمـير عــلى النار استعدادا لوجبة العشاء ، فلما سمعت صوت اليزا الحلوالحزين استرعى ذلك انتباهها فوقفت عن عملها والشوكة فى يدها وقالت :

ــ ماذا بك !

فقالت اليزا :

ــ ألا يوجد أى قارب يحمل الناس الآن الى قرية ، ب »

فأجابت المرأة

ــ لا ٠٠ أبدا ٠ لقد وقفت القوارب عن العمل

ودهشت المرأة بما ارتسم على وجـــه اليزا من أمارات الضيق والاستياء •

فسألتها قائلة :

ـ لعلك تريدين عبور النهر ؟ أثمة أحد مريض ؟ يبدو أنك شديدة القلق

فرد عليها اليزا قائلة :

ـ ان لى طفلا فى حالة خطر شديد • ولم أعرف حالته الا فى الليلة الماضية ، وقد سرت اليوم مسافة طويلة لعلى أصل الى قارب المعدية•

فقالت المرأة وقد اهتاجت فيها أقوى مشاعر الحنان الأموى :

ـ لقد صادفك سوء الحظ • اننى شديدة الاهتمام بأمرك حقا •• سليمان !

ونادت من نافذة مطلة على بناء صغير قائم خلف الخان • وما لبث أن ظهر بالباب رجل بميدعة من الجلد وبيدين بالغتى القـــذارة • وقالت له المرأة :

ـ اسمع يا سلم •• ألا ينوى ذلك الرجل أن يحمل تلك البراميل الى الشاطىء الآخر من النهر فى هذه الليلة ؟

فأجابها قائلا :

ـ لقد قال انه سيحاول عبوره اذا رأى حكمة فى ذلك الأمر •

فقالت المرأة :

ـ ان بالقرب من هذا المكان رجلا ينوى عبور النهر ببعض المتـــاع الليلة ، اذا أوتى الشجاعة الكافية • وسيكون هنـــا الليلة ليتناول عشاءه ، ولهذا يحسن بك أن تجلسى وتنتظرى •

ثم أردفت قائلة للطفل وهى تقدم اليه قطعة فطير :

ـ يا لك من طفل صغير لطيف •

ولكن الطفل المرهق بكى من فرط التعب ، فقالت اليزا :

ـ يا له من طفل مسكين ! انه لم يتعود المشى الكثير ، وقد أرهقته بسرعة المسير ٠

فقالت المرأة وهى تفتح بابا يؤدى الى غرفة نوم صغيرة بها سرير مريح :

ـ امض به الى هذه الغرفة ٠

وأرقدت اليزا الطفل على السرير ، وأمسكت بيديه بين يديها حتى استغرق فى النوم ٠ أما هى فلم تجد سبيلا الى الراحة ، فقد كان التفكير فى مطارديها يضرم النار فى عظامها ، ويلهب رغبتها فى السير قدما ، ومن ثم راحت ترنو بنظرات ملهوفة الى مياه النهر الثائرة التى تبعث الملل والنكد فى النفوس والتى تفصل بينها وبين حريتها ٠

ولا بد هنا من أن نطوى صفحتها الى حين لنتتبع خطوات مطارديها ٠٠

كانت مسز شلبى قد وعدت بتقديم طعام العشاء ، ولكنها سرعان ما أدركت ـ كما أدرك الناس أكثر من مرة قبل ـ أن عقد أية صفقة يحتاج الى أكثر من شخص واحد ٠

ولهذا كان كل ما فعلته العمة كلو الموقرة الرقيقة المقام أن أخذت تغمغم وتدمدم وتهز رأسها ـ ومضت تؤدى كل دقائق عملها بطريقة أشد ما تكون تمهلا وابطاء وان كان الأمر قد صدر على مسمع من هالى وحمله اليها ستة من صغار الأتباع على الأقل ٠

وبدا كأن احساسا معينا ـ لسبب غريب غير معروف ـ قد سيطر على الخدم عامة بأن السيدة لن يسوءها التأخير كثيرا ، ومن ثم كان مما يثير العجب عدد الأحداث الصغيرة التى وقعت وأدت الى تأخير سير الأمور ٠ فقد سكب المرق انسان سىء الحظ ، ولم يكن بد من اعداد المرق من جديد وأن يراعى فى اعداده ما يجب من الاهتمام والعناية بالمظهر ٠ وكانت العمة كلو ترقب اعداد الحساء الجديد وتقلبه بدقة وانتباه فاذا طلب اليها أن تعجل فى هذا الاعداد أجابت فى

غاظة قائلة « لن أسمح بوضع حساء غير كامل النضج على المائدة ولو كان هذا لأساعد شخصا على اللحاق بمن يطارده » وتعثر أحدهم وسقط بدلو الماء ، فكان عليه أن يرتد عائدا الى النبع ليأتى بالمزيد منه ، وأسقط آخر الزبد فى الطريق الذى حدثت فيه تلك الحوادث السابقة • وكانت الأخبار الباعثة على الضحك تصل بين الحين والحين الى المطبخ وتقول ان السيد هالى شديد القلق ، وانه لا يستطيع الاستقرار على مقعده بأى حال ، وانما يروح ويجىء الى النوافذ وخلال الأبواب •

وقالت العمة كلو وهى مغضبة :

ـ انه يستحق هذا وأكثر منه • لسوف يزداد قلقا يوما ما اذا لم يصلح أموره •• وسوف يدعوه سيده اليه يوما ما وسنرى عندئذ كيف يكون حاله •

فقالت جيك الصغيرة :

ـ ان مآله عذاب جهنم بلا ريب •

فقالت العمة كلو بصرامة :

ـ انه أهل لها • فما أكثر ما حطم من القلوب ، ألا ما أكثرها وأكثرها • هذا ما أقوله لكم

ثم أمسكت عن العمل والشوكة مرفوعة فى يدها ، وعادت تقول :

ـ ان هذا كما يقرأ السيد جورج فى سفر الرؤيا : ان الأرواح تتنادى تحت المحراب •• وانها تدعو الله لينتقم لها من الأشرار •• وسيستمع الله اليها عن قريب ويستجيب لدعائها •

وكان جميع الحاضرين ينصتون بأفواه فاغرة الى العمة كلو ـ التى كان لها احترامها الكبير فى المطبخ ـ ولما كان طعام العشاء قد جىء به أخيرا الى قاعة الأكل ، فقد أتيح لمن فى المطبخ وقت يثرثرون فيه معها ويستمعون الى ملاحظاتها •

وقال آندى :

ـ ان أمثاله سوف يخلدون فى النار ولا جدال فى هذا ٠٠ أليس كذلك ؟

وقالت جيك الصغيرة :

لست أشك فى أننى سيسرنى أن أرى هذا ٠

وعندئذ سمعوا صوتا أفزعهم جميعا بقوله :

ـ أيها الأبناء ـ

وكان الصوت صوت العم توم الذى أقبل ووقف ينصت الى الحديث عند الباب :

ـ أيها الأبناء ٠٠ أخشى أنكم لا تعرفون ما تقولون ٠ ان « الأبد » كلمة رهيبة يا أبنائى ٠٠ ومن الفظاعة أن تفكروا فيها ، كما لا ينبغى أن تتمنوا مثل هذا العذاب لأى مخلوق بشرى ٠

فقال أندى :

ـ اننا لا نتمناه لأحد الا لمن يعذبون الأرواح ٠٠ ولا يسع أحدا الا أن يتمناه لهم ٠٠ فما أشد شرهم !

وقالت العمة كلو :

ـ اليست الطبيعة نفسها تلعنهم ؟ ألا ينتزعون الطفل الرضيع من صدر أمه ويبيعونه ؟ والأطفال الصغار يتعلقون بأذيالها وهم يبكون ألا ينتزعونهم ويبيعونهم ؟ ألا يفرقون بين الزوج وزوجه ؟

وشرعت العمة كلو تبكى وتقول :

ـ وهل يشعرون بأقل رحمة وهم ينتزعون الحياة نفسها منهم ؟ ألا يسكرون ويدخنون ويأخذون الأمر بكل بساطة ٠ يا الهى ! اذا لم يأخذهم الشيطان فما الفائدة منه !

وأخفت العمة كلو وجهها بميدعتها ذات المربعات ، وانطلقت تبكى بحرارة ٠

وقال العم توم :

ـ ان الكتاب المقدس يقول : صلوا من أجل الذين يسيئون اليكم ٠

فقالت العمة كلو :

ـ أنصلى من أجلهم ؟ رباه ٠٠ انه لأمر جد عسير ! اننى لاأستطيع أن أصلى من أجلهم ٠

فقال توم :

ـ انها الطبيعة يا كلو ٠٠ والطبيعة قـــوية ٠٠ ولكن رحمة الله أقوى ٠ وعدا هذا ينبغى أن تفكرى فى الحالة الرهيبة التى تعيش فيها أرواح هؤلاء المســاكين بسبب أعمــالهم ٠ ينبغى أن تحمــدى الله لأنك لست مثلهم يا كلو ٠ اننى واثق بأنى أفضــل أن أباع عشرة آلاف مرة ، على أن أحاسب كما سيحاسب هؤلاء المساكين ٠

وقالت جيك :

ـ وأنا أيضا ٠٠ أفضل هذا جدا ٠ يا الهى ٠٠ ما رأيك يا أندى ؟

وهز أندى كتفيه ، وأجاب بصفير من شفتيه اعرابا عن الرضى ٠

وقال توم :

ـ اننى مغتبط لأن السيد لم يرحل هذا الصباح كما كان ينتوى فلو أنه فعل لتألمت أكثر من ألمى للبيع ٠ وربمــا كان من الطبيعى ، بالنسبة له ، أن يفعل ، ولكنى عندئذ كنت أتألم أشد الألم ، لأنى عرفته منذ كان طفلا ٠ أما وقد رأيت السيد الآن ، فانى أشعر بلون من الاستسلام لمشيئة الله ٠ فأنا أعتقد أنه لم يكن فى وسع السيد أن يفعل غير هذا ، وقد أحسن فيما فعل ٠ ولكنى أخشى أن تزداد الأمور سوءا بعد رحيلى ٠ فليس من المنتظر أن يستطيع السيد التفتيش على

كل شيء كما كنت أفعل ، وموازنة كل الأمور • ان الأولاد جميعا حسنو النية ، ولكنهم شديدو الاهمال • وهذا ما يقلقني •

وعندئذ صلصل الجرس ، واستدعي توم الى قاعة الاستقبال حيث قال له سيده برفق :

ـ توم •• أريد أن تعلم أنني تعهدت لهذا السيد كتابة بأن أعوضه بألف دولار اذا لم يجدك في المكان الذي يريد أن تكون فيه • ولسوف يمضي الآن وراء مهمة أخرى ، ويمكنك أن تفعل اليوم ما تريد ، وأن تذهب الى حيث تشاء يا ولدي •

فقال توم :

ـ شكرا يا سيدي •

وقال التاجر :

ـ وعليك أن تكون حذرا • فلا تحاول مع أي واحد من زنوجك أن تورط سيدك • لأني سأتقاضى كل مليم في الشرط الجزائي منه اذا لم أجدك هناك ، ولو أنه أنصت الى نصحي ، لما وثق بواحد منكم ، أيها الثعابين البحرية المراوغة •

فقال توم وهو واقف منتصب القامة :

ـ لم أكن قد تجاوزت الثامنة من عمري عندما وضعتك سيدتي الكبيرة بين ذراعي ولم تكن أنت قد أتممت العام الأول من عمرك ، وقد قالت لي « سوف يكون هذا يا توم سيدك الصغير •• حافظ عليه » • وأنا أسألك الآن ياسيدي ، هل أخلفت وعدي معك مرة ؟ أو هل خنت لك عهدا ولا سيما منذ أن أصبحت مسيحيا ؟

واشتد تأثر المستر شلبي ، وطفرت الدموع الى عينيه وقال :

ـ يا ولدي الطيب •• ان الله يعلم أنك لم تقل غير الحق ، ولو كان الأمر بيدي ، لما أمكن للعالم كله أن يشتريك •

وقالت المسز شلبى :

ـ وبقدر ثقتى فى أنى مسيحية ، أتعهد لك بأن تحرر بأسرع ما تسمح به الأحوال ٠٠

ثم مضت تقول للتاجر هالى :

ـ سيدى ٠ ٠أرجو أن تحسن اختيار من سيشتريه ، وأن تبلغنى بما يتم ٠

فقال التاجر :

ـ يا الهى ٠٠ نعم ٠٠ سوف أفعل هذا ٠ وربما أعود به بعد عام دون أن يكون أسوأ حالا ٠٠ وأبيعه اليكم مرة أخرى ٠

فقال المستر شلبى :

ـ وسوف ندفع لك الثمن عندئذ مع الفوائد ٠

فقال التاجر :

ـ طبعا ٠٠ كل شىء يتساوى لدى ٠ اننى أتاجر بهم هبوطا وارتفاعا ولهذا أنجح فى تجارتى ، وكل ما أسعى اليه هـــو أن أعيش ، كما تعرفين يا سيدتى ٠ وهذا ما يسعى اليه كل شخص على ما أعتقد ٠

وأحس كل من المستر شلبى وزوجته بالاستياء والمهانة بسبب صفاقة التاجر فى حديثه معهما بغير كلفة ، ولكنهما ، مع هذا ، كانا يريـــان شدة الحاجة الى السيطرة على مشاعرهما ٠ وكلما نمت تصرفاته عن القسوة وضيق أفق التفكير ، ازداد شعور المسز شلبى بالخوف من نجاحه فى اللحاق باليزا وطفلها ، وازدادت بطبيعة الحال رغبتها فى تأخيره بكل حيلة نســوية ٠ ومن ثم راحت تبتســـم له فى تلطف ، وتوافقه على ما يقول ، وتحادثه فى غير تكلف ، وتبـــذل كل ما فى وسعها لتجعل الوقت يمر سريعا دون أن يحس هو بذلك ٠

وفى الساعة الثانية أحضر سام وآندى الجياد الى مواضعها أمـــام

البيت وقد بدا عليها الانتعاش والحمية لكثرة ما عدت فى الصباح ٠

وقد أنعش الطعام من نفس سام فنمت تصرفاته عن حماسة كبيرة واستعداد لأداء أى عمل ٠ وبينما كان هالى يقترب منه كان هو يفخر لآندى بأسلوب كله زهو وخيلاء بما أصاب فى عمله من نجاح عظيم لا شك فيه ، وذلك بعد أن نال بغيته ٠ وقد قال له هالى وهــو يهم باعتلاء صهوة جواده وقد بدا عليه التفكير العميق :

ـ أظن أن سيدك لا يحتفظ هنا بكلاب !

فقال سام مزهوا :

ـ انه يحتفظ بالكثيرمنها، فها هو ذا برونوالكلب الصخاب٠وفضلا عن هذا فان كل زنجى منا يكاد يحتفظ بجرو من هذا النوع أو ذاك ٠

فقال هالى :

ـ ويحك !!

ثم أضاف اليها كلمات أخرى عن هذه الكلاب غمغم سام على أثرها قائلا :

ـ انني لا أرى جدوى من صب اللعنات عليها ٠

ـ ولكن سيدك لا يحتفظ بكلاب ـ وأنا أعرف تماما أنه لا يحتفظ بها ـ ليطارد بها العبيد الهاربين ٠

وكان سام يدرك على وجه التحديد ما يعنى ، ولكنه احتفظ بأمارات الاهتمام والبساطة التامة على وجهه وهو يقول :

ـ ان لجميع كلابنا حاسة شم جد قوية ٠ وأعتقد أنها من النــوع المنشود رغم أنها لم توضع موضع التجربة ٠ انها مع هذا كلابممتازة فى معظم الأحوال اذا بدأت فى اطلاقها لمهمة ما ٠٠

ثم نادى مصفرا للكلب برونو النيوفوندلندى البليــد الذى جــاء متواثبا نحوهما ٠ وعندئذ قال هالى وهو يركب ٠

ـ عليك اللعنة ٠٠ هلم اركب جوادك الآن ٠

وركب سام الجواد مطيعا وهو يدغدغ آندى أثناء ركوبه ٠ وانفجر آندى ضاحكا كالمعتاد ، مما أثار غضب هالى الذى حاول أن يهوىعليه بسوطه ٠

وقال سام للغلام فى جد تام :

ـ اننى مندهش منك يا آندى ٠ ان الأمر هنا خطير ، فلا ينبغى أن تجعل منه أضحوكة ، ان هذا لا يجدى مع السيد فى شىء ٠

وقال هالى بلهجة التأكيد بعد أن وصلوا الى حدود المزرعة :

ـ لسوف أتخذ الطريق المباشر الى النهر ٠ اننى أعرف ألاعيبهم جميعا ٠٠ انهم يشقون طريقهم،ان استطاعوا تحت الأرض ٠

فقال سام :

ـ بالتأكيد ٠٠ هذه هى الفكرة ٠ لقد أصاب السيد هالى كبد الحقيقة ٠ وللنهر طريقان ٠٠ أحدهما زراعى مترب ، والآخر عام ٠ فأيهما سيتخذه السيد ؟

ونظر أندى الى سام ببراءة وقد أدهشه أن يسمع هذه الحقيقة الجغرافية الجديدة ، ولكنه سرعان ما أمن على حديث سام فى تأكيد ويقين ، وعاد سام يقول :

ـ طبعا ٠٠ وأنا أرجح أن اليزا اتخذت الطريق الزراعى المترب لأنه أكثر وحشة وعزلة ٠

وكان هالى ماكرا عنيدا ينزع بطبيعته الى الشك فى مثل هذه الأحوال ، الا أن الحيرة استبدت به ازاء هذا التطور الجديد ، فقال وهو يعمل الفكر برهة :

ـ هذا اذا لم يكن كلاكما لعينا كاذبا ٠

وبدا أن نبرات الصوت التى تنم عن الحيرة والتفكير وهو ينطق

هذه الكلمات قد أبهجت أندى الى حد كبير ، فتراجع الى الوراء قليلا، وراح يهتز حتى خشى أن يسقط من فوق جواده ، بينما ظل سام محتفظا بكل أمارات الهدوء والجد على وجهه وهو يقول :

ـ طبعا ٠٠ ان فى مقدور السيد أن يفعل مايريد ٠٠ يستطيع أن يمضى فى الطريق العام اذا آثر هذا ٠ ان الأمر بالنسبة لنا سيان ٠ والآن وأنا أفكر فى الأمر ، أرى أن الطريق العام المباشر هو الأفضل بلا ريب ٠

فقال هالى وهو يفكر بصوت مسموع دون أن يحفل بملاحظة سام:

ـ انها على الأرجح اتخذت الطريق المنعزل ٠

فقال سام :

ـ ليس هذا بالأمر المحتوم ٠ فان للفتيات تفكيرهن الخاص ٠ انهن لا يفعلن أبدا ما تظن أنهن سيفعلنه، وانما العكس على الأرجح٠ لقد خلقت الفتيات عكسا لنا بطبيعتهن ٠ ولهذا فاذا خطر لك أن احداهن سارت فى طريق معين ، فمن المؤكد أنه يحسن بك المضى فى الطريق الآخر ، ومن المؤكد عندئذ أن تعثر عليها ٠ ورأيى الخاص الآن هو أن اليزا اتخذت الطريق الموحش المنعزل ، ولهذا يحسن بنا أن نمضى فى الطريق العام ٠

وبدا أن هذه النظرة العامة نحو تصرفات الجنس النسائى لم تحفز هالى بوجه خاص للمضى فى الطريق العام ، ومن ثم أعلن فى تصميم أنه سيتخذ الطريق الآخر ، وسأل سام عن الوقت اللازم للوصول اليه ، فقال سام وهو يغمز لأندى بالعين القريبة من رأس الغلام :

ـ انه يقع على مسافة قريبة الى الأمام ٠

ثم أردف قائلا بصوت جاد :

ـ ولكننى فكرت فى الأمر فوجدت أنه لا ينبغى أن نمضى فى ذاك

الطريق لأنى لم أتخذه يوما . انه طريق موحش جدا وربما ضللنا السير فيه ، والله وحده يعلم الى أين ينتهى بنا .

– لسوف نمضى فيه على كل حال .

– الآن وقد فكرت فيه ، أعتقد أنى سمعتهم يقولون ان ذاك الطريق مقطوع هنا وهناك بالدروب والأخاديد . أليس كذلك يا آندى ؟

وقال آندى انه غير متأكد ، وانما « سمعهم يقولون » شيئا عن ذاك الطريق ، ولكنه لم يمض فيه يوما . وكان موقفه، على الجملة ، سلبيا تماما .

وخطر ببال هالى الذى تعود الموازنة بين مختلف الأكاذيب الكبرى والصغرى أن من الأصوب اتخاذ الطريق السالف الذكر . لقد بدا له أن سام ذكر هذا الطريق عفوا فى أول الأمر ، وأنه من ثم حاول وهو مضطرب أن يغريه ، بمختلف الأكاذيب ، بعدم المضى فيه رغبة منه فى الحيلولة دون اللحاق باليزا .

ومن ثم عندما أشار سام الى الطريق المنعزل ، اندفع هالى اليه متبوعا بسام وآندى .

وكان الطريق ، فى الواقع ، قديما ، وكان من قبل مستعملا للوصول الى النهر ، ثم أهمل شأنه منذ سنوات بعد انشاء الطريق العام الجديد . وكان مفتوحا مسيرة ساعة بالجياد ، ولكنه كان بعد ذلك مقطوعا فى كثير من نواحيه بمختلف المزارع والحواجز . وكان سام يعرف هذه الحقيقة جيدا . بل ان الطريق ، فى الواقع ، كان مغلقا منذ أمد بعيد بحيث أن آندى لم يسمع به فى حياته . ولهذا كان يمضى مصطنعا الاستسلام والطاعة وهو يغمغم بين الحين والآخر بأن « الطريق شديد الوعورة ، وأنه قد يؤذى قدم الجواد جيرى » . ومن ثم قال له هالى :

– اننى أحذرك الآن . فأنا أعرفك . انك لن تجعلنى أنحرف عن

هذا الطريق بكل لغوك الفارغ · ومن ثم يحسن بك أن تسكت ·

فقال سام وقد بدت عليه امارات الخضوع والحزن وهو يغمز فى نفس الوقت لآندى الذى بلغ سروره عندئذ حد الانفجار :

ـ ليمض السيد حيث يشاء ·

وكان سام فى حالة معنوية رائعـــة ، يتظاهر بالبحث والمراقبـة بحمية ونشاط ، ولهذا كان أحيانا يهتف قائلا انه رأى « فتاة بقبعة» على قمة مرتفع بعيد ، وحينا يصيح بآندى « أليست هذه اليزا فى ذلك المنخفض » وكان ينطق بهذه العبارات دائما فى بعض الجوانب الغليظة الوعرة من الطريق حيث تكون السرعة المفاجئة غير ملائمـة بوجه خاص لجميع من يهمهم الأمر ، وهكذا يحتفظ بهـالى فى حالة اضطراب مستمر ·

وبعد الانطلاق ساعة على هذا النحو ، أخذ الجميع يهبطون منحدرا شديد الوعورة الى ساحة مخزن تابع لاحدى المزارع · ولم يكن ثمة مخلوق على مرمى البصر ، ذلك أن جميـــع العمـــال كانوا يعملون بالحقول : ولما كان المخزن قائما فى وضوح فى عرض الطريق ، فقد بدا بجلاء أن رحلتهم فى هذا الاتجاه قد وصلت الى نهايتها المحتومة ·

وقال سام فى لهجة البرىء المظلوم :

ـ أليس هذا ما قلته للسيد؟ كيف يمكن للسادة الغرباء أن يعرفوا عن منطقة ما أكثر مما يعرف أهلها المولودون والناشئون فيها !

فقال هالى

ـ أيها الشقى ! لقد كنت تعرف هذا كله من قبل ·

ـ ألم أقل لك أننى كنت أعرف ، ولكنك لم تصدقنى ؟ لقد قلت للسيد ان الطريق مقطوع ، ومغلق بالحواجز فى نواح كثـيرة ، ولا أتوقع السير فيه الى نهايته ، وقد سمعنى آندى وأنا أقول هذا ·

وكان هذا كله حقا لايحتمل الجدل ، فلم يسع الرجل المنحـوس

الا أن يكظم غيظه بقدر ما يستطيع من تلطف ، ثم توجه ثلاثتهم نحو اليمين ، ومضوا قدما نحو الطريق العام ٠

وكانت نتيجة هذه الأسباب المختلفة للتأخير ، أنهم وصلوا بعد ثلاثة أرباع الساعة من وقت أن وضعت اليزا ابنها فى الفراش لينام بخان القرية التى وصلها الجماعة راكبين ٠ وكانت اليزا واقفة فى النافذة تنظر فى الناحية الأخرى عندما لمحها سام بنظراته السريعة، وكان هالى وآندى على مسافة ياردتين وراءه ، ولكن سام استطاع فى هذا الموقف العصيب أن يدع قبعته تطير من فوق رأسه ، وأن يطلق صيحة عالية لها دلالتها ، ففزعت اليزا من ذلك لساعتها ، وتراجعت عن النافذة ، بينما مر الثلاثة منعطفين فى طريقهم الى باب الخان الأمامى ٠

وبدا كأن ألف حياة قد تركزت فى اليزا عندئذ ٠ وكان لغرفتها باب جانبى يفضى الى النهر ٠ فحملت ابنها ووثبت الدرجات المؤدية اليه ، ورآها التاجر فى وضوح وهى تختفى فى منحدر الشاطىء ، فنزل عن جواده مسرعا ، ونادى على سام وآندى بأعلى صوته ،وانطلق وراءها ككلب الصيد وراء ظبى ٠ وكانت قدماها فى تلك اللحظة المذهلة لا تكادان تلمسان الأرض ، ولهذا لم تمض الا لحظة حتى كانت عند حافة الماء ٠ ولكنهم كانوا وراءها مباشرة ٠ وبهذه القوة العارمة التى لا يهبها الله الا لليائسين ، اندفعت بصيحة عالية ووثبة طائرة فوق تيار الماء بالقرب من الشاطىء ، ووصلت الى طوف الجليدالمتراكم فى الجانب الآخر ٠ كانت وثبة قوية لا يقوم بمثلها الا مجنون أو يائس ، فلا عجب أن رفع هالى وسام وآندى أيديهم وصاحوا بغريزتهم وهم يرونها تقوم بها ٠

وتخلخلت قطعة الجليد الضخمة وتكسرت حين هبطت اليزا عليها بكل ثقلها ، ولكنها لم تبق عليها لحظة ، وانما أخذت فى صيحات وحشية ونشاط عارم تقفز من رقعة جليد الى أخرى ٠٠ انها تتعثر وتقع ٠٠ ثم تقفز ٠٠ ثم تنزلق ٠٠ ولكنها تعود وتقفز عاليا ٠ وضاع

حذاؤها ، وتمزق جوربها ، وكانت تترك آثارا من الدماء فى كـــل خطوة ، ولكنها لم تكن ترى شيئا ، أو تشعر بشىء ، حتى رأت فى غموض ، كأنها فى حلم ، شاطىء النهر الواقع على ولاية أهيو ،ورجلا يساعدها على تسلق منحدر الشاطىء ٠

وقال الرجل بأعلى صوته :

ـ تالله انك لفتاة شجاعة أيا ما تكونين ٠

وتعرفت اليزا على صوت ووجه الرجل الذى كان يمتلك مزرعة غير بعيدة عن بيتها القديم ، فقالت :

ـ أغثنى يا مستر سيمز ٠٠ أنقذنى ٠٠ أخفنى

فقال الرجل :

ـ ماذا ؟ ما هذا ؟ عجبا ٠٠ أليست هذه فتاة آل شلبى !

ـ ابنى ! هذا الطفل ٠ ؟ لقد باعه ! وها هو ذا سيده ـ

ثم أشارت الى شاطىء كنتكى وأردفت قائلة :

ـ أوه مستر سيمنز ٠٠ ان لك ابنا صغيرا ؟

فقال الرجل وهو يجذبها فى قوة لا تخلو من اشفاق فوق منحدر الشاطىء :

ـ نعم ٠٠ ان لى ابنا ٠ وفضلا عن هذا فانك فتاة غاية فى الشجاعة وأنا أحب الشجاعة حيثما أراها

ولما وصلا الى أعلى الشاطىء ، توقف الرجل وقال :

ـ انى ليسرنى أن أفعل لك شيئا ، ولكننى لا أجد مكانا أمضى بك اليه ٠ وخير ما أفعله هو أن أنصحك بالذهاب الى هناك ـ

ثم أشار الى منزل أبيض كبير كان يقوم على انفراد بعيدا عن شارع القرية الرئيسى ، وأردف قائلا :

ـ امضى اليه · فان أصحابه قوم رحماء ، وليس ثمة خطر يهددك الا أعانوك عليه ، فانهم أصحاب نخوة وشهامة فى مثل هذه الحالات ·

فقالت اليزا فى جد وحرارة :

ـ بارك الله فيك ·

ـ لا ·· لا داعى للشكر أبدا ·· ان ما فعلته لا يستحق الشكر ·

ـ انك يا سيدى لن تخبر أحدا بذلك بطبيعة الحال ·

ـ عجبا يا فتاة ! من تظنيننى ؟ طبعا لن أقول لأحد · هلمى الآن واذهبى كأية فتاة عاقلة كعهدى بك · لقد حصلت على حريتك ، وسوف تحتفظين بها أيا كان الأمر ·

وضمت الأم طفلها الى صدرها ، وسارت بسرعة وثبات ، بينما وقف الرجل يشيعها بنظراته ويقول لنفسه :

ـ قد يرى شلبى الآن أن ما فعلته لا يتفق مع حقوق الجوار · ولكن ماذا فى وسع الانسان أن يفعل ؟ فلو أنه أمسك باحدى فتياتى فى موقف عصيب كهذا فأنا لن أغضب اذا عاملنى بالمثل · وأيا كان الأمر ، فأنا لا أستطيع أن أرى مخلوقا آدميا يلهج ويلهث ويحاول أن ينقذ نفسه والكلاب تطارده ، دون أن أمد اليه يد المساعدة · وعدا هذا فأنا لا أدرى أى سبب فى الوجود يدعونى لأن أكون صائدا وقانصا لعبيد غيرى من الناس ·

هذا ما قاله ذلك الرجل الفقير الوثنى من أهل كنتكى ، الذى لم يتعلم شيئا من العلاقات الدستورية بينه وبين غيره من الناس ولهذا خرج عن مألوف عادتهم وفعل ما لا يفعلون · ولو أنه كان قد نال من التربية والاستنارة فوق ما نال لما فعل ما فعله فى هذا الموقف ·

وكان هالى واقفا فى مكانه وقد اعترته أشد الدهشة من هذا المنظر العجيب حتى اختفت اليزا وراء الشاطىء ، ثم استدار نحو

سام وآندى وقد بدت على وجهه امارات الاستفهام . وقال سام :

ـ ان هذه ضربة عملية عجيبه .

وقال هالى :

ـ ان فى داخل هذه الفتاة سبعة شياطين كما أعتقد . فلشد ما كانت تقفز كالقط البرى .

وقال سام وهو يحك رأسه :

ـ أرجو من السيد أن يعفينا من محاولة تعقبها عبر النهر ، فان حالتنا لا تسمح بخوض هذا الماء البارد .

ثم أرسل ضحكة غليظة جعلت التاجر يدمدم قائلا :

ـ أو تضحك ؟!

فقال سام وقد أطلق العنان لابتهاج نفسه الذى طال احتباسه :

ـ بارك الله فيك يا سيدى .. لم أستطع أن أكتم الضحك ! فقد كان منظرها عجيبا وهى تقفز وتثب ـ والجليد يصر تحت قدميها ، ألا ليتك سمعت صوت وثباتها ، وهى تقفز وتضرب الماء بقدميها .. يا الهى .. ما أعجبها وهى تنطلق !

وانطلق سام وآندى يضحكان حتى انحدرت الدموع على وجناتهما .

وقال التاجر وهو يهوى بسوطه على رأسيهما :

ـ لسوف أجعلكما تضحكان حتى يلتوى فماكما .

وراغ كلاهما من ضربة السوط ، وانطلقا الى أعلى الشاطىء وهما يصيحان ، وركبا جواديهما قبل أن يلحق بهما .

وقال سام فى وقار مصطنع :

ـ طاب مساؤك يا سيد ·· أتوقع جدا أن تكون سيدتى شديدة القلق على الجواد جيرى · ولا شك أنك يا سيدى لا تريدنا بعد هذا· فان سيدتى لن ترضى أبدا بمرورنا على الجياد فوق قنطرة اليزا هذه، الليلة ·

وبعد أن لكز جانب حصان آندى ، انطلق بجواده مسرعا ، متبوعا بالآخر ، وضجيج ضحكاتهما تحمله من بعيد أجنحة الريح ··

الفصل الثامن

نجاة اليزا

انسحبت اليزا وهي يائسة الى الضفة الأخرى من النهر في فترة بعد الغروب • وكانت ظلال المساء ترتفع ببطء من النهر وتطويها وهي تختفي فوق الشاطىء ، وكان التيار الزاخر العباب ، وكتل الجليد المتهاوية تنشىء سياجا منيعا بينها وبين مطاردها • ومن ثم عاد هالى متباطئا ساخطا الى الخان الصغير ليفكر من جديد فيما ينبغى أن يفعل • وفتحت المرأة له باب غرفة الاستقبال الصغيرة التى وضعت فيها سجادة قديمة ، والتى تقوم فى وسطها منضدة غطيت بمشمع أسود لامع ، ومقاعد خشبية عالية الظهور ، وكان ثمة صور زاهية الألوان من الجص فوق رف المدفأة التى كان الدخان الخفيف يتصاعد منها ، وبجوارها متكأ مستطيل من الخشب الصلد يمتد على طول الجدار ، وعلى هذا المتكأ جلس هالى يفكر فى اضطراب عن آمال بنى الانسان وسعادتهم بوجه عام •

وقال فى نفسه :

ـ ماذا كانت حاجتى الى هذا المخلوق الصغير الآن ! ولماذا أرهقت نفسى فى هذا السبيل كأى حيوان أحمق قدم ؟

وخفف هالى عن نفسه بتكرار مجموعة من العبارات العنيفة التى وجهها الى ذاته ، والتى لا نرى داعيا لذكرها وان كان لدينا أسباب قوية تحملنا على الاعتقاد بأنها صادقة •

وتنبه فجأة على صوت أجش مرتفع لرجل بدا أنه يترجل عن جواده عند الباب ، فهرول الى المائدة ثم قال :

ـ بحق الأرض ! أليس هذا أقرب ما يكون الى ما يقوله الناس عن العناية الالهية ! اننى أعتقد أن هذا توم لوكر ٠٠

واندفع هالى الى الخارج فرأى ، بالقرب من منصة الشراب في ركن القاعة ، رجلا قوى البنية ، مفتول العضلات ، كبير الحجم ، يبلـــغ طوله ست أقدام كاملة ٠عريض المنكبين بالنسبة لطوله ٠ وكان يرتدى سترة من جلد الجاموس ، شعرها من الخـــارج ، أضفت عليه منظرا عنيفا أشعث يتفق كل الاتفاق مع ملامح وجهه كلها ٠ وكانت كـــل قطعة من ملامحه وخلجات التعبير فى وجهه ورأسه تنم عن أبلغ مظاهر الوحشية والعنف الذى لا يعرف التردد ٠ والحق انه اذا استطـاع قراؤنا أن يتصوروا كلبا وحشيا يتخذ سمت الرجل ، ويرتدى قبعة وسترة ، فمن الممكن أن تكون لديهم فكرة عامة عن سمت هذا الرجل وتأثير منظره الطبيعى ٠ وكان يصحبه فى سفره زميل ، يختلف عنه تمام الاختلاف فى كثير من النواحى ٠ فقد كان قصيرا نحيلا ، مرنا ، يشبه القط فى حركاته ، تطل من عينيه السوداوين نظرات نفـــاذة ماكرة تتجاوب مع كل ملامح وجهه ، فان أنفه الرفيع الطويل يمتد كأنه ملهوف على تعرف طبيعة الأشـــياء عموما ، وشعره الأســود الخفيف بارز الى الأمام ، وكانت كل انفعالاته وحركاته تنم عن الحذر الشديد ٠ وملأ الرجل الضخم قدحا كبيرا الى نصفه من كحول بغير ماء وتجرعه دون أن يلفظ بكلمة ، ووقف الرجل القصير على أصابع قدميه وهو يميل برأسه تارة الى هذا الجانب وتارة الى ذاك ٠ وبعد أن تشمم كثيرا فى اتجاه مختلف الزجاجات ، طلب فى صوت رفيع مرتعد كأسا من الجلاب (*) ٠ وكان وهو يفعل هذا تبدو عليه سمات الحذر الشديد ٠ فلما صب له فى الكأس ، تناوله وراح ينظر اليـه فى رضى ، كرجل يرى أنه فعل ما ينبغى أن يفعل ، ثم شرع يحسوه متمهلا ٠

وقال هالى وهو يتقدم نحو الرجل الكبير ويمد اليه يديه ٠

Mint julep (*)

(*) شراب من اصل فارسى معناه ماء الورد (المترجم)

ـ منذا الذى كان يظن أن الحظ سيحبونى على هذا النحو ؟ عجبا يا لوكر ! كيف حالك ؟

وكانت الاجابة المهذبة هى :

ـ يا للشيطان ؟ ماذا أتى بك الى هنا يا هالى ؟

وتوقف الرجل المترقب الذى كان يسمى ماركس عن احتساء شرابه فورا ، ومد رأسه الى الأمام ، وتطلع فى خبث وحذر الى الوافد الجديد ، كما تنظر القطة أحيانا الى ورقة شجر جافة متحركة أو الى أى شىء آخر يغرى بالمطاردة ٠

وعاد هالى يقول :

ـ ان ما حدث الآن هو أسعد شىء فى الوجود كما أظن يا توم ٠ فأنا فى مأزق لعين ولابد لك أن تعيننى على الخروج منه ٠

فدمدم صاحبه قائلا :

ـ طبعا طبعا ٠٠ ان كل انسان يثق بأنك ـ حين تبتهج برؤياه ـ تنوى أن تستغله لأمر ما ٠ ما هى ورطتك الآن !

فقال هالى وهو ينظر فى ارتياب الى ماركس :

ـ ان لك صديقا هنا ٠٠ أهو شريكك !

ـ نعم ٠٠ انه معى حقا ٠٠ هذا هو يا ماركس الشخص الذى كان معى فى ناشيز ٠

فمد ماركس يدا طويلة نحيلة كأنها مخلب غراب أسود وقال :

ـ تسرنى معرفتك ٠٠ انك المستر هالى كما أعتقد ؟

ـ نعم يا سيدى ٠٠ والآن أيها السادة ، فما دمنا قد التقينا هذا اللقاء لحسن الحظ كما أرى ، فانى أعتقد أن على حق القيام بواجب التكريم فى هذه القاعة ٠٠

ثم وجه الحديث الى الساقى على منصة الشراب وأردف قائلا :

ـ هلم أيها الحيوان العجوز قدم لنا الماء الساخن والسكر ولفافات التبغ الكبيرة والكثير من الخمر القوية ، ولسوف نشرب حتى نسكر .

وعندئذ أوقدت الشموع وأضرمت النار فى المدفأة حتى تلظت ، وجلس أصحابنا الثلاثة الموقرون حول مائدة صف عليها كل ما ذكرناه من قبل مما تستلزمه زمالة توطدت وشائجها من قبل .

وبدأ هالى يسرد بصوت يستدر الشفقة ، متاعبه الفريدة ، وأغلق لوكر فمه وأخذ ينصت اليه فى انتباه قط عبوس . وأخذ ماركس ينقر على المائدة فى قلق ويمزج كأس البنش الأثير لديه ، ثم يرفع رأسه بين الحين والآخر ، ويكاد يدس أنفه وذقنه فى وجه هالى ، وهو متنبه أشد التنبه الى حديثه . وبدا أن مجمل هذا الحديث قد أبهج ماركس الى حد كبير ، لأنه هز كتفيه وجانبيه وهو صامت ، ولوى شفتيه وبدا عليه مظهر الابتهاج الشديد . وأخيرا قال لهالى :

ـ وهكذا ، اذن ، خدعت تماما .. ها ها ها .. لقد دبرت الخدعة باحكام أيضا .

وقال هالى فى اكتئاب :

ـ ان تجارتك فى الأطفال الصغار تثير الكثير من المشكلات فى مهنتنا .

فقال ماركس :

ـ لو أننا أنشأنا جيلا من الفتيات اللاتى لا يهتممن كثيرا بصغارهن اذن لوصلنا ،فى رأيى ، الى أعظم تقدم فى مهنتنا .

ثم ظاهر فكاهته بضحكة خفيفة ساخرة . وقال هالى :

ـ هذا رأيى . اننى لا أستطيع أن أفهم جدوى هذا . ان هؤلاء الصغار عبء ثقيل على أمهاتهم . وقد يخطر للمرء أن الأم ستفرح

بالخلاص من صغيرها ، ولكنها لا تفعل . وكلما ازداد عبء الصغير عليها ، وكلما كان لا يصلح لشيء ، ازداد تمسكها به .

وقال ماركس :

ـ قدم الى يا مستر هالى الماء الساخن .. نعم يا سيدى .. لقد عبرت تماما عما نشعر به جميعا . لقد حدث أن اشتريت ذات مرة فتاة ، عندما كنت مشتغلا بالتجارة ، وكانت فتاة مفتولة جميلة وعظيمة النشاط أيضا . وكانت لها ابنة صغيرة مريضة جدا . وكانت فتاة حدباء ، أو شيئا من هذا القبيل . وقد استطعت أن أجد رجلا رأى أن يغامر بتربية طفلة لن تساوى شيئا . ولم يخطر ببالى ، كما تعرف ، أن الفتاة ستتشبث بطفلتها ، ولكنك والله كان خليقا بك أن ترى ما حدث . عجبا .. لقد بدا لى أنها ـ فى الواقع ـ أشد اعتزازا بطفلتها لأنها مريضة ، وفظة الطباع ومرهقة لها . ولم تكن مصطنعة لهذا الشعور اصطناعا فقد أخذت تبكى عليها بحرقة ، وعاشت ذاهلة كأنما فقدت أحب الناس اليها . كان الأمر رهيبا حقا . يا الهى .. ليس ثمة قرار لعواطف النساء .

فقال هالى :

ـ وهذا ما حدث لى أيضا . ففى الصيف الماضى ، بيعت لى فتاة فى أدنى النهر الأحمر . فتاة ذات طفل يبشر بالربح . كانت له عينان براقتان بريق عينيك ، فلما جئت اليه فحصته لأتبينه فوجدته أعمى العينين . ولكننى لم أر بأسا فى أن أبيعه بأى ثمن . وقد استطعت أن أنجح فى بيعه ببرميل ويسكى صغير . ولما حاولت أن أنتزعه منها ، اهتاجت كالنمر . وكان هذا الأمر قد حدث قبل أن نبدأ فى رحلة العودة ، ولم أكن قد وضعت عبيدى كلهم فى السلاسل ، فماذا تظنها فعلت الا أنها وثبت على سطح بالة قطن ، كأنها قطة ، وانتزعت سكينا من أحد عمال الشحن ، وراحت تهدد بها كل من يقترب منها ، حتى اذا رأت أنه لا جدوى من المقاومة ، تلفتت حولها ، ثم اذا هى تلقى بنفسها وبطفلها رأسا فى الماء .. وقد غاصت به .. ولم تظهر بعد ذلك أبدا .

فقال توم لوكر الذى كان ينصت الى هذه الأحاديث فى اشمئزاز واضح :

ــ يا لخيبتكما معــا ٠٠ أؤكد لـكما أن فتياتى لا يفعلن مثــل هذا معى ٠

فقال ماركس بنشاط :

ــ أحق ٠٠ كيف تحصل على هذا النوع منهن ؟
ــ أحصل عليه ؟ عجبا ٠٠ اننى أشترى فتاة ، فاذا كان لها طفــل صغير يباع ، تقدمت اليها وهويت بقبضتى على وجههــا وقلت لها « اسمعى الآن ٠٠ اذا لفظت بكلمة واحدة ، فسوف أحطم وجهك ٠٠ اننى لن أسمع منك كلمة ٠٠ ولا أول حرف من كلمة أيضا » هذا ما أقوله لهن « ان هذا الصغير ليس ملكا لك ، وانما هو ملكى ،ولاشأن لك به اطلاقا ٠ ولسوف أبيعه فى أول فرصة ، فحذار أن ترتكبىمعى احدى الحماقات لهذا السبب والا جعلتك تتمنين لو أن أمك لم تلدك» وأؤكد لكما أن كل واحدة تدرك حق الادراك أنه لا جدوى من مقاومة رغباتى ٠ فأنا حين أظفر بهن أجعلهن أجبن وأخرس من السمك ٠ واذا حاورت احداهن أن تصيح ، فيا ويلها ــ

وعندئذ ضرب المستر لوكر المائدة بقبضة يده ليعــرب عن معنى حديثه ٠

وقال ماركس وهو يلكز هالى فى جنبه ثم يرسل ضحكة قصــيرة أخرى :

ــ هذا ما يمكن أن تسميه تأكيدا ٠ أليس توم فريدا فى نوعه ٠٠ اسمع يا توم ، أعتقد أنك أفهمتهم كل شىء ، ذلك بأن جميع رءوس الزنوج ذات شعر جعد ، وانهم من ثم لا يشكون أبدا فى حقيقــة ما تنتويه بهم يا توم ٠ فاذا لم تكن أنت الشيطان نفسه يا توم ، فأنت توأمه ٠٠ هذا ما أشهد به لك !

وتلقى توم هذه التحية فى شىء من الزهو اللائق به ، ثم أخذ يبدو

بشوشا بقدر ما كان يتفق مع « طبيعته المشاكسة » كما يقول جون بنيان ٠

وبدأ هالى ، الذى كان يسرف فى الشراب ، يحس بانتشاء وبازدياد قوة مواهبه الأدبية ، وهى ظاهرة مألوفة مع السادة ذوى الطبيعة الجادة المتأملة ، فى مثل هذه الظروف ٠ ثم قال :

ـ يا توم ٠ انك فى الواقع شرير جدا كما كنت أقول لك دائما ، وأنت تعرف يا توم أنك وأنا تعودنا أن نتحدث كثيرا عن هذه الأمور فى ناشيز ، وكثيرا ما أثبت لك أننا نربح كثيرا ، وأننا كأحسن ما يكون الناس فى هذا العالم طالما أننا نحسن معاملتهم ، هذا الى أننا تتاح لنا أحسن فرصة لدخول ملكوت السماء فى النهاية عندما تسوء الأمور الى أقصى حد فلا يبقى من نستطيع الحصول عليه كما تعلم

فقال توم وهو يجرع نصف كأس من البراندى غير الممزوج بالماء ٠

ـ ويحك ٠٠ ألا أعرف أنا ؟ لا تزد من اشمئزازى بما تقول ، فان معدتى ثائرة على بعض الشىء الآن ٠

وقال هالى وهو يتكىء بظهره على كرسيه ويلوح بيديه ليؤكد ما يقول :

ـ اسمع ٠٠ سأقول لك الآن اننى كنت أعنى دائما بأن أجمع من تجارتى المال بسرعة وبطريق مباشر كما يفعل غيرى من الرجال ٠ ولكن التجارة ليست كل شىء ، كما أن المال ليس هو كل شىء فى الحياة ، لأن لنا جميعا أرواحا ٠ ولن يهمنى الآن من يسمعنى وأنا أقول هذا ، ومن ثم أرى أنه يحسن أن أقول ما أريد ٠ اننى أومن بالدين ، وكنت قد قدرت ذات يوم ، عندما يشتد الأمر وتسوء الحال، أن ألجأ الى روحى والى الدين ، ولهذا لا أرى جدوى من ارتكاب آثام أكثر مما يجب ٠٠ ان الأمر يبدو لى غير معقول على الاطلاق ٠

فقال توم قول الرجل المزدرى :

ـ تلجأ الى روحك ! انك تحتاج الى نظر ثاقب لتعثر على روحك، وفر على نفسك كل هذا الجهد فى هذا الشأن • فلو أن الشيطـــان غربلك بغربال دقيق العيون لما وجد لروحك أثرا •

فقال هالى :

ـ عجبا يا توم ! انك لفظ غليظ • لماذا لا تقبل الأمر قبولا حسنا الآن ، عندما يتحدث اليك زميل ليدلك على ما فيه الخير لك •

فقال توم بغلظة :

ـ أمسك عن هذا اللغو الذى تثرثر به • فأنا أستطيع أن أحتمل أى حديث منك الا الحديث الدينى • فان هذا يقتلنى لساعتى •وفوق هذا ما هو الفارق بينى وبينك ! أهو أنك أشد اهتماماً بأمر عبيدك منى ، أم أنك أكثر منى عطفا عليهم ! انها لوضاعة حقيرة تامة أن تخدع الشيطان وتحاول انقاذ روحك ! ألست أدرك حقيقـــة أمرك ! ان التجاءك الى « حظيرة الدين » كما تسميها ، ما هو الا حيلة وضيعـــة فى نظر أى مخلوق • أتعقد الصفقات مع الشيطان وتدين له طوال حياتك ، ثم تحاول أن تهرب فى ساعة الحساب •• أف لك !

فقال ماركس :

ـ كفى •• كفى أيها السادة ، أقول ان هذا لا يتفق مع مصـــالح العمل • فان هناك كما تعلمون اختلافا فى وجهات النظر الى الأشياء• ان المستر هالى رجل لطيف بلا شك وان له ضميره الخاص • وأنت يا توم لك وسائلك ، وهى جد صالحة أيضا يا توم ، ولكن الجدال ، كما تعرف ، لا يحقق أى غرض • هلم نعمـــل معا • ماذا تريد الآن يامستر هالى ؟ أتريدنا أن نتولى القبض على فتاتك ؟

ـ ان الفتاة لا تهمنى ، انها فتاة شلبى ، أماالذى يهمنى فهو الطفل لقد كنت أحمق حين اشتريت هذا القرد •

فقال توم بغلظة :

ـ انك دائما أحمق :

فقال ماركس وهو يلعق شفتيه :

ـ هلم يا توم ٠٠ كف عن لذعاتك هذه ٠ ألا ترى أن المستر هالى يعهد الينا بمهمة طيبة ، ولهذا أرى أن تمسك لسانك ٠ ان وضع الترتيبات اللازمة هى مهمتى الخاصة ٠ كيف حـــال فتاتك هذه يا مستر هالى ٠٠ ؟ ما شكلها ؟

ـ انها بيضاء جميلة ٠٠ وحسنة التربية ٠٠ كنت مســتعدا أن أشتريها من شلبى بثمانمائة دولار أو بألف ، ثم أربح فيها بعد ذلك ٠

فقال ماركس وقد تحفزت لهذه المغامرة عينـــاه النافذتان وأنفه وفمه :

ـ بيضاء جميلة ٠٠ وحسنة التربية ٠ اسمع الآن يا توم ٠٠ هذه بداية طيبة ولسوف نقوم بهذه المهمة لحسابنا ٠ سنقبض على الفتاة ٠ وسنسلم الطفل الى المستر هالى طبعا ، ثم نأخذ الفتـــاة الى أورليانز لنربح منها ٠٠ أليس هذا رائعا ؟

وأغلق توم فجأة فمه الكبير الثقيل الذى كان فاغرا طـــوال هذه المحادثة ، كما يفعل الكلب على قطعة لحم ، وبدا كأنه يهضم هذه الفكرة متمهلا ٠

وقال ماركس لهالى وهو يقلب شراب البنش فى كأسه :

ـ أترى ٠٠ أترى : ان فى متناول أيدينا قضاة على طول الشاطىء يمكنهم أن يقفوا فى صفنا الى حد كبير ٠ فان توم هو الذى يقـــوم بالعراك والضرب ، وأنا أحضر المحاكمة للشهادة فى ثياب حسنة وحذاء لامع وكل شىء على ما ينبغى ٠ ولشد ما أود لو أنك رأيتنى

وأردف ماركس فى زهو المحترف قائلا :

ـ كيف أقوم بدورى على أكمل وجه ٠٠ فأنا يوما المستر توبكيم

من نيو أورليانز ، وفى يوم آخـــر شخص أتى من مزارعه عـلى نهر بيرل حيث يستخدم سبعمائة زنجى ، ثم أعود فأظهر فى شخصية ذات قرابة بعيدة بهنرى كلاى أو أى واحد من كبار الشخصـــيات فى كنتكى . ان المواهب تختلف كما ترى . فان تـوم يحسن الصخب والضرب فى المعارك ، ولكنه فى الكذب والادعاء غير بارع .. هذا هو توم . ان الكذب ليس من طبيعته ، ولكن ، يا الهى ، اذا كان هنـاك شخص فى هذا البلد يستطيع أن يقسم على أى شىء من أجل أى شىء ، وأن يسرد جميع الظروف فى مبالغة بوجه أكثر اكتئابا ، وأن ينجح فى هذا بطريقة أحسن ، فانى أحب أن أراه . هذا هو كل شىء . انى أعتقد فى صميم قلبى أنى أستطيع أن أفعل هذا كله بنجاح حتى لو كان القضاة أشد تزمتا مما هم بل انى أحيانا أود لو كان القضاة أكثر تزمتا .. فان الأمر عندئذ يحتاج الى براعة أكثر ، ويثير مرحا ومتعة أشد كما تعرف .

وهنا تدخل توم لوكر ـ الذى كان رجلا بطىء الحركة والتفكير كما أوضحنا من قبل ـ فقاطع ماركس بأن أهوى على المائدة بقبضة يده فى عنف ليزيد من تأثير حديثه ، وقال :

ـ لسوف أفعل هذا .

فقال ماركس :

ـ بارك الله فيك يا توم .. لا داعى لأن تحطم الأقداح كلها .. وفر قبضتك الى وقت الحاجة .

وقال هالى :

ـ ولكن . .ألا يجوز لى أيها السادة أن أشارك فى الأرباح ؟

فقال لوكر :

ـ ألا يكفى أننا سنظفر بالطفل من أجلك ! فماذا تريد ؟

فقال هالى :

ـ حسنا •• ما دمت أنا الذى قدمت لكما هذه الفرصة ، فان من حقى أن أنال شيئا ، وليكن نصيببى عشرة فى المائة من المصروفات •

فقال لوكر وهو يلعن ويسب أشد السباب ويضرب المائدة بقبضة يده الثقيلة ••

ـ اسمع •• ألا أعرفك يا دان هالى ؟ أتظن أن فى مقدورك خداعنا؟ أتعتقد أننى وماركس نمسك بفتاة هاربة لا لشىء الا لارضاء سيد مثلك دون فائدة لنا ؟ لا •• لا • لسوف نحتفظ بالفتاة ، وعليك أن ترضخ للأمر ، والا فسوف نحتفظ بالاثنين • فماذا يمنعنا أن نفعل ذلك ؟ ألم تعلمنا أنت هذه اللعبة ؟ انها مباحة لنا كما هى مباحة لك •• هذا ما أرجو • واذا أردت أنت أو شلبى مطاردتنا ، فانظر أين كانت طيور القطا فى العام الماضى ، فاذا عثرت عليها أو علينا ، فمرحبا بك •

فقال هالى وهو منزعج مرتاع :

ـ هذا حق لا شك فيه •• ليكن الأمر كما تقول •• أعد الطفل الى ، ولتكن الفتاة الثمن • لقد سبق أن تعاملت كثيرا معى يا توم ، وكنت دائما صادق الوعد •

فقال توم :

ـ أنت تعرف هذا ، وأنا لا ألجأ الى وسائلك المراوغة ، كما أننى لا أكذب فى حسابى مع الشيطان نفسه • ان ما أقوله هو ما أفعله •• نعم •• ما أفعله • وأنت تعرف هذا ياادان هالى !

فقال هالى :

ـ نعم •• نعم أعرفه حق المعرفة •• هذا رأيى يا تـوم •• فاذا وعدتنى بأن تأتينى بالطفل فى خلال أسبوع فى أى مكان تقترحه ، فهذا كل ما أريد •

فأجاب توم :

ـ ولكن ليس هذا كل ما أريد بل هو بعيد عنه كل البعد ٠ انك لا تظن أننى كنت أعمل معك فى مدينة ناشيز بلا أجر يا هالى ٠ لقد تعلمت كيف أمسك بثعبان السمك المراوغ حين أظفر به ٠ ان عليك أن تسلمنى مقدما خمسين دولارا نقدا ، والا فلن ترى وجه الطفل ٠ فأنا أعرفك ٠

فقال هالى :

ـ عجبا ! كيف تطالب بهذا وبين يديك ربح صاف مقابل هـذه العملية يبلغ ألف دولار أو ألفا وستمائة ٠ عجبا يا توم ٠٠ انك غير معقول ٠

فرد عليه توم قائلا :

ـ نعم ٠٠ ولكننا مرتبطان مقدما بأعمال ستستغرق من وقتنا خمسة أسابيع على الأقل ، ولنفرض أننا سنتخلى عن هذه الأعمال ونمضى لمطاردة الطفل وأمه بين الآجام ثم لم نظفر أخيرا بالفتاة ،لأنه من الصعب الظفر بالفتيات ، فماذا اذن ؟ هل ستدفع لنا بعدئذ قرشا ؟ أتفعل هذا ؟ اننى أرى أنك لن تفعله ؟ ٠٠ لا ٠٠ لا ٠٠ ادفع الخمسين دولارا فورا ، واذا نجحنا فى العملية وربحنا منها ،فسوف أعيد هذا المبلغ والا ، فسيكون تعويضا لنا عن متاعبنا ٠٠ هذا هو الانصاف ، أليس كذلك يا ماركس ؟

فقال ماركس فى لهجة التهدئة :

ـ طبعا ٠٠طبعا ٠٠ليس هذا المبلغ الا ضمانا للأتعاب، ها ها ها، فنحن كما تعرف من المحامين ، وعلينا أن نحتفظ جميعا برحابة الصدر ، وأن ننظر الى الأمور ببساطة ٠ لسوف يأتيك توم بالطفل فى أى مكان تحدده ، أليس كذلك يا توم ؟

فقال توم لوكر :

ـ اذا عثرت على الطفل ، فسوف أمضى به الى ولاية سنسناتى

وأتركه فى حانة « جوانى بلتشر » عند المرساة ٠

وتناول ماركس من جيبه مفكرة قذرة ، وأخرج منها قصاصة ورق مستطيلة ، ثم جلس ،وركز عليها عينيه السودواين النفاذتين ،وشرع يهمهم بمحتوياتها ويقول :

« بارنز ــ بمنطقة شلبى ــ الغلام جيم : ثلاثمائة دولار للقبض عليه حيا أو ميتا :

« ادواردز ــ ديك ولوسى ــ زوج وزوجة: ستمائة دولار ٠ الجارية بولى وطفلاها : ستمائة دولار حية أو ميتة »

ثم قال بعد أن توقف برهة :

ــ انني أراجع أعمالنا لأرى هل فى مقدورنا أن نقوم بهذه العملية الجديدة يا لوكر ، أرى أنه ينبغى استئجار آدمز وسبرنجر ليقتفيا أثر هذه الحالات كلها ٠٠ لقد سبق استئجارهما يوما ما لعمل كهذا٠

فقال توم :

ــ انهما سيطالبان بأجر كبير ٠

فقال ماركس :

ــ لسوف أعالج هذا الموضوع ٠٠ انهما حديثا عهد بهذهالعمليات، وأعتقد أن أجرهما سيكون بسيطا ٠

ثم عاد يقرأ من الورقة قائلا :

ــ ان لدينا ثلاثة أمرهم بسـيط ٠٠ وما علينا الا أن نقتلهم بالرصاص ، أو نقسم بأنهم قتلوا ٠ وأعتقد أن آدمز وسبرنجر لن يطالبا بأجر كبير على عمل كهذا ٠ أما الباقون فيمكن تأجيل أمرهم الى حين ٠

وبعد أن طوى الورقة ، أردف قائلا لهالى :

ـ ولنتناول الآن تفاصيل الموضوع . أتقول يا هالى انك رأيت هذه الفتاة حين وصلت الى الشاطىء الآخر ؟

ـ بالتأكيد .. رأيتها بوضوح كما أراك الآن .

فقال لوكر

ـ ورأيت رجلا يساعدها فى الصعود الى أعلى الشاطىء ؟

ـ بالتأكيد رأيته .

فقال ماركس :

ـ من المرجح جدا أنها أخذت الى مكان ما . ولكن أين هو ، هذه هى المشكلة . ما رأيك ياتوم ؟

فرد عليه توم :

ـ يجب أن نعبر النهر هذه الليلة بلا جدال .

ـ ولكن ليس ثمة قارب للعبور فى هذه النواحى . والجليديتراكم بسرعة ، أليس فى هذا خطر شديد يا توم ؟

فقال توم فى حزم :

ـ لا حيلة لنا فى الأمر .. ولا مفر لنا من القيام به

فقال ماركس وهو يتململ :

ـ ويحى .. ان الأمر سيكون كما أردت .

ثم سارالى النافذة وأردف قائلا :

ـ ان الليل مظلم كفم الذئب يا توم ، و ـ

ـ الخلاصة هى أنك خائف يا ماركس . ولكن لا حيلة لى فى هذا ، وعليك أن تمضى معى أو لعلك تريد الانتظار يوما أو يومين حتى تنقل الفتاة بقطار السكة الحديدية الذى يجرى تحت الأرض الى مدينة

ساندسكى أو غيرها قبل أن نبدأ البحث عنها !

فقال ماركس :

ـ لا لا ٠٠ اننى لست خائفا أبدا ٠٠ ولكن ٠٠ فقط ـ وكل ما فى الأمر ـ

فقال توم :

ـ كل ما فى الأمر ماذا ؟

فقال ماركس :

ـ ولنعد الى مسألة القارب ٠ انك لترى أنه لا وجـود لأى قارب هنا ٠

فقال توم :

ـ سمعت صاحبة الخان تقول ان قاربا سيصل الى هنا هذا المساء، وان رجلا ما سيعبر النهر به ، فأيا كان الأمر فسوف نمضى معه بلا ريب ٠

فقال هالى :

ـ أعتقد أن لديكما كلابا مدربة !

فقال ماركس :

ـ انها من الطراز الأول ٠ ولكن ما جدواها ٠٠ أفليس لديك شيء منها لتشمه الكلاب ؟

فقال هالى فى لهجة المنتصر :

ـ بل لدى ٠ هذا هو مطرفها الذى تركته على الفراش عندما أسرعت بالهرب ، وقد تركت قبعتها أيضا ٠

فقال توم :

ـ هذا من حسن الحظ ٠٠ هات الاثنين ٠

وقال هالى :

ـ ولكن ألا تمزق الكلاب الفتاة اذا أخذتها على حين غرة !

فقال ماركس :

ـ هذا محتمل ٠ فان كلابنا مزقت شخصا ذات مرة فى مدينـــة موبيل قبل أن تبعدها عنه

فقال هالى :

ـ حسنا ٠٠ أتعلم أن هذا لا يتفق مع فتاة سوف تبـــاع لجمالها وحسن مظهرها !

فقال ماركس :

ـ نعم ٠٠ أعلم ٠ وعدا هذا فاذا كانت الفتاة قد نقلت بعيدا ،فان الكلاب لن تصيبها بضرر ٠ ان الكلاب لا تجدى فى تلك الـــولايات الواقعة وراء النهر حيث يحمل اليها العبيد الفارون ٠ انها لا تنفع الا فى المزارع الواسعة حيث يضطر العبيد ، عند الهرب ، أن يعتمدوا على أنفسهم بلا مساعدة من أحد ٠

وقال توم لوكر بعد أن خطا الى منصة الشراب ليقـــوم ببعض التمرينات :

ـ يقولون أن الرجل وصل بالقارب ، ولهذا يا ماركس ـ

وألقى صاحبنا الموقر نظرات حزينة على المكان المريح الذى سيرحل عنه ، ولكنه نهض فى بطء ليطيع الأمر ٠ وبعد أن تبادل بضـــع كلمات بشأن المزيد من الترتيبات قدم هالى ، فى تململ واضح ، مبلغ الخمسين دولارا الى توم ، وافترق الثلاثة المبجلون فى تلك الليلة ٠

واذا كان أى واحد من قرائنا المهذبين المتدينين يعترض على هـــذه البيئة الاجتماعيـــة التى قدمناها فى هذا المنظر ، فنرجوه أن يحاول

السيطرة على أهوائه الى حين . واننا نرجو أن نذكره بأن عملية القبض على الهاربين كانت فى طريقها الى أن تصبح من العمليات القانونية الوطنية . واذا كانت الأراضى الشاسعة الواقعة بين نهر المسسبى والمحيط الهادى قد غدت يومذاك سوقا ضخمة تباع فيها الأجساد والأرواح وتشترى ، وتحتفظ الملكية الآدمية بكل مقومات التجارة الحرة فى القرن التاسع عشر ، فان التاجر وصياد الهاربين قد يعدان من طبقة الأشراف بيننا .

***

بينما كان هذا يجرى فى الخان ، كان سام وآندى يواصلان العودة الى البيت وهما مبتهجان أشد الابتهاج .

وكان سام فى أشد حالات النشوة ، ومن ثم راح يعبر عن انتشائه بكل أنواع الضجيج والصراخ ويأتى بحركات غريبة ويلوى كل جسمه فهو أحيانا يركب الجواد عكسيا ووجهه نحو ذيله وجنبيه ، ثم اذا هو يصيح صيحة عالية ويستدير عائدا الى مكانه متخذا سمت الجد والوقار ، ويشرع فى القاء محاضرة على آندى يؤنبه فيها على ضحكاته وحماقاته ، ثم اذا هو يضرب جنبيه بذراعيه وينفجر فى سلسلة من الضحك العريض الذى تردد صداه فى الغابات العتيقة وهما يمران خلالها . وقد استطاع بكل هذه الحركات أن يدفع الجياد الى الاستمرار فى السير بأقصى سرعتها حتى اذا كانت الساعة بين العاشرة والحادية عشرة سمع وقع أقدامهما على الممر المحصوب عند نهاية الشرفة وهرعت المسز شلبى الى السياج وهى تقول :

ــ أهذا أنت يا سام ؟ أين هم الآن ؟

ــ ان السيد هالى يستريح فى الحانة . انه متعب جدا ياسيدتى .

ــ واليزا يا سام ؟

ــ لقد استطاعت عبور الأردن ، اذا صح هذا التشبيه ، وأصبحت فى أرض كنعان .

فقالت المسز شلبى وهى تلهث ويكاد يغمى عليها عندما بدأت تدرك المعانى المحتملة التى تنطوى عليها هذه الكلمات :

ــ عجبا يا سام ؟ ماذا تعنى ؟

ــ ياسيدتى ٠٠ ان الله يحفظ المؤمنين به ٠ لقد عبرت اليزا النهر الى ولاية أهيو بأعجوبة كأنما حملها الله فى مركبة من النار وجوادين ٠

وكانت نوبة التدين تضطرم فى قلب سام دائما أمام سيدته ، ومن ثم راح يرسم بيديه فى الهواء عددا كبيرا من الاشـــــارات والصور الدينية ٠

وقال المستر شلبى بعد أن تبع زوجته الى الشرفة :

ــ تعال هنا يا سام ، وحدث سيدتك بما تسألك عنه ٠

ثم لف ذراعه على زوجته وأردف قائلا :

ــ تعالى يا اميلى ٠٠ تعالى ٠٠ انك ترتعدين من البرد ٠٠ وانك تنفعلين أكثر مما ينبغى ٠

ــ أأنفعل أكثر مما ينبغى ؟ ألست امرأة ؟ ألست أما ؟ ألسنا نحن الاثنين مسئولين أمام الله عن هذه الفتاة المسكينة ؟ يا الهى ٠٠ لاتكتب هذه الخطيئة فى كتابنا يوم الحساب ٠

ــ أية خطيئة يا اميلى ؟ لقد رأيت بنفسك اننا لم نفعــــل غير ما اضطررنا اليه ٠

فقالت مسز شلبى :

ــ ان شعورا رهيبا بالاثم يملأ نفسى رغم هذا ، ولست بقادرة على التحرز منه بمعرفة سببه ٠

وصاح سام وهو واقف تحت الشرفة :

ــ تحرك يا آندى ، أيها الزنجى ٠٠ وخذ هذه الجياد الى المربط ٠٠

ألا تسمع سيدك يناديك ٠

وسرعان ما ظهر سام ، وقبعته المصنوعة من خوص النخيـــل فى يده ، عند باب قاعة الاستقبال ، حيث قال له المستر شلبى :

ـ أخبرنا الآن بالدقة عما حدث يا سام ٠٠ أين اليزا ان كنت تعرف مكانها ؟

ـ لقد أبصرتها يا مولاى بعينى هاتين تعبر النهر فـــوق الثـلج العائم ٠ وكان عبورها يبعث على العجب الشديد ، بل انه لا يقل عن المعجزة ، ثم رأيت ، رجلا يساعدها فى الجانب الآخر ٠٠ بولايـة أهيو ، ثم اختفت فى الظلام ٠

فقال المستر شلبى :

ـ أعتقد يا سام أن ما تقوله غير صحيح ٠٠ أعنى أن معجزة عبـور النهر على الثلج العائم ليست بالأمر الذى يسهل القيام به ٠

فقال سام :

ـ يسهل القيام به ؟ من المحال أن يقوم شخص بمثل هذا العبور دون عون من الله ٠ ان ما حدث كان هكذا : كنا قد وصلنا ، المستر هالى وآندى وأنا ، الى الخان الصغير القائم على النهر ٠ وكنت متقدما بعض الشيء (لأنى كنت متحمسا للقبض على اليزا بحيث لم أستطع أن أتمالك نفسى) ٠ وعندما وصلت الى نافذة الخان ، رأيتهـا يقينا وبلا أدنى شك ، وكان آندى والسيد هالى مقبلين ورائى ، لقدأضعت قبعتى ، وأحدثت ضجة تكفى لاحياء الموتى ٠ وسمعتنى اليزا بطبيعة الحال ، وتراجعت الى الوراء ، ولما وصل السيد هالى الى البابالامامى كانت هى هرولت خارجة من الباب الجانبى فى طريقها الى شاطىء النهر ٠ ولمحها هالى وصاح بها ، وانطلقت معـــه وآندى وراءهـا ٠ وهبطت هى الى النهر الذى كان تياره القوى يندفع فى اتساع عشر أقدام بجانب الشاطىء ٠ وفى الجانب الآخر من الشاطىء المقابل كان ثمة رقع من الجليد المتحرك المتراكم الذى يشبه جـــزيرة عائمة ٠

ووصلنا بعدها مباشرة ، وأيقنت بروحى أنه ظافر بها لا محالة عندما أرسلت هى صيحة لم أسمع مثلها ، ثم اذا هى تطيرفوق التيار الدافق وتهبط على رقعة الجليد فى الجانب الآخر ، ثم استمرت تقفزوتصيح والجليد تحت قدميها ينكسر ويصر ٠٠٠ وظلت هى تثب كالغزال ٠٠ يا الهى ٠٠ اننى لأظن أن فى جسم هذه الفتاة نوعا من اللوالب لا مثيل له فى أجسام غيرها من الفتيات ٠

وكانت المسز شلبى جالسة فى سكون تام ، ممتقعة الوجه من فرط الانفعال بينما كان سام يسرد قصته ٠ وأخيرا قالت :

ـ حمدا لله انها لم تمت ٠٠ ولكن أين الطفلة المسكينة الآن ؟

فقال سام وهو يقلب عينيه دلالة على تقواه :

ـ ان الله سيرعاها ٠ فان ما حدث كما قلت ، نوع من العنايةالالهية ولا شك ٠ هكذا علمتنا السيدة دائما ٠ فان هناك أعوانا ينهضون لتحقيق ارادة الله ٠ ولولا مجهوداتى اليوم ، لأمكن اللحاق بها عشر مرات ٠ ألست أنا الذى أطلق الجياد فى هذا الصباح ، وحرص على تأخير مطاردتها حتى وقت الغداء ٠ وألست أنا الذى استدرج المستر هالى مسافة خمسة أميال بعيدا عن الطريق الرئيسى فى هذا المساء ، ولولا هذا للحق المستر هالى بها كما يلحق كلب الصيد بفريسته ؟ أليس هذا كله من أسباب العناية الالهية ؟

فقال المستر شلبى بقدر ما يستطيع من حزم فى هذه الظروف :

ـ انها نوع من العناية الالهية ، عليك أن تقتصد فيها بقدر ما تستطيع يا سيد سام فانا لا أسمح بمثل هذه الخدع تمارس مع السادة فى هذه الضيعة ٠

ان التظاهر بالغضب من الزنجى لا يفيد الانسان أكثر مما يفيده الغضب من الطفل ٠ فكلاهما يدرك بغريزته حقيقة الوضع وينفذ ببصيرته خلال كل المحاولات التى تبذل للوصول الى عكس هذه النتيجة ، ولهذا لم تفتر همة سام بأى حال من هذا الزجر رغم أنه

اصطنع مظهر الوقار والحزن ، ووقف وقد تدلى جانبا فمه كما يتدلى فم النادم المستغفر · ثم قال :

ـ ان السيد محق كل الحق ·· كل الحق ·· لا شك أنى أخطأت أشد الخطأ · فلا يجوز هنا أن نخالف النظام · وان سيدى وسيدتى لا يشجعان مثل هذه التصرفات بطبيعة الحال ·اننى مدرك لهذا ،ولكن زنجيا مسكينا مثلى يغرى أشد الاغراء على ارتكاب الأخطاء فى بعض الأحيان عندما يتعامل مع رجل ماكر مثل المستر هالى · انه ليس ، بأى حال ، من السادة المهذبين ، وكل من تربى مثل تربيتى يستطيع أن يدرك هذه الحقيقة بسهولة ·

فقالت المسز شلبى :

ـ ما دام يبدو أنك تشعر بأخطائك ففى وسعك أن تمضى الآن وتخبر العمة كلو أن فى مقدورها أن تقدم لك بعض اللحم البارد المتخلف من وجبة الغداء اليوم · فلا شك أنك وآندى جائعان ·

فقال سام وهو ينحنى فى خفة ورشاقة ، ثم ينصرف :

ـ ان سيدتى أشفق علينا مما نستحق ·

ومن الممكن أن يلاحظ ، كما سبق القول ، أن السيد سام متمتع بموهبة طبيعية كان يمكن بلا شك ، أن ترتفع الى الذروة فى المحيط السياسى · انها موهبة القدرة على الافادة من كل شىء يقع فى طريقه ليتخذ منه وسيلة للظفر بالثناء والمجد ، وبعد أن أدى دوره فى خشوع وخضوع الى الحد الذى أرضى سيده وسيدته كما يعتقد ، وضع قبعته المصنوعة من خوص النخيل على رأسه فى شىء من الزهو والاختيال ، ثم تقدم نحو منطقة العمة كلو ، وفى نيته أن يصول ويجول فى محيط المطبخ وهو يقول لنفسه :

ـ لسوف أبهر هؤلاء الزنوج ·· لقد أتيحت لى الفرصة الآن · يا الهى ·· لسوف أجعلهم يحدقون بأعينهم من فرط الدهشة ·

وينبغى أن نلاحظ ، أن من بين المتع الخاصة فى حياة سام ، أن

يمضى فى ركاب سيده الى مختلف أنواع الاجتماعات السـياسية ، حيث يأخذ ، وهو راقد على سياج أو جاثم فوق شجرة ، فى مراقبة الخطباء بكل ما يستطيع من حماسة ظاهرة ، حتى اذا هبـط بين مختلف زملائه المماثلين له فى لونه ، المجتمعين لهذا الغرض عينه ، راح يدهشهم ويبهجهم بكل أنواع التهريج المضحك والتقليد المتقن الذى يؤديه فى حماس ووقار عجيب • ومع أن الملتفين حوله مباشرة يكونون عادة من نفس لونه ، فان الاجتماع لم يكن يخلـو عادة من وجود ذوى البشرة الأكثر منهم بياضا ينصتون ويضحكون ويتغامزون فيمتلىء بذلك قلب سام غبطة ورضى عن نفسه •

وكان سام فى الواقع يرى الخطابة هى مهنته المستقبلة ، ومن ثم لم يكن يترك فرصة لتنميتها فى نفسه •

وكان بينه وبين العمة كلو ، منذ أمد بعيد ، نوع من الخصـومة المزمنة أو البرود المتبادل فى المعاملة ، ولكن سام وهو يفكر فى أمر الزاد والمؤن ـ وهو فى رأيه الأساس الضرورى لعملياته ، قرر فى هذه المرة أن يتلطف بقدر الامكان ، فقد كان يعرف حق المعرفة أن « أوامر السيدة » لابد أن تنفذ بحذافيرها •غير أنه كان عليه أن يبذل جهدا كبيرا فى اكتساب رضائها أيضا ، ولهذا ظهر أمام العمة كلو فى خضوع مؤثر ، تلوح عليـه سيماء المستسلم كأنه شخص لاقى أشد الصعاب بعطفه على انسان معذب فأخذ يفيض فى القـول ان سيدته أمرته بأن يتجه الى العمة كلو كلما أراد أن يعوض نقصه فى الطعام والشراب • وبهـذا اعترف بحقها فى السـيادة على قسم المطبخ وجميع ملحقاته وكل ما يتصل به •

ونجحت الخطة على هذا الأساس • وليس ثمـة ناخب بسيط مسكين يمكن أن يكتسبه أحد المرشحين السياسيين برعايته وتلطفه فى معركة الانتخـابات أيسر مما اكتسب سام العمة كلو بتلطفـه ودماثة أخلاقه ، ولو أنه كان ابنا عزيزا عليها ، لما ظفر منها بكل هذا العطف الأموى الجارف • وسرعان ما جلس سعيدا منتعشا بجانب

اناء ضخم يحوى كميات من كل الأطعمة التى ظهرت على المائدة منذ يومين أو ثلاثة : شرائح من اللحم البارد المذيذة ، وقطع من الفطائر الذهبية اللون وبقايا كعك له هيئة جميع الأرقام الحسابية المعروفة ، وأجنحة الدجاج و « القوانص » و « أفخاذ الدجاج » .. كلها وضعت مختلطة بعضها ببعض اختلاطا جميل الصورة ، وجلس سام كأنه ملك على هذا كله ـ والقبعة الخوص مائلة على جانب رأسه ، وأندى جالس عن يمينه وفى حماه .

وكان المطبخ مزدحما بكل زملائه الذين أسرعوا أو تجمعـــوا من مختلف أكواخهم ليسمعوا نهاية مغامراته فى ذلك اليوم . وحانت الآن ساعة مجد سام . فشرع يسرد قصة اليوم بكل أنواع الزخارف والمحسنات التى تستلزمها زيادة التأثير . ذلك لأن سام لم يكن يسمح بأن تفقد أية قصة شيئا من بهجتها اذا ما رواها هو شأنه فى ذلك شأن الرواة السائرين على النمط الحديث .

وكان ضجيج الضحك يصاحب السرد ويردده ويطيل زمنه جميع الزملاء الصغار الجالسين فى المطبخ أو الجاثمين فى كل ركن . بيد أن ســـام كان يحتفظ بوقاره وثبـــاته فى خضم هـــذا الضجيج والضحك ، وان كان يدير عينيه بين الحين والآخر ، مرســـلا الى مستمعيه نظرات مازحة هازلة دون أن يقصر فى روعة حديثه .

وقال سام وهو يرفع بكل ما أوتى من نشاط ســاق ديك رومى الى فمه :

ـ أترون يا بنى وطنى .. أترون ماذا فعلت للدفاع عنكم جميعا ؟ نعم .. من أجلكم جميعا . ذلك لأنه وهو يحاول الظفر بواحد منا ، فكأنما يحاول الظفر بنا جميعا . انكم ترون أن المبدأ واحد .. وهذا أمر واضح . انه واحد من هؤلاء النخاسين الذين يأتون هنا يتشممون لشراء أى فرد منا ، ولكنه وجدنى عقبة فى طريقه . فأنا الشخص الذى سيسوى حسابه معه . وأنا الشخص الذى عليكم أن تلجـأوا اليه أيها الاخوان . فأنا الذى سيدافع عن حقوقكم .. سأدافع عنها الى النفس الأخير .

فقال آندى :

ـ عجبا ٠٠ ولكنك يا سام قلت لى فى هذا الصباح انك سوف تساعد السيد هالى فى القبض على اليزا ٠ وان هذا ـ كما يبدو لى ـ لا يتفق مع قولك ٠

فقال سام فى تعال شديد :

ـ لسوف **أقول** لك الآن يا آندى ٠ يحسن بك ألا تهرف بما لا تعرف ٠ فان الغلمان أمثالك حسنو النية حقا ، ولكن لا ينتظر منهم أن يدركوا الحقائق عن بواطن الأمور ٠

وبدا على آندى الاحساس بالزجر ، ولا سيما بعد أن سمع العبارة الأخيرة القاسية التى بدا أن الزملاء الصغار فى الجمع قد رأوها حاسمة للموضوع ، ثم واصل سام حديثه قائلا :

ـ انه الضمير يا آندى ٠ فعندما فكرت فى الذهاب وراء اليزا ، لم أكن أتوقع أن السيد يريد هذا ٠ ولما علمت أن سيدتى تريد العكس، أى عدم اللحاق باليزا ، ازداد احساسى بيقظة الضمير ٠ لأن بنى جنسنا قد تعودوا دائما أن يقفوا بجانب سيدتهم ، ومن هذا ترى أنه كان على أن أثبت فى أحد الطرفين ٠ ولكنى أرضيت ضميرى ، وتمسكت بمبادئى ٠٠ نعم بمبادئى ٠

وبعد أن دس فى فمه قطعة من عنق دجاجة بحماسة شديدة ٠ واصل حديثه قائلا :

ـ ما جدوى المبادىء اذا لم نتمسك بها ، هذا ما أريد أن أعرفه ؟ ها ٠٠آندى ٠٠ يمكنك أن تأخذ هذه العظمة التى أكلت كل ما عليها٠

ولم يسع سام الا أن يواصل حديثه حين رأى المستمعين متعلقين بكلماته وقد فغروا أفواههم ، فقال كأنه يقتحم موضوعا هاما :

ـ ان موضوع الثبات على المبدأ أيها الزملاء الزنوج ، انما هو كما

يبدو موضوع غير واضح كل الوضوح فى نظر الكثيرين ، وكما ترون الآن عندما يقف شخص بجانب شيء يوما ، ثم يفعل عكسه يوماآخر، يقول الناس (ومن الطبيعى أن يقولوا) لماذا لا يثبت على موقف واحد • ناولنى تلك القطعة من الفطير يا آندى • ولكن هلم نستعرض حقيقة الأمر • وأنا أرجو من السادة والجنس اللطيف ، أن يلتمسوا لى العذر وأنا أستخدم هذا النوع العادى من المقارنة • فأنا هنا أحاول أن أصل الى قمة تلك الكومة من الدريس •• اننى أضع السلم على هذا الجانب ••ولكنه لا يصل بى الى ما أريد ، ولست أحاول أن أبذل أكثر مما بذلت ، ولكننى أضع السلم على الجانب الآخر •• فهل أنا عندئذ متقلب أو ثابت على رغبتى فى الوصول الى قمة الدريس عن طريق أى جانب •• ألا ترون جميعا ما أعنى ؟

فغمغمت العمة كلو قائلة :

ـ علم الله ان هذا هو الشيء الوحيد الذى ثبت عليه •

وكانت قد بدأت تشعر بالتبرم بعد الضحك الذى أعقب هذه المقارنة ، ثم أردفت قائلة :

ـ كالخل على النطرون •

فقال سام وهو ينهض عن الطعام ممتلئا مبتهجا ليحسن ختام حديثه

ـ نعم •• حقا ! نعم يا زملائى المواطنين ، ويا سيداتى من الجنس الآخر عموما • ان لى مبادئى ، وانى فخور بها • انها صالحة لهذه الأيام ، ولكل الأيام • ان لدى مبادئى وأنا متمسك بهامصر عليها • وانى لأتمسك بكل شيء أعتقد أنه مبدأ • ولن يهمنى شيء بعد هذا ولو أحرقونى حيا • فان فى مقدورى أن أسير الى مكان الحريق بثبات وأقول هأنذا قد جئت لأسفك دمى من أجل مبادئى ، ومن أجل وطنى ، ومن أجل الصالح العام للمجتمع •

فقالت العمة كلو :

ــ ان أحد مبادئك يحتم عليك الآن أن تمضى الى فراشك لتنــام بعض الوقت هذه الليلة . وألا تحجز كل شخص حتى الصباح .. وعلى كل من يريد أيها الصغار ألا يضرب ، أن يسرع الى فراشه .

ولوح سام بقبعته الخوصية فى وداعة وتلطف قائلا :

ــ أيها الزنوج جميعا .. انى أمنحكم بركاتى .. اذهبوا الى أسرتكم الآن ، وكونوا أولادا صالحين .

وبهذه البركة المؤثرة ، تفرق الجمع ..

الفصل التاسع

وفيه يبدو أن عضو مجلس الشيوخ ليس الا انسانا

كان ضوء نار يتألق على البساط والطنفسة في قاعة الاستقبال المريحة الأنيقة ، ويلتمع على جوانب أقداح الشاى وابريقه المصقول ويبعث البهجة في النفوس ، وذلك عندما كان بيرد « عضو مجلس الشيوخ الأمريكى » ينضو عنه حذاءه تمهيدا لدس قدميه فى خف جميل جديد كانت زوجته قد صنعته له خلال جولته فى دائرته الانتخابية . وكانت المسز بيرد ـ التى بدت صورة مجسمة من البهجة ـ تشرف على ترتيب المائدة ، وتلقى بين لحظة وأخرى بملاحظاتها الى عدد من الصغار الذين كانوا يلعبون حولها ويقومون بكل أساليب الخبث والوثب التى طالما أدهشت الأمهات منذ أيام الطوفان .

ـ توم .. دع مقبض الباب وشأنه .. كن رجلا ! مارى ! لا تشدى ذيل القطة .. بوسى المسكينة أيتها القطة ! لا ينبغى أن تصعدى على تلك المائدة .. لا .. لا .. !

ثم قالت لزوجها أخيرا حين استطاعت أن تجد فسحة من الوقت قصيرة :

ـ انك لا تعرف يا عزيزى مدى دهشتنا اذ نراك هنا الليلة !

ـ نعم .. نعم . لقد خطر لى أن أعرج عليكم وأمضى الليلة معكم وأنعم ببعض الراحة المنزلية . فانى أكاد أموت من الارهاق ، كما أشعر بصداع !

وألقت المسز بيرد نظرة على زجاجة من زيت الكافور فى الخزانة نصف المفتوحة وبدا عليها أنها تفكر فى الاقتراب منها ، ولكن زوجها اعترض قائلا :

ـ لا لا يا مارى ٠٠ لا أريد دواء ! ان قــــدحا من شايك الدافىء العذاب ، وبعض المأكولات البيتية الشهية ، هما كل ما أريد ، ان مهمة التشريع هذه لمهمة شاقة ٠

وابتسم الشيخ كأنما أعجبه أن يرى نفسه ضحية لوطنه ٠ وقالت زوجته بعد أن خفت بعض الشىء عمليــة الاشراف على اعــداد مائدة الشاى :

ـ وماذا كانوا يفعلون فى مجلس الشيوخ ؟

ولم يكن من المعتاد أبدا أن تشغل المسز بيرد رأسها الرقيق بما يجرى فى مجلس الشيوخ ، فقد كانت ترى ـ بحكمة ـ أن لديهــا ما يكفى من الشواغل الخاصة ، ولهذا فتح المستر بيرد عينيه مندهشا وقال :

ـ لم يكونوا يفعلون شيئا كبير الأهمية ٠

ـ ولكن هل حق أنهم يقترحون سن قانون يمنع الناس من تقديم اللحوم والمشروبات الى أولئك الملونين المساكين الذين يأتون الينا ؟ لقد سمعت أنهم يتحدثون عن قانون كهذا ٠ ولكنى أعتقد انه لا يوجد مجلس تشريعى فى بلد مسيحى يوافق عليه ٠

ـ عجبا يا مارى ٠٠ انك بدأت فجأة تصبحين سياسية ٠

ـ كلا ٠٠ اننى لا أهتم قلامة ظفر بجميع سياستك العامة ٠ ولكننى أرى أن هذا القانون المقترح قاس وخال من كل رحمة ٠ وأنا أرجو، يا عزيزى ، ألا يكون هذا القانون قد ظفر بالموافقة ٠

ـ لقد سن قانون يحرم على الناس تقديم أية مســـاعدة للعبيد الهاربين من ولاية كنتكى يا عزيزتى ، ذلك أن هذه الجماعة المتهـورة التى تنادى بالغاء الرق قد قامت بنشاط واسع أثار ثائرة اخواننا فى ولاية كنتكى ، وقد بدا من الضرورى أن من الواجب على الدولة عمـل شىء لتهدئة الحالة وأن هذا العمل لا يتنافى مع الشـــفقة والمبــادىء المسيحية ٠

ـ وما هو القانون ؟ انه لم يمنعنا من ايواء هؤلاء البائسين ليلة ، أليس كذلك ؟ أو من تقديم شيء من الطعام اليهم ، وقليل من الملابس القديمه تم صرفهم في هدوء الى حال سبيلهم ٠

ـ عجبا ٠ طبعا يا عزيزتي ٠ ان هذا العمل يعد مساعدة لهم على الهرب ، كما تعرفين ٠

وكانت مسز بيرد سيدة وديعة خجولا ، ضئيلة الجسم يبلغ طولها نحو أربع أقدام ، ذات عينين زرقاوين هادئتين ، وبشرة خوخية اللون ناعمة ، وأعذب وأرق صوت في العالم ٠ أما عن الشجاعة فقد عرف أن ديكا روميا متوسط الحجم جعلها تصرخ عند أول كركرة منه ، وان كلبا منزليا متوسط المقدرة يمكن أن يذلها اذا ما كشر عن أنيابه ٠ وكان زوجها وأولادها هم عالمها كله ، وكانت تمارس سيطرتها عليهم بالرجاء والاغراء أكثر مما تفعل بالأمر والنقاش ٠ ولم يكن ثمة غير شيء واحد يمكن أن يثيرها ، وترجع هذه الاثارة الى طبيعتها المفرطة في الرقة والعطف فان شيئا من القسوة أيا كان نوعها يمكن أن يثيرها اثارة تزداد ترويعا وغموضا بقدر ما في طبيعتها من رقة ، وهي بوجه عام أكثر الأمهات تسامحا مع أبنائهن وأكثرهن قبولا للرجاء ، ولكن أولادها لا ينسون أبدا ذلك العقاب العنيف الذي أنزلته بهم حين تبينت أنهم اشتركوا مع عدد من أولاد الجيران القساة في رجم قطيطة عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، ولكن تذكرهم هذا ممزوج بالكثير من الاحترام ٠

وقد تعود السيد بيل أن يقول :

ـ سوف أقول لكم ما حدث ٠ لقد روعت في ذلك الوقت ٠ فان أمي اندفعت نحوي حتى حسبتها فاقدة العقل ٠ وقد ضربت بالسوط ودفعت الى الفراش بلا عشاء قبل أن أعرف سبب هذا كله ٠ ثم سمعت أمي بعد ذلك تبكي خارج الباب وأحسست لذلك أني أسوأ من سائر اخوتي ٠ ولهذا فنحن يا أولاد ، لم نضرب بالحجارة قطة منذ ذلك الحين ٠

أما في هذه الحالة التي نتحدث عنها فقد نهضت المسز بيرد بسرعة

وقد احمرت وجنتاها فحسن لذلك منظرها العام ، وتقـــدمت نحو زوجها فى حزم تام وقالت وقد بدت العزيمة فى نبراتها :

ــ اسمع يا جون ٠٠ أريد أن أعرف الآن ، هل ترى هذا القانون حقا ومتفقا مع مبادىء الدين المسيحى ؟

ــ انك لن تقتليني رميا بالرصـــــاص يا مارى اذا قلت انى أراه كذلك ٠

ــ لم يخطر ببالى أبدا أن هذا هو رأيك يا جون ٠ انك لم تقترع عليه أيام الانتخاب ٠

ــ بل وافقت يا حسنائى السياسية ٠

ــ كان ينبغى أن تخجل من نفسك يا جون ٠ يا للبائسين المشردين المساكين ، انه لقانون مخجل ، شرير ، بغيض ٠ وسوف أعمل عـلى تحطيمه اذا ما أتيحت لى الفرصة وأنا أرجو أن تتاح هذه الفرصة لى ٠ نعم لقد بلغت الأمور غايتها من السوء اذا لم يكن فى مقدور امرأة أن تقدم عشاء دفئا وفراشا الى خلائق آدميين بائسين جائعين لا لشىء الا لأنهم عبيد ، ولأنهم عاشـــوا طوال حيـــاتهم مضطهدين محتقرين ، فيا للمساكين ٠

ــ ولكن أنصتى الى يا مارى من فضلك ٠ انك محقة كل الحق فى مشاعرك ، وأنا أحبك لهذا السبب ٠ ولكن لا ينبغى يا عزيزتى أن نترك مشاعرنا تتحكم فى تقديرنا للأمور ، وعليـــــك أن تدركى أن الموضوع لا يتعلق بالمشاعر الفردية ، فهو يشمل مصالح عـــامة لها خطرها ، فان الرأى العام مهتاج اهتياجا يوجب علينا أن نصرف النظر عن مشاعرنا الخاصة ٠

ــ اسمع يا جون ٠٠ اننى لا أعرف شيئا عن السياسة ، ولكن فى مقدورى أن أقرأ الكتاب المقدس ، وقد قرأت فيه أنه ينبغى اطعـــــام الجائع وكسوة العريان ومواساة المسكين ، وأنا أنوى اتباع ما فى هذا الكتاب المقدس ٠

ــ ولكن اذا كان عملك هذا يسبب ضررا كبيرا للمجتمع ٠

ـ ان طاعة الله لا يمكن أن تصيب المجتمع بالضرر ، انها لن تصيبه بضرر قط . فان أسلم الأمور دائما . وفى كل الأحوال ، أن نفعل ما يأمرنا به الله .

ـ أنصتى الآن يا مارى الى وفى استطاعتى أن آتيك بحجج مقنعة لأبين لك ـ

ـ لا .. يا جون . ان فى مقدورك أن تتحدث طوال الليل ولكنك لن تستطيع أن تقنعنى . وانى أقولها لك يا جون ـ هل تطاوعك نفسك على أن تطرد الآن عن بابك مخلوقا بائسا ، جائعا يرتعد جسمه من البرد لأنه هارب . هل تطاوعك نفسك الآن على هذا ؟

والآن اذا أريد قول الحق ، فان صاحبنا عضو مجلس الشيوخ ، كان لسوء حظه رجلا يمتاز بطبيعة انسانية رحيمة ، وان طرد أى شخص فى محنة ، لم يكن يخطر بباله أبدا . ومما زاد الأمر سوءا بالنسبة له حين وصلت المناقشة الى هذا المأزق ، أن زوجته كانت تعرف هذه الحقيقة عنه ، وانها بطبيعة الحال ، كانت تهاجم هذه النقطة التى لا يمكن الدفاع عنها . ومن ثم راح يلجأ الى الوسائل المعتادة لاكتساب الوقت فى مثل هذه الظروف ، فتنحنح ثم سعل بضع مرات ، ثم تناول منديل جيبه وراح يمسح زجاج منظاره ، ولما رأت المسز بيرد حالة الانهيار فى حصون الدفاع بميدان العدو ، لم يسعها الا أن تواصل الاستفادة من الموقف فى سبيل النصر ، فقالت:

ـ أتمنى لو أراك تفعل هذا يا جون ـ أتمنى هذا حقا . أتمنى أن تطرد امرأة من دارك فى خضم زوبعة ثلجية مثلا ، أو أن تزج بها الى السجن . أليس كذلك ؟ ان فى مقدورك أن تبلغ كل النجاح فى هذا الشأن .

فبدأ المستر بيرد يقول بصوت معتدل كل الاعتدال :

ـ طبعا سيكون هذا واجبا مؤلما أشد الألم .

ـ واجب يا جون . لا تنطق بهذه الكلمة . فأنت تعرف أن هذا ليس واجبا ، ولا يمكن أن يكون واجبا . فاذا أراد الناس منع عبيدهم

من الهرب ، فليحسنوا معاملتهم • هذا هو مبدئى • فاذا كان لدى عبيد ـ وأرجو ألا يحدث هذا أبدا ـ فانى سأتعرض كما يتعرض غيرى من الناس لرغبتهم الهرب منى ، أو منك أيضا يا جـــون • ولكنى أقول لك ان الناس لا يهربون عندما يكونون سعداء • فاذا هربوا ، ويا لهم من مساكين ، فحسبهم ما يعانون من البرد والجوع والخوف دون أن يعاديهم الناس جميعا • وسواء وجد هذا القانون أو لم يوجد ، فانى لن أفعل هذا بهم ، والله على ما أقول شهيد •

ـ يا مارى •• يا مـــارى •• يا عزيزتى •• دعينى أجابهـــك بالمنطق •

ـ اننى أكره المحاجة يا جون ، لا سيما المحاجة فى أمثـال هــذا الموضــــوع • فان لديكم يا معشر الســـياسيين طريقتكم فى اللف والدوران حول الشىء الواضح البين ، ثم اذا أنتم لا تؤمنون به عندما يوضع موضع التجربة العملية • فأنا أعرفك تماما يا جون • فأنت لا تؤمن بصواب هذا القانون أكثر مما أومن أنا به ، وأنت لن تعمل به أسرع مما أعمل أنا •

وفى هذه الفترة الحرجة ، أطل برأسه من الباب العجوز كادجو الزنجى الذى يقوم بكل الأعمال وقال « هل يمكن لسيدتى أن تأتى الى المطبخ » وأنقذ هذا صاحبنا عضو الشيوخ الى حد ما ، فأخذ يتابع زوجته بنظرات مليئة بمزيج غريب من الغضب والسرور ، ثم جلس على مقعد ذى متكأ وشرع يقرأ الصحف •

ولم تمض الا لحظة حتى سمع صوت زوجته لدى الباب وهى تقول فى سرعة ولهفة :

ـ جون • جون • اننى أريد أن تأتى الى هنا لحظة •

فألقى بصحيفته ومضى الى المطبخ ، وما كان أشد دهشته من المنظر الذى بدأ أمامه ، فقد أبصر امرأة صغيرة نحيلة الجسم ، ممزقة الثياب ، تكاد تتجمد أطرافها من البرد ، فقد أحد نعليها ، وتمزق جوربها عند القدم الجريحة الدامية ، وقد وضعت على ظهرها فى اغماءة شـديدة فوق مقعدين ، وكان على وجهها طابع الجنس المزدرى المهـين ، ولكن

أحدا لا يستطيع الا أن يدرك ما فيه من جمال حزين يشعر بالعطف والشفقة ، هذا بينما كان وجهها الحاد الجامد ومظهرها الفاتر يبعثان الرجفة والاكتئاب فى جسم عضو الشيوخ ٠٠ وجذب أنفاسه لاهثا ، ووقف صامتا ٠ وكانت زوجته ، وخادمتها الملونة ، وحيدة ـ العمة دينا مشغولتين بأعمال الاسعاف ، بينما وضع العجوز كادجو الطفل على ركبتيه وراح يخلع نعله وجوربه فى سرعة ويدلك قدمى الصغير الباردتين ٠

وقالت العجوز دينا فى عطف واشفاق :

ـ أليس هذا منظرا مثيرا الآن ؟ يبدو كأن الحرارة هى السبب فى اغمائها ، لقد كانت طبيعية الى حد ما عندما جاءت وسألت هل يمكنها أن تستدفىء قليلا ٠ وكنت قد بدأت أسألها من أين جاءت عندما سقطت مغشيا عليها ٠ وأعتقد أنها لم تقم أبدا بأعمال شاقة ، كما يبدو لى من منظر يديها ٠

فقالت مسز بيرد فى عطف حينما أخذت الفتاة تفتح ببطء عينيها السوداوين الكبيرتين وتنظر اليها نظرة جوفاء :

ـ يالها من مخلوقة مسكينة ٠

ثم ارتسمت على وجهها فجأة أمارات الألم الشديد ، فوثبت واقفة وهى تنادى :

ـ آه يا ولدى هارى ٠٠ هل ظفروا به ؟

وعندئذ قفز الطفل من فوق ركبة كادجو ، وأسرع يجرى اليها ، وبسط ذراعيه فصرخت قائلة :

ـ آه ٠٠ انه هنا ٠٠ انه هنا ٠

ثم مضت تقول لمسز بيرد :

ـ آه ياسيدتى ٠٠ أسبغى علينا حمايتك ٠٠ لا تتركيهم يأخذوه ٠

فقالت المسز بيرد تشجعها

ـ لن يؤذيك أحد هنا أيتهـا المرأة المسكينة • انك فى أمان ، فلا تخافى •

فقالت المرأة وهى تخفى وجهها وتنتحب : « بارك الله فيك » بينما كان صغيرها حين رآها تبكى يحاول أن يستقر فى حجرها •

وبعد كثير من مظاهر الرحمة والعطف النسـوى ، التى لا يعرف أحد كيف يسبغها على غيره مثل المسز بيرد ، استردت المرأة المسكينة فى الوقت المناسب هدوءها • ولما أعد لهـا فراش مؤقت على المتكأ بجانب المدفأة ، استغرقت فى النوم بعد فترة قصيرة كمـا استغرق الطفل الذى لم يكن كما يبدو أقل منهـا ارهاقا وقلقـا فى النوم بين ذراعيها• ذلك لان الأم قاومت فى قلق عصبى كل المحاولات الشفيقة لأخذه منها ، وحتى وهى نائمة ، كانت ذراعها تنطوى عليه فى قبضة لا تلين ، كأن أحدا لا يستطيع حتى فى ذلك الوقت أن يغريهـا بأن تتركه •

وكان المستر والمسز بيرد قد عادا الى غرفة الاسـتقبال حيث لم يحاول أحدهما أن يعود الى المناقشـة السابقة وهو أمر قد يبـدو غريبا • ولكن المسز بيرد شغلت نفسها بأعمـال التطريز ، وتظاهر المستر بيرد بقراءة صحيفة •

وأخيرا قال وهو يضع الصحيفة جانبا :

ـ ترى من تكون ؟ وما هو أمرها ؟

فقالت مسز بيرد :

ـ لسوف نرى عندما تستيقظ من النوم وتستريح قليلا •

فقال المستر بيرد بعـد فترة من الصمت كان خلالهـا يتأمل صحيفة :

ـ اسمعى يا زوجتى •

ـ ماذا يا عزيزى •

ـ هل تستطيع أن ترتدى أحد أثوابك بعد أن تطيليه قليـلا أو

تنعلى به شيئا من هذا القبيل ؟ انها كما يبدو أكبر حجما منك ٠

وتألقت على وجه المسز بيرد ابتسامة فهم وادراك وهى تقول

ــ سوف نرى ٠

وبعد برهة أخرى عاد الزوج يقول :

ــ اسمعى يا زوجتى ٠

ــ ماذا تقول الآن ؟

ــ عجبا ٠ ان لديك تلك العباءة المبطنة التى تحتفظين بهالتطرحيها على عندما أغفو بعد الظهر ٠ ان فى مقدورك أن تعطيها اياها ــ فهى فى حاجة الى الملابس ٠

وأطلت دينا فى تلك اللحظة وهى تقول ان المرأة استيقظت وتريد أن ترى سيدة البيت ٠٠

ومضى المستر والمسز بيرد الى المطبخ يتبعهما أكبر ولدين من أبنائهما ، أما الأبناء الأصغر سنا ، فقد كانوا ، عندئذ ، قد أووا بسلام الى فراشهم ٠

وكانت المرأة الآن جالسة على المتكأ بجانب المدفأة ، وكانت تنظر الى لهيب النار فى ثبات ، وبوجه ينم عن انكسار القلب ، أى عن شىء مختلف كل الاختلاف عن انفعالها الشديد السابق ٠

وقالت المسز بيرد فى صو ترقيق :

ــ هل تريديننى ؟ أرجو أن تكونى الآن أحسن حالا أيتها المسكينة ٠

وكانت الاجابة الوحيدة زفرة من الصدر ، طويلة مرتعدة ، ولكنها رفعت عينيها السوداوين وثبتتهما على السيدة بنظرات كلها الأسى والرجاء ، مما جعل الدموع تطفر فى عينى السيدة الضئيلة الجسم التى قالت :

ــ لا حاجة بك الى الخوف من أى شىء ، فنحن هنا أصدقاء أيتها

المسكينة • خبرينى من أين جئت ، وماذا تريدين •

فقالت المرأة :

ــ جئت من كنتكى •

فقال المستر بيرد وقد تولى أمر سؤالها :

ــ متى !!

ــ الليلة •

ــ وكيف جئت !

ــ عبرت النهر فوق الجليد •

وعندئذ قال جميع الحاضرين بصوت واحد

ــ عبرت فوق الجليد !

فقالت المرأة ببطء :

ــ نعم • هذا ما فعلت • لقد استطعت ، بمعـــونة الله ، أن أعبر الجليد ، لأنهم كانوا ورائى ، ورائى مباشرة ، ولم يكن ثمة ســبيل أخرى •

وقال كادجو :

ــ يا الهى يا سيدتى ! ان الجليد على النهر مهشم كتلا متأرجحــة عائمة صعودا أو هبوطا فى الماء •

فقالت المرأة بعنف وبعينين متألقتين :

ــ أنا أعرف أنه كان هكذا •• أنا أعرف هذا • ولكنى عبرته •• ولم أكن أعتقد أنى قادرة على عبوره • بل لم أكن أظن أنى ســأبلغ الجانب الآخر من النهر • ولكنى لم أهتم • فكل ما كان يحدث هو أن أموت اذا لم أستطع عبوره • ولقد أعاننى الله • ان أحدا لايعرف مدى قدرة الله على العون حتى يحاول أن يعرفها •

أما المستر بيرد فقال :

ـ هل كنت جارية ؟

ـ نعم يا سيدى • اننى كنت جارية رجل فى كنتكى •

ـ هل كان قاسيا عليك ؟

ـ لا يا سيدى •• كان سيدا طيبا •

ـ وهل كانت سيدتك قاسية عليك ؟

ـ لا يا سيدى •• لا •• ! كانت سيدتى رحيمة بى دائما •

ـ وما الذى حدا بك اذن الى ترك بيت طيب كهذا ، والفرار منه ، وركوب هذه الأخطار •

فتطلعت المرأة الى المسز بيرد بنظرات ملهوفة فاحصة ، ولم يفتها أنها مرتدية ملابس الحداد ، فقالت فجأة :

ـ سيدتى •• هل فقدت يوما ابنا لك !

وكان السؤال مفاجئا غير منتظر ، وقد سقط على جرح حديث العهد ، ذلك لأنه لم يكن قد مضى غير شهر واحد على وفاة طفل عزيز فى الأسرة •

واستدار المستر بيرد ومضى الى النافذة ، بينما انفجرت المسز بيرد باكية ولكنها قالت بعد أن استردت صوتها :

ـ لماذا تسألين هذا السؤال ؟ لقد فقدت صغيرا عزيزا •

ـ اذن سوف تعطفين على • لقد فقدت اثنين ، الواحد بعد الآخر •• تركتهما تحت الثرى هناك عندما هربت •• ولم يبق لى غير هذا الابن • اننى لم أنم ليلة واحدة بدونه • انه كل شىء لى • انه عزائى وفخرى ، فى الليل والنهار • وكانوا يا سيدتى ينتوون أخذه منى •• ليبيعوه •• يبيعوه فى أدنى الجنوب ، يا سيدتى ، ليمضى فى الحياة وحيداً ، وهو الطفل الذى لم يفترق فى حياته يوما عن أمه ! ولم أستطع أن أحتمل هذا يا سيدتى • كنت أعرف أننى لن أصلح لشىء، اذا فعلوا بى هذا ، ولما علمت أن الأوراق تم توقيعها ، وأنه قد بيع

فعلا ، أخذته ، وهربت به فى جنح الليل ، فطاردونى ٠٠ الرجل الذى اشتراه ، وبعض عمال سيدى ، وكانوا فى طريقهم ورائى مباشرة، بأمتعتهم ، ووثبت من فورى على الجليد الطافى ، ولست أدرى كيف عبرت النهر ٠ ولكننى تبينت أول ما تبينت ، رجلا يساعدنى فى الصعود الى أعلى الشاطىء ٠

ولم تكن المرأة تبكى أو تنتحب ٠ ذلك أنها بلغت الحد الذى تجف فيه الدموع ٠ ولكن كل من حولها ، كان يعرب ، بطريقته الخاصة، عن أبلغ أمارات العطف ٠

وكان الطفلان الصغيران ، بعد أن بحثا فى جيوبهما بلا جدوى ، عن مناديلهما التى كانت الأم تعرف أنها لا توجد أبدا فيها ، قد ألقيا بأنفسهما فى أسى على طرف رداء امهما الواسع ، حيث راحا يبكيان ما شاء لهما البكاء ويمسحان أنفيهما وعيونهما أكثر ما يستطيعان ٠ وكانت المسز بيرد قد أخفت وجهها فى منديل جيبهـــا ، كما كانت العجوز دينا تقول والدموع تنحدر على وجهها الأســـود الأمين ، وبصوت كله الحماسة التى تثيرها الاجتماعات الدينية

ـ ارحمنا يا الهى ٠

هذا بينما كان كادجو العجوز يحك عينيه فى قوة بطرفى كميــه ، ويلوى وجهه التواء على مختلف الأشكال والأوضاع ـ كان كادجــو هذا يستجيب أحيانا لهذا الموقف بنفس القــوة ٠ وكان صاحبنا عضــو الشيوخ من رجال الحكم ، فلم ينتظر منه أن يبكى بطبيعــة الحال كغيره من الآدميين ٠ ولهذا أدار ظهره الى الجمع ، وأطـل من النافذة ، وبدا كأنه مشغول بتطهير حلقه وبمسح زجاج منظــاره ، وباطلاق أنفه بين الحين والآخر بطريقة تثير الشك لو أن أحدا كان فى حالة تسمح له بدقة الملاحظة ٠

ثم صاح فجأة وهو يستدير نحو المرأة ويبتلع ريقه بقوة :

ـ كيف تجرؤين على أن تقولى لى ان لك سيدا شفيقا ؟

ـ لأنه كان سيدا شفيقا حقا ، وأنا أشهد بهذا على كل حال ٠ وكانت سيدتي رحيمة ٠ ولكن لم يكن فى وسعهما أن يفعلا غير ما فعلا ٠ فقد كانا مدينين بالمال ، وكانا واقعين ـ بطريقة لا أعرفها ـ فى قبضة رجل ولهذا اضطرا لأن يحققا له رغبته ٠ لقد أنصت ، وسمعت سيدى يقول لسيدتى هذا ، وسمعتها ترجو وتستعطف من أجلى ، فقال لها انه لا يستطيع ، وان أوراق البيع قد تم توقيعها ، وعندئذ أخذت طفلى ، وغادرت البيت ، وهربت ٠ كنت أعرف أنه لا جدوى من محاولتى الحياة لو أنهم أخذوا طفلى منى ، لأن هذا الطفل كما يبدو هو كل ما لى فى حياتى ٠

ـ أليس لك زوج !

ـ بلى ٠ ولكنه ملك لرجل آخر ٠ وان سيده لشديد القسوة عليه، وقلما كان يسمح له بالحضور الى ليرانى ٠ وقد بدأت قسوته تزداد علينا يوما بعد يوم ، وهدد ببيعه فى الجنوب ، وقد لا أراه أبدا بعد ذلك ٠

وكان الصوت الهادىء الذى نطقت به المرأة هذه الكلمات قد يحمل من ينظر الى ظاهر الأمور على أن يظن أنها امرأة بليدة الاحساس الى أبعد حد ولكن عينيها الكبيرتين السوداوين كانتا تفصحان عن ألم عميق هادىء مستقر فيهما يوحى بأنها لم تكن كذلك ٠

وقالت المسز بيرد :

ـ والى أين تعتزمين الذهاب أيتها المرأة المسكينة ؟

فقالت وهى ترفع عينيها فى بساطة وايمان الى وجه المسز بيرد :

ـ الى كندا اذا عرفت أين تكون ٠ أهى بعيدة جدا ، كندا !

فقالت مسز بيرد وكأنما الألفاظ خرجت من فمها على غير ارادتها :

ـ مسكينة ٠

فقالت المرأة فى لهفة :

ــ آتعتقدين أنها بعيدة جدا ؟

فقالت المسز بيرد :

ــ أبعد كثيرا مما تظنين أيتها الطفلة البائسة ٠ ولكننا سنحاول النظر فيما ينبغي أن نفعل لك ٠ هلم يا دينا ، أعدى لها فراشا فى غرفتك ، بالقرب من المطبخ ، ولسوف أفكر فيما يجب أن نؤديه لها فى الصباح ٠ والى أن نفعل هذا ، فلا تخافى أيتها المسكينة ،اعتمدى على الله وهو سبحانه سوف يحفظك ٠

وعادت المسز بيرد وزوجها الى غرفة الاستقبال ٠ وهناك جلست على مقعدها الهزاز الصغير أمام المدفأة ، وراحت تفكر وهى تهتز به الى الأمام والى الوراء ٠ وراح المستر بيرد يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، ويغمغم لنفسه :

« أف ٠٠ أف ٠٠ انه لموقف حرج لعين »

وأخيرا تقدم نحو زوجته وقال :

ــ اسمعى يا زوجتى ٠ ان عليها أن ترحل من هنا ، فى هذه الليلة ٠ ان ذاك الشخص سوف يلحق بها هنا فى الصباح غدا ٠ ولو كان الأمر يتعلق بالمرأة وحدها ، لأمكنها أن تبقى هنا هادئة مطمئنة حتى ينتهى الأمر ٠ ولكن هذا الطفل الصغير لا يمكن ارغامه على السكون ولو استخدمنا كتيبة من الفرسان والمشاة ٠ وأؤكد لك انه سيكشف الأمر كله اذ يطل برأسه من أى باب أو نافذة ٠ وسيكون موقفى بالغ الحرج أيضا اذا قبض على هذين الاثنين هنا ٠٠ فى هذا الوقت ! لا ٠٠ ان عليهما أن يرحلا هذه الليلة ٠

ــ الليلة ؟ كيف يمكن هذا ؟ والى أين ؟

ــ أنا أعرف حق المعرفة أين يذهبان

وبدأ عضو الشيوخ يرتدى حذاءه وقد بدت عليه أمارات التفكير ثم توقف وقد طوى نصف ساقه وأحاط ركبته بكلتا يديه وبدا كأنه مستغرق فى تفكير عميق ٠

ثم قال آخر الأمر وهو يعاود ارتداء حذائه :

ــ ان هذه مهمة لعينة بشعة . وتلك هي الحقيقة .

وبعد أن فرغ من انتعال أحد حـــذاءيه ، جلس والثانى فى يده وهو مستغرق فى تأمل الأشكال المرسومة على الطنفسة .

ــ ولكن .. يجب أن أقوم بها .. أيا كان الأمر .. تبا للأمر كله

ثم انتعل الحذاء الآخر فى لهفة ، وأطل من النافذة .

وكانت المسز بيرد سيدة حصيفة لم تقل فى حياتها أبدا « قلت لك هذا ! » وفى هذه المناسبة الحاضرة ، فقد قررت ألا تعترض على آراء زوجها ، رغم ادراكها للاتجاه الذى تتخذه هـــذه الآراء ، وجلست بهدوء فى مقعدها ، وبدا عليها الاستعداد للاستماع الى نوايا زوجها وشريك حياتها ، عندما يرى أن الوقت مناسب للحديث عنهـــا . وأخيرا قال :

ــ أترين .. ان هناك عميلى القديم ، فان ترومب ، الذى جاء من كنتكى وأطلق سراح جميع عبيده . وقد اشترى له قصرا على مسافة سبعة أميال من الخور الجبلى ، وراء الغابة ، حيث لا يذهب أحد الا عن قصد . وهو مكان لا يسهل العثور عليه بسرعة . وهناك ستكون بمأمن تام . ولكن أسوأ ما فى الأمر أن أحدا لا يستطيع الذهاب بمركبة اليه فى هذه الليلة الا أنا وحدى .

ــ كيف هذا ؟ ان كادجو سائق ممتاز !

ــ نعم .. نعم .. ولكن الذى يجب أن تعرفيه هو أن علينا أن نعبر الخور مرتين .. والعبور فى المرة الثانية جد خطير ما لم يعـــرف السائق المكان كما أعرفه أنا . لقد عبرته مئة مرة على صهوة جوادى وأعرف بالضبط المنحنيات التى ينبغى أن أسلكها . ومن هذا ترين أنه لا مفر من قيامى بهذه المهمة . وان على كادجو أن يعد الجياد بقدر ما يستطيع من هدوء فى نحو الساعة الثانية عشرة . ولسوف أمضى بها عندئذ . ولكى نضفى على هذه المهمة غلالة خادعة يجب أن أركب معه الى الخان التالى ، لكى أستقل مركبة البريد الذاهبة الى مدينـــة

كولمبوس ، والتى ينتظر وصولها فيما بين الثالثة والرابعة صباحا ٠ ولهذا يبدو للجميع أننى لم أخرج بالمركبة فى هذا الوقت الا لهـذا الغرض ٠ ولسوف أمضى الى عملى مبتهجا فى بكور الصباح ، ولكنى أخشى أن أشعر بشىء من الحيرة وأنا هناك بعد كل الذى قلته وفعلته الليلة ٠٠ تبا لكل شىء ٠ فما كان فى وسعى أن أفعل غير هذا ٠

فقالت زوجته وهى تضع يدها الصغيرة البيضاء على يده :

ـ ان قلبك أطيب من عقلك فى هذا الأمر يا جون ٠ أكان من الممكن أن أحبك أبدا لو لم أكن أعرفك خيرا مما تعرف أنت نفسك ؟

وبدت السيدة أجمل ما تكون والدموع تتألق فى عينيها ، بحيث خطر لعضو الشيوخ أنه ولا شك رجل بارع اذ استطاع أن يملأ قلب هذه المخلوقة الجميلة اعجابا شديدا به ٠ ومن ثم فماذا كان فى وسعه أن يفعل الا أن يمضى بهدوء ليشرف على اعداد المركبة ٠ غير أنه وقف لحظة عند الباب ، ثم عاد وهو يقول فى شىء من التردد :

ـ انى لا أدرى حقيقة شـــعورك بهذا الأمر كله يا مارى ٠٠ ولكن هذا الدرج ملىء بأشياء مختلفة من لعب صــــغيرنا هنرى الراحل المسكين ٠

ثم استدار على عقبيه وأغلق الباب وراءه ٠

وفتحت زوجته باب غرفة النوم الصغيرة الملحقـــة بغرفتها ، ثم تناولت الشمعة ووضعتها على الخزانة هناك ، ثم تناولت من فجوة صغيرة مفتاحا ، ودسته وهى تفكر فى قفل درج ، ثم توقفت فجأة حين رأت ابنيها اللذين كانا قد تبعاها ووقفا صامتين يرسلان نظرات لها معناها الى أمهما كما يفعل كل الصبيان ٠ وأنت يا من تقرئين هذا من الأمهات ، ألم يحدث أبدا أن كان لديك فى بيتك درج أو خــزانة يعد فتحها بالنسبة لك بمثابة العودة الى فتح قبر صغير ؟ آه ٠٠ انك لأم سعيدة اذا لم يكن مثل هذا قد حدث لك ٠

وفتحت المسز بيرد الدرج ببطء ٠ وكانت فيه أثواب صغيرة كثيرة ذات أشكال ورسوم مختلفة ، وأكوام من المیادع ، وصـــفوف من

الجوارب الصغيرة ، بل كان ثمة زوج من الأحذية ، صغير ٠٠ قديم متآكل عند الطرفين ، يطل من لفافة ورق ، وكان فيـــه من الدمى واللعب : مركبة وحصان وخذروف وكرة ـ وكلها ذكريـات جمعت بالكثير من الدموع وآلام القلب ٠ وجلست بجانب الدرج ، ثم مالت برأسها على يديها ، وأخذت تبكي حتى تساقطت الدموع من خـلال أصابعها الى الدرج ٠ ثم رفعت رأســها فجـأة وبدأت في سرعـة واضطراب ـ تختار أبسط الأشـياء وأكثرها قيمة وتجمعهـا في لفافة ٠

وقال أحد الطفلين وهو يلمس ذراعها برفق :

ـ أماه ٠٠ هل ستتخلين عن هذه الأشياء ؟

فقالت في رقة ولهفة :

ـ يا ولدي العزيزين ، لو أن ابننا العزيز المحبوب هنري يطل من السماء الآن ، لأحس بالبهجة حين يرانا نفعل ما نحن فاعلون ٠ ان قلبي لم يطاوعني على التخلي عن هذه الأشياء الى أي شخص عادي ـ الى أي شخص سعيد ٠ وانما أنا أقدمها الى أم أشد حزنا وانكسـار قلب مني ٠ وأنا أرجو أن يسبغ الله بركته عليها مع هذه الأشياء ٠

ان في هذا العالم نفوسا رحيمة مباركة تتحول أحزانها بهجـة لغيرها من النفوس وتكون آمالها الدنيوية التي دفنت في القبر مـع الكثير من الدموع بمثابة بذور تلتف منها أزهار فيها بلسم وشـفاء لجراح البائسين المحزونين ٠ وكان من بين هؤلاء تلك السيدة الرقيقة التي تجلس هناك ، بجانب المصباح ، تذرف الدمع ببطء وهي تعد مخلفات ابنها الراحل للطفل الشريد المنبوذ ٠

ثم فتحت مسز بيرد بعد قليل من الوقت خزانة ثياب ، وتناولت منها ثوبا منزليا عاديا أو ثوبين ، ثم جلست الى منضدة الخيـاطة ، وراحت بالابرة والمقص وقمع الخياطة تعمل بهدوء في اطالة الثـوب كما أوصاها زوجها ، وظلت تواصل عملهـا حتى أعلنت السـاعة القديمة في الركن ، الثانية عشرة ، ثم سمعت كركرة العجـلات الخفيضة عند الباب ٠

وقال زوجها وهو يدخل ومعطفه على ذراعه :

ـ ماری ٠٠ عليك أن توقظيها من النوم ٠٠ فقد آن وقت الرحيل:

وأسرعت المسز بيرد فوضعت ما جمعته من مختلف الأشياء فى حقيبة سفر بسيطة صغيرة وأغلقتها وطلبت الى زوجها أن يشرف على وضعها فى المركبة ، ثم مضت لايقاظ المرأة ، وسرعان ما ظهرت هذه عند الباب وطفلها على ذراعيها وقد ارتدت قبعة ورداء ومطرفا كانت كلها ملكا لمن أحسنت اليها ٠ وأسرع المستر بيرد بها الى المركبة ، وشيعتها المسز بيرد اليها ، وأطلت اليزا منها ومدت يدها ـ يدا ناعمة جميلة كاليد التى صافحتها ، وثبتت عينيها السوداوين الكبيرتين الزاخرتين بمعانى اللهفة والرجاء على وجه المسز بيرد ، وبدا كأنها ستقول شيئا ـ وحركت شفتيها ٠ وحاولت مرة أو مرتين أن تتحدث ولكن الصوت خذلها ٠ وبعد أن أشارت الى السماء بنظرة لا يمكن أن تنسى تراجعت الى مقعدها وأخفت وجهها وأغلق الباب وانطلقت المركبة ٠

ترى أى موقف حرج يقفه الآن عضو مجلس شيوخ محب لبلده ، كان طوال الأسبوع السابق يستحث الهيئة التشريعية فى ولايته لكى تقر قوانين أشد حزما وعنفا ضد العبيد الآبقين وضد الذين يأوونهم أو يحرضونهم على الهرب ٠ ولم يكن يفوق صاحبنا عضو الشيوخ الطيب فى ولايته أى واحد من اخوانه فى واشنطن فى بلاغته التى أضفت على زملائه فى الحزب شهرة خالدة ٠ وما كان أعلى مقامه وهو جالس ويداه فى جيبه يسخر من ضعف أولئك العاطفيين الذين كانوا يقدمون مصالح بعض الهاربين البائسين على مصلحة البلاد العليا ٠

كان جريئا كالأسد فى هذا الموضوع ٠ ولم يقنع أشد الاقناع نفسه وحده ، بل أقنع كذلك كل من سمعه ٠ ولكن فكرته عن الهارب لم تكن تتجاوز الحروف التى تتكون منها هذه الكلمة ، فاذا تجاوزتها لم تكن أكثر من صورة فى صحيفة يومية صغيرة لرجل يحمل عصاه ولفافته ، وتحتها هذه العبارة « هارب من سيده » ٠ أما قوة المأساة فى

حقيقة أمرها والنظرات الانســـانية المبتهلــة ، واليــد النحيلــه المرتعدة ورجاء الانسان البائس الضعيف المتألم الذى لا نصير له ولا معين ـ هذه كلها لم يشعر بها قط • وهو لم يفكر أبدا فى أن الهارب قد يكون امرأة مستضعفة ، أو طفلا مسكينا كهذا الذى يرتدى الآن قبعــة ابنه الصغير الراحل التى يعرفها عضو الشيوخ حق المعرفة • ولما كان صاحبنا المسكين ليس مخلوقا من الحجر أو الحديد ، وانما هو انسان نبيل فى أعماق نفسه أيضا ، فقد كان ـ كما هو واضح ـ فى حالة يرثى لها سببها شعوره الوطنى • ولا حاجة بك الى الشماتة فيه ، أيها الأخ الطيب فى الـولايات الجنـوبية ، لأننا يخـامرنا بعض الاحســـاس بأنه لن يكـون فى وســع الكثيرين منكم ـ فى مثل هذه الظروف ـ أن يفعلوا خيرا من هذا • وأن لدينا من الأسباب ما يجعلنا نعرف أن فى كنتكى وفى ولاية المسسبى قلوبا كريمة نبيلــة تذهب معها قصة أية مأساة هباء • آه أيها الأخ الطيب ! أيليق بك أن تنتظر منا خدمات لا يسمح لك قلبك الكريم الباسل بأن تؤدى مثلها لو أنك كنت فى موضعنا !

وليكن الأمر أيا ما يكون ، فاذا كان صاحبنا عضو الشيوخ مذنبا سياسيا ، فان ما لاقاه من القصاص فى هذه الليلة قد كفر عن ذنبه • فقد ظل الجو يمطر مطرا دائما فترة طويلة من الزمن وكانت تربــة ولاية أوهايو الخصيبة الناعمة ، كما يعــرف الناس جميعا أصلح ما تكون لتجمع الأوحال والطين ، وكان الطريق فيما مضى من طرق السكة الحديدية فى أوهايو • وقد يسأل مسافر شرقى لم يتعود أن يقرن الطرق الحديدية فى فكره بغير السهولة والسرعة : أى نوع من الطرق يمكن أن يكون ذلك الطريق ؟

فاعلم اذن أيها الصديق البرىء المقيم فى الجـانب الشرقى ، أن الطرق الممتدة فى مجاهل الأقاليم الغربية حيث يمتد الوحل الى أعماق عظيمة لا يمكن سبر غورها تصـــنع من كتـــل الخشب الغليظــة مستعرضة فيها الى جنب ، والمغطاة منذ بداية انشــــائها بالتراب والأعشاب الخضراء وما الى هذا مما يكون فى متناول اليد ، وهذا هو الذى يسميه المواطن وهو مبتهج طريقا يخـرج من فوره للسـير

فيه ولكن لا تلبث أن تزيل الأمطار كل الأعشاب المتلبدة السابقة الذكر وما ينمو عليها من كلأ ، وتحرك عروق الخشب هنا وهناك فى أوضاع غريبة ٠٠ طولا وعرضا ٠٠ وعكسا ٠٠ تتخللها فيما بينها الحفر والفجوات الممتلئة بالطين الأسود ٠

وعلى مثل هذا الطريق كان صاحبنا عضو الشيوخ يمضى متعثرا وهو يستعرض فى ذهنه أفكارا حول المبادىء الخلقية يواصل التفكير فيها بقدر ما يتوقعه الانسان فى الظروف التى كان فيها ٠

وكانت المركبة تمضى فى طريقها تتعثر وتتخبط وتغرق فى الوحل وعضو الشيوخ والمرأة والطفل يبدلون أماكنهم فجأة نحو جانب المركبة المطل على الأكمة ٠ وتزداد المركبة رسوخا فى الطين بينما يسمع كادجو الجالس فى مقعد القيادة وهو يحاول السيطرة على الجياد ٠ وبعد محاولات غير مجدية من الجذب والمحاورة ، وبعد أن يوشك صبر عضو الشيوخ أن ينفد تستقيم المركبة بوثبة مفاجئة ، وتقع عجلتاها الأماميتان فى حفرة موحلة أخرى ويسقط عضو الشيوخ والمرأة والطفل بعضهم فوق بعض على المقعد الأمامى وتسقط قبعة عضو الشيوخ على عينيه وأنفه دون أن تحفل به ، حتى ليحسب أنه قد قضى عليه ، ويبكى الطفل ويصب كادجو شتائمه على الجياد التى كانت تركل برجليها وتتواثب وتجذب تحت فرقعة السوط المتكررة، وتقفز المركبة الى أعلى ، واذا العجلتان الخلفيتان تغوصان ، فيطير عضو الشيوخ والمرأة والطفل الى المقعد الخلفى ويلتقى مرفقاه بقبعتها وتدخل كلتا قدميها فى قبعته التى سقطت فى الحفرة الأخيرة ، وبعد لحظات تجتاز المركبة الحفرة الموحلة ويقف الجوادان يلهثان ويعثر عضو الشيوخ على قبعته ، وتصلح المرأة شأن قبعتها وتسكت طفلها، ويعد الجميع أنفسهم فى ثبات لمواجهة ما لا يزال فى انتظارهم ٠

وتمر فترة من الخضخضة المستمرة لا يغير منها الا ألوان من الوثبات الجانبية والهزات المعقدة ، ثم يبدأ الجميع يغبطون أنفسهم على أن الأمر ليس بالغ السوء رغم كل شىء ٠ وأخيرا تهوى العربة بقوة تجعل الجميع يقفون على أقدامهم ثم يسقطون على مقاعدهم بسرعة بالغة ٠ وتقف المركبة عن المسير ، ويعقب ذلك اضطراب

شديد فى خارجها ، يظهر بعده كاوجو عند الباب قائلا :

ـ سيدى ٠٠ ان الموقف هنا بالغ السوء ٠ ولست أدرى كيف نخلص منه ٠ انى أفكر فى إستعمال العروق الخشبية للخلاص ٠

ويهبط عضو الشيوخ وهو قانط من المركبة ، ويحاول بقدر ما يستطيع أن يجد لقدمه موضعا ثابتا ، ولكن قدمه تغوص فى الطين الى عمق كبير فيحاول أن يخرجها ولكنه يفقد توازنه ويسقط فى الطين ، ويرفعه كادجو منه وهو فى حالة لا تسر ٠

ولكننا نمسك هنا عن المضى فى السرد رحمة بأعصاب قرائنا ٠ ولكن المسافرين الى الولايات الغربية الذين سيضطرون فى منتصف الليل الى القيام بعمليات نزع عروق الخشب من السياجات واستخدامها لتخليص المركبة من حفر الطين ، سوف يعطفون على بطلنا المنكود عطفا مشوبا بالأسى والاحترام ٠ وانا لنرجوهم أن يذرفوا عبرة وهم صامتون ٠٠٠ ثم يمضون ٠

كان الوقت فى ساعة متأخرة من الليل عندما خرجت المركبة من الخور ، يلطخها الطين وتتساقط منها قطرات الماء ، ووقفت أمام باب منزل ريفى كبير ٠

ولم تكن عملية ايقاظ سكان المنزل بالأمر الهين القصير الأمد ، ولكن صاحبه المحترم أقبل أخيرا ، وفتح الباب ، وكان رجلا ضخما، طويلا ، أشعث يبلغ طوله ست أقدام وبضع بوصات وهو بلا حذاء، مرتديا قميصا من الفانلا الحمراء ، الذى يرتدى عند الصيد ، وكان شعره غزيرا مشعثا رملى اللون وكان شعر لحيته الذى مضت عليه عدة أيام دون أن يحلقه ، يضفى على الرجل الموقر مظهرا أقل مايقال فيه انه غير جذاب ٠ ووقف الرجل بضع دقائق يرفع الشمعة فى يده ويطرف بعينيه الى المسافرين وقد ارتسمت على وجهه أمارات غامضة من الاستياء المثير للضحك حقا ٠ واحتاج صاحبنا عضو الشيوخ الى بعض الجهد ليغريه بأن يدرك الأمر على حقيقته ٠ وسنتركه وهو يحاول جاهدا أن يدرك ، لنعمل من جانبنا على تقديمه الى القراء ٠

كان الرجل العجوز الأمين جون فان ترومب فيما مضى مالكا كبيرا

للأراضى والعبيد فى ولاية كنتكى • ولما كان وحيدا فى الحياة «مقطوعا من شجرة » ولما كانت الطبيعة قد وهبته قلبا نبيلا رحيمـــا أمينا ، مناسبا لجسمه الضخم ، فقد ظل بضعة أعوام يشهد فى قلق مكبوت أعمال نظام يئن منه الظالم والمظلوم على السواء • وأخيرا ثار قلب جون الكبير بحيث لم يستطع احتمال القيود أكثر مما احتمل فلم يفعل أكثر من أن يخرج حافظة أوراق من مكتبه ، ومضى الى ولاية أهايـــو واشترى ربع زمام مدينة من الأراضى الصالحة الخصيبة ، وســـلم جميع عبيده من الرجال والنساء والأطفال المســـتندات التي تثبت تحريرهم من الرق • وحملهم فى مركباتهم الكبيرة وأرسلهم للاقامة فى ممتلكاته الجديدة ، ثم ولى وجهه شطر الخـــور حيث راح يعيش بهدوء فى مزرعة صغيرة لطيفة مستمتعا بتأملاته وراحة ضميره •

وقال له عضو الشيوخ قولا صريحا :

ـ هل أنت الرجل الذى يقبل أن يأوى امرأة بائسة وطفلا مسكينا لينقذهما من صيادى العبيد ؟

فأجابه جون الأمين فى صوت كله التأكيد •

ـ أعتقد أننى هو •

ـ هذا ما ظننته •

فقال الرجل الطيب وهو يشد الى أعلى قامته الطويلة وجســـمه القوى :

ـ اذا أراد أحد منهم أن يأتى •• فأنا هنا على استعداد لملاقاته ، وان لى سبعة أبناء ، طول كل منهم ست أقدام ، وسيكونون جميعـــا مستعدين لهم • احمل تحياتنا اليهم ، وقل لهم انهم مهما أسرعوا فى زيارتنا فلن يغير هذا من الأمر شيئا •

وتخلل جون بأصابعه شعره الكث الذى يكسو رأسه ، ثم أطلق ضحكة هائلة •

وجرت اليزا قدميها نحو الباب وهى مرهقة ، متعبة ، واهنة • وكانت

تحمل بين ذراعيها طفلها وهو مستغرق فى النوم • ورفع الرجل الخشن الشمعة الى وجهها ثم أخرج من فيه صوتا ينم عن العطف والاشفاق • وفتح باب غرفة نوم صغيرة مجاورة للمطبخ الكبير الذى كانوا واقفين فيه ، ثم أشار لها بالدخول • وبعد آن تم تناول شمعة أخرى وأوقدها ووضعها على منضدة وجه القول الى ليزا

ـ اسمعى الآن يا فتاة ، لاحاجة بك لأى خوف • ليأت الى هنامن يأتى • فأنا كفيل بمواجهة أى موقف •

ثم أشار الى بندقيتين أو ثلاث بنادق من النوع الجيد فوق رف المدفأة ومضى قائلا :

ـ وان معظم الناس الذين يعرفوننى ، يعلمون أن ليس من الخير لهم أن يحاولوا اخراج أحد من بيتى رغم أنفى • ومن ثم فما عليك الآن الا أن تنامى فى هدوء تام كأن أمك تهدهدك وتهز مهدك

وبعد أن أغلق عليها الباب قال لعضو الشيوخ :

ـ عجبا • انها فتاة ذات جمال غير عادى •• ان للجميلات أكبر العذر للهرب أحيانا ، اذا كان لديهن أى نوع من الاحساس ، كمايجب أن يكون لكل النساء ذوات الخلق الطيب ، فأنا أعرف كل شىء عن هذا الأمر •

وراح عضو الشيوخ يسرد قصة اليزا بايجاز •

فقال الرجل الطيب وقد أخذته الشفقة عليها :

ـ لقد عرفت الآن كل شىء ، تلك هى الطبيعة البشرية ! يا للمخلوقة المسكينة ! انها تطارد كما يطارد الغزال ـ تطارد الى حد الموت ، لا لشىء الا لأن لها مشاعر طبيعية ، ولأنها تفعل ما لا يسع أى أم حنون الا أن تفعله • أقول لك ان هذه التصرفات تكاد تدفعنى الى السباب واللعنة أو ارتكاب أية جريمة •

ثم مسح جون الأمين عينيه بظاهر يده الكبيرة الصفراء ذات النمش ومضى يقول :

ـ استمع الى أيها الرجل الغريب ٠٠ لقد مضت سنوات وسنوات قبل أن أعتنق دينكم ٠ لأن القس الذى كان هنا ، تعود فى مواعظه أن يقول ان الكتاب المقدس يؤيد أولئك السفاحين ٠ ولم أكن أتفق معهم رغم ماينطقون به من العبارات اليونانية والعبرية ، ولهذا وقفت ضدهم هم والكتاب المقدس جميعا فلم أنضم للكنيسة حتى وجدت قسا يماثلهم فى علمهم باليونانية وغيرها وينادى بعكس ما ينـادون به ، فآمنت بقوله وانضممت الى الكنيسة ٠ نعم انضممت اليها بحق ٠

وكان جون فى خلال هـذه الفترة يفتح زجاجة من شراب التفـاح ولما فتحها قدمها وهو يقول مرحبا بالقادمين من كل قلبه ٠

ـ يحسن بكم أن تمكثوا هنا حتى الصباح ٠ ولسوف أسـتدعى زوجتى العجوز لتعد لكم فراشا فى أسرع وقت ٠

فقال عضو الشيوخ :

ـ شكرا لك ياصديقى الطيب فان على أن أسـتقل مركبة البريد الليلة الى كولمبوس ٠

ـ آه ٠٠ اذا لم يكن من هذا مفر فينبغى أن أصحبك لأطلعك على طريق أفضـــل وأقصر من الطريق الذى جئت منه ٠٠ فذلك طريق ردىء جدا ٠

وأعد جون نفسه للرحلة ، وسرعان ما شـوهد والمصباح فى يده وهو يوجه مركبة عضو الشيوخ الى طريق يمتـد فى منخفض واقع وراء بيته وعندما افترقا وضع عضو الشيوخ فى يد جون ورقة مالية من فئة العشرة دولارات قائلا بايجاز :

ـ ان هذا المبلغ لها ٠

فقال جون فى ايجاز مماثل لايجازه :

ـ نعم ٠٠ نعم

ثم تصافحا وافترقا ٠

الفصل العاشر

البضاعة تنقل بعيدا

كان صباح يوم من شهر فبراير يبـــدو من نافذة كوخ العم توم داكنا مطيرا • انه يطالع وجوها محزونة تصور قلوبا ثكلى • وكانت المنضدة الصغيرة القائمة بجوار المدفأة يغطيها مفرش لكى الملابس • وعلى ظهر مقعد بجانب المدفأة علق قميص أو اثنان من قماش غليظ ولكنه نظيف خرج توا من المكواة • وكانت العمة كلو تبسط قميصا آخر أمامهــا على المنضدة وتكوى بعنـــاية واتقـان بالغ كل ثنية أو انكماش فيه • وهى بين الحين والحين ترفع يدها الى وجهها وتمسح دموعا كانت تنحدر على وجنتيها •

وكان توم جالسا بالقرب منهـــا ، وكتابه المقـدس مفتوحا على ركبتيه ، ورأسه مائل على يده ــ دون أن يقول شيئا • وكان الوقت لا يزال بكورا ، والأطفال نائمين معا فى سريرهم الصغير البسيط •

ونهض توم ــ وهو رجـــل له قلب رب الأسرة الرقيق الحـــانى المتميز بخصائص جنســـه البائس ــ وســـار فى صمت لينظر الى أبنائه ــ ويقول :

ـ هذه آخر مرة •

ولم تجب العمة كلو بشىء وانمـــا راحت تحك القميص الخشن الذى أمامها المرة بعد الأخرى ــ وكان قبل ذلك قد أصبح ناعمـــا بقدر ما تستطيع أن تفعل الأيدى ثم ألقت المكواة آخر الأمر بعيدا من يدها فجأة بحركة تنم عن اليأس ، وجلست بجـانب المنضدة ، ورفعت صوتها بالبكاء وقالت :

ــ لنفرض أن لابد لنا من الاستسلام للقدر • ولكن •• رباه ••

منذا الذى يعرف الأقدارياربى • لو كنت أعرف الى أين أنت ذاهب، أو كيف يعاملونك • تقول سيدتى انها ستحاول تحريرك فى خلال عام أو اثنين • ولكن •• يا الهى •• ان الذين يذهبون الى ذلك المكان لا يعودون أبدا • انهم يقتلونهم • لقد سمعت كيف يقضون عليهم بالعمل الشاق فى مزارعهم هناك •

ـ ان الاله الذى هنا يا كلو هو الاله الذى هناك •

فقالت العمة كلو

ـ ولكن هل هذا يمنع من وقوع أحداث فظيعة أحيانا • اننى لا أجد العزاء على هذا النحو •

فقال توم

ـ اننى بين يدى الله • ولا يمكن أن يصيبنى شىء أكثر مما قدر على • وهذا مما أحمد الله عليه • فأنا الذى تم بيعى وسأمضى الى هناك ، لا أنت أو أحد الأبناء • فأنت هنا فى أمان ، وان ما سيحدث لن يحدث الا لى وسيعيننى الله عليه •• وأنا أعرف أننى سأجد منه العون •

آه •• أيها القلب الباسل النبيل •• انك تكتم آلامك لتخفف الأحزان عن أحبابك ! كان توم يتحدث بلسان ثقيل ، وبغصة مريرة فى حلقه • ولكنه كان يتحدث فى قوة وشجاعة •

وأضاف قائلا :

ـ هلم نفكر فى شفقة أسيادنا التى أسبغوها علينا •

وكان صوته يختلج كأنما هو فى حاجة الى تأكيد الشعور بأنه لا ينبغى له أن يقسو فى حكمه عليهم • وقالت العمة كلو :

ـ شفقة ! اننى لا أرى فيما حدث أى شفقة ! ان ما حدث ليس من الصواب فى شىء •• ليس من الصواب فى شىء ما حدث • فما كان يليق بالسيد أبدا أن يترك الأمور تسوء بحيث تؤخذ أنت وفاء لديونه • ألم تقدم له كل ما دفعه من أجلنا ، مضاعفا ؟ انه مدين لك

بحريتك ‥ وكان ينبغي أن يمنحها لك من أعوام طوال ٠ ربما لم يكن في وسعه أن يفعل غير مافعله الآن ٠ ولكنني أشعر أن مافعله كان خطأ ٠ ولن يستطيع أحد أن يقنعني بغير هذا ٠ أهكذا يعامل مخلوق وفي مثلك كان يهتم بشئون سيده أكثر من اهتمامه بنفسه، بل ويرعاه أكثر من رعايته لزوجه وأولاده ‥ أيبيعون الوفاء والحب ودماء القلب لأداء الديون ! ان الله لن يغفر لهم هذا !

ـ كلو ! ‥ اذا كنت تحبينني ، فعليك ألا تتحدثي هذا الحديث فقد يكون هذا آخر حديث بيننا ! واني أقول لك يا كلو انه ليسوءني أن أسمع كلمة واحدة ضد سيدي ٠ ألم يوضع بين ذراعي وهو طفل ؟ من الطبيعي أن أحبه وأقدره الى أقصى حد ٠ وليس من المنتظر منه أن يفكر على هذا النحو في توم المسكين ٠ فقد تعود السادة أن يتلقوا الخدمات من أمثالنا ٠ ومن الطبيعي ألا يفكروا فيها كثيرا بطبيعة الحال ٠ لا يمكن أن ينتظر هذا منهم ، مطلقا ٠ واذا قارنت سيدي بغيره من السادة ، فأي واحد كان يستمتع بحسن المعاملة وطيب الحياة مثلي ! وانه ما كان أبدا ليسمح بما حدث لي لو أنه تنبأ به من قبل ٠ أنا أعرف ذلك ٠

فقالت العمة كلو وكان شعورها بالعدالة يملك عليها نفسها ولا يمكن أن تتخلى عنه أبدا :

ـ ان ثمة خطأ ما فيما حدث ٠ وأنا لا أعرف مداه الآن ٠ ولكنه خطأ على كل حال ٠ أنا واثقة من هذا ٠

ـ ينبغي عليك أن ترفعي وجهك الى الله في علاه ‥ انه فوق الجميع ‥ ولا يسقط عصفور الا باذنه ٠

فقالت العمة كلو :

ـ أعتقد أنه ينبغي أن يملأ حديثك هذا نفسي بالعزاء ، وان كنت لا أشعر به الآن ٠ فلا جدوى من الحديث ٠ لسوف أعجن الآن فطيرة القمح وأعد لك فطورا شهيا ، لأن أحدا لا يدري متى ستتناول وجبة أخرى بعد ذلك ٠

واذا أردنا أن ندرك مدى آلام الزنوج الذين يباعون في الجنوب، يجب أن نذكر أن كـــل العواطف الغريزية في هـــذا الجنس تتميز بالقوة • ان صلاتهم في الأماكن التي يعيشون فيهـــا تصبح عزيزة عليهم • فطبيعتهم تأبى عليهم المغـــامرة والتجوال ، وهم يحبـــون الاستقرار والتعاطف • يضاف الى هذا المخاوف التي يبثها المجهول في النفس الجاهلة ، كما يضاف أيضا أن الزنجي يعرف منذ الطفـــولة أن بيعه في الجنوب هو أقصى ما ينزل به من العقاب • وان التهديد الذي يروعه أكثر مما يروعه الجلد بالسياط أو تعذيبه أيا كان هذا التعذيب ، هو التهديد بارسال العبد الى أدنى النهر • وقد ســـمعنا بآذاننا الزنوج يعربون عن هذا الشعور ورأينا الفزع غير المتكلف الذي يرتسم على وجوههم ، وهم يجلسون الســـاعات يتبادلون الأحاديث والقصص المفزعة عن « أدنى النهر » الذي يرونه :

« الأرض المجهولة •• التي
لا يؤوب من ربوعها مسافر •• »

لقد حدثنا أحد المبشرين الذين يعملون بين الهاربين في كندا أن الكثيرين منهم قد هربوا من سادة رحماء نسبيا ، وأنهم لا يترددون في مواجهة مخاطر الهرب ، في كل حالة تقريبـــا ، بسبب فزعهم الرهيب من أن يباعوا في أدنى الجنوب • وهـــو مصـــير كالسيف المصلت على رقابهم ورقاب أزواجهم ، أو زوجاتهم أو أبنائهم • ان هذا المصير يبعث الشجاعة الفائقة في أعصاب الافريقي ، المفطور عـــلى الصبر ، الوادع ، الكاره للمغامرة ، ويســـوقه الى احتمال عـــذاب الجوع والبرد والألم ، ومخاطر البراري وما هو أفظع من ذلك ، أي العقاب الرهيب الذي يوقع على من يعاد القبض عليه •

ان طعام الافطار البسيط موضوع الآن على المائدة ، يتصاعد منه البخار ، ذلك أن المسز شلبي أذنت للعمة كلو بالتخلف عن اعـــداد الطعام في البيت الكبير ذلك الصباح • ومن ثم ركزت المسكينة كل جهدها في اعداد طعام الوداع هـــذا •• فذبحت وأعـــدت أحسن دجاجاتها ، وصنعت فطيرة القمح باتقان بالغ ، حسب رغبة زوجها، ووضعت على رف المدفأة بعض أوعية فيها أطعمة خاصـــة محفوظة

للمناسبات الهامة · وقد قال الطفل موسى فى ابتهاج :

ـ يا الهى يابيت ·· ما أشهاه من فطور ·

وأمسك فى الوقت نفسه بشريحة من لحم الدجاجة ·

ولكمته العمة كلو فجأة على أذنه وهى تقول :

ـ أتصيح مبتهجا بآخر فطور يتناوله والدك المسكين فى بيته ؟

فقال العم توم برفق :

ـ آه ·· يا كلو !

فأخفت العمة كلو وجهها فى ميدعتها وقالت له :

ـ لم يسعنى أن أفعل غير هذا ، ان ما حـــدث كان مفاجئا وقد دفعنى الى أن أتصرف هذا التصرف غير المستحب ·

ووقف الولدان فى مكانهما وهما ينظران تارة الى أبيهما ، وتارة الى أمهما ، بينما أخذت الطفلة ، وهى تصعد الى حجر أمهما ، تصيح صيحة الآمر المتغطرس ·

ومسحت العمة كلو عينى الطفلة ثم حملتها وهى تقول :

ـ لقد أعددت الطعام ·· أرجوك أن تأكل شيئا · هــذه أحسن دجاجة عندى · وأنتم يا أولاد ·· تناولوا طعامكم يا مساكين ·· ان أمكم كانت جافية عليكم ·

ولم يكن الولدان بحاجة الى دعوة ثانية ، فاندفعا يلتهمان الطعام التهاما ، وحسنا فعلا ·· والا لظل الطعام على المائدة الا القليل منه ·

وقالت العمة كلو وهى تغدو وتروح فى الغرفة بعد الطعام :

ـ يجب الآن أن أجمع ثيابك ·· وأكبر الظن أنه سيستولى عليها كلها ·· فأنا أعرف وسائلهم ··· انها وســائل قذرة ·· ان ملابسك الفانلا الخاصة بالروماتزم فى هذا الركن · وينبغى أن تحرص عليها لأنك لن تجد أحدا يعد لك غيرها · وهذه هى قمصانك القــديمة ،

وهذه هى الجديدة . وقد كورت جواربك فى الليلة الماضية ووضعت معها الابرة وبكرة الخيط لتصلحها اذا لزم الأمر . ولكن .. يا الهى .. من ذا سيصلح جواربك ؟

وغلب الانفعال العمة كلو مرة أخرى فوضعت رأسها على جانب الصندوق وراحت تنتحب وتقول :

ــ إن التفكير فى هذا كله! .. فى أنك لن تجد مخلوقا يعنى بك فى المرض والصحة ! انى أعتقد حقا انى لم أعد أصلح لشيء بعد اليوم .

وبعد أن أكل الطفلان كل ما كان على مائدة الطعام ، بدأ يفكران بعض الشيء فيما يحيط بهما من الأمور . ولما رأيا أمهما تبكى ، وأباهما يبدو حزينا ، أخذا ينهنهان ويضعان أيديهما على عيونهما ، وكان العم توم يضع الطفلة على ركبتيه ، تاركا اياها تستمتع بمداعبته كما تشتهى ، فهى تخمش وجهه ، وتجذب شعره ، وتنطلق بين الحين والآخر فى الضحك الذى كان ينبثق ، ولا شك ، من احساساتها الداخلية .

وقالت العمة كلو

ــ اضحكى ما شئت يا مسكينة . فلسوف يأتى عليك الدور أيضا . سوف تعيشين حتى تبصرى زوجك يباع ، وربما تباعين أنت . وكذلك أولادك ، سوف يباعون كما أعتقد ، أيضا ، عندما يغدون صالحين للعمل . فان الزنوج غير الصالحين للأعمال لا جدوى منهم .

وعندئذ هتف أحد الولدين قائلا :

ــ هذه سيدتى قادمة .

وقالت العمة كلو :

ــ انها لن تستطيع أن تفعل شيئا .. فلماذا تأتى !

وأقبلت المسز شلبى ، وقدمت العمة كلو اليها مقعدا بطريقة فيها

غلظة واضحة وخشونة . ولم يبد على السيدة أنها لاحظت شيئا مما فعلت أو من الطريقة التى فعلت بها ، فقد كانت تبدو قلقة ممتقعة الوجه وقالت :

ـ ياتوم .. لقد جئت لكى ـ

ثم توقفت عن الحديث فجأة ونظرت الى الجمع الصامت ، ثم جلست على المقعد وأخفت وجهها بمنديلها وبدأت تنهنه

وانفجرت العمة كلو هى الأخرى فى البكاء وقالت :

ـ يا الهى ياسيدتى .. لا تبكى .. لا تبكى .

وظل الجميع يبكون معا برهة من الوقت . وفى تلك الدموع التى سكبها الجميع معا ، السادة منهم والعبيد ، ذابت أحقاد القلوب ومشاعر الغضب التى يحسها المضطهدون . وأنتم يا من تواسون المكلومين ، أتعلمون أن كل شىء يمكن أن تشتروه بمالكم ، اذا قدم بوجه بارد كاشح لا يساوى دمعة صادقة تذرف بعطف حقيقى !

وقالت المسز شلبى :

ـ يا صاحبى الطيب ، اننى لا أستطيع أن أقدم اليك شيئا يفيدك . اذا أعطيتك مالا فسوف يؤخذ منك . ولكنى أتعهد لك أمام الله ، أنى سأتتبع أنباءك ، وسأعيدك الى ساعة أحصل على ما يلزمنى من المال لاعادتك .. والى أن يحين هذا الوقت سلم أمرك لله !

وعندئذ صاح الولدان ان السيد هالى قادم ، ثم اذا ركلة غليظة تفتح الباب . ووقف هالى به وهو غاضب بعد أن أمضى الليل مسرعا بجواده ، وأثار غضبه اخفاقه فى القبض على ضحيته .. وقال :

ـ تعال أيها الزنجى .. هل أنت مستعد ؟

ثم رفع قبعته محييا عندما رأى المسز شلبى وقال : « خادمك ياسيدتى »

وأغلقت العمة كلو الصندوق وربطته ، ولما نهضت ، نظرت بغلظة

الى النخاس وقد تحولت دموعهـا فجأة ، كما يبدو ، الى شرر من النار ٠

ونهض توم فى خضوع ليتبع سيده الجديد ، ثم رفع صندوقه الثقيل على كتفه ، وحملت زوجته الطفلة بين ذراعيهـا لتصحبه الى المركبة ، وسار الطفلان فى المؤخرة وهما مستمران فى البكاء ٠

وسارت المسز شلبى الى النخاس ، وعطلته برهة ، وهى تتحدث معه حديثا جديا ، وبينما كان الحديث يدور بينها وبينه تقدمت الأسرة كلها نحو المركبة التى كانت معدة للرحيل عند الباب ٠ وقد تجمع كل العمال الصغار والكبار الموجودون فى المكان قد تحلقوا حولها ليودعوا زميلهم القديم ٠ وكان توم موضع احترام الجميع بوصفه رئيسا للخدم ومعلم المسيحية ، وكان كل من فى المكان يشعرون نحوه بعطف صادق كثير وحزن عميق ، ولا سيما من النساء ٠

وقالت احدى النساء التى كانت تبكى بحرارة بعد أن لاحظت هدوء العمة كلو وحزنها وهى واقفة بجانب المركبة :

ـ عجبا يا عمة كلو ٠٠ انك تواجهين هذا الموقف أفضل منا ٠

فقالت العمة كلو وهى تنظر بقسوة نحو النخاس المقبل عليهم :

ـ لقد جفت دموع عينى ٠ ولست أرغب فى البكاء أمام هـذا الرجل النجس ٠٠ مهما يكن الأمر ٠

وقال هالى لتوم وهو يسير بين جمع الخدم الذين كانوا ينظرون اليه فى تجهم :

ـ اركب ٠

وركب توم ، وتناول هالى من تحت مقعد المركبة زوجا من الأغلال الحديدية وقيد بها قدمى توم ٠

وسرت همهمة استنكار من جميع الواقفين ، وقالت المسز شلبى من مكانها بالشرفة :

ـ مستر هالى أؤكد لك أن هذا الاحتياط لا ضرورة له اطلاقا ٠

ـ لا أجزم ياسيدتى ٠ لقد فقدت خمسمائة دولار فى هذا المكان ٠ ولا أستطيع أن أخاطر بشىء مرة أخرى ٠

وقالت العمة كلو وهى غاضبة :

ـ ماذا كانت تنتظر منه غير هذا !

هذا بينما كان الولدان اللذان أدركا وقتئذ ـ كما يبدو ـ مصير أبيهما ، قد تعلقا بثوبها وراحا يبكيان وينتحبان بقوة ٠

وقال العم توم :

ـ انني آسف لأن سيدى جورج غائب الآن ٠

وكان جورج قد ذهب ليمضى يومين أو ثلاثة أيام مع صديق له فى ضيعة مجاورة ٠ ولما كان قد سافر فى بكور الصباح قبل أن تشيع أنباء مأساة توم ، فانه مضى قبل أن يعرف الأمر ٠ ومن ثم قال توم فى لهفة :

ـ بلغوا حبى للسيد جورج ٠

وفرقع هالى بالسوط على الجواد ، واندفعت المركبة أخيرا بتوم بعد أن ألقى نظرة حزينة أخيرة على مكانه القديم ٠

ولم يكن المستر شلبى عندئذ بالبيت ٠ كان قد باع توم تحت وطأة حاجة ملحة لينقذ نفسه من قبضة رجل يخشاه ٠ وكان احساسه فى أول الأمر ، بعد اتمام الصفقة ، هو احساس الراحة٠ ولكن نقاش زوجته أيقظ فى نفسه لواذع الندم ٠ وكان موقف توم المنطوى على الرجولة وانكار الذات ، قد زاد من آلام مشاعره ٠ وعبثا حاول أن يقول لنفسه ان من حقه أن يفعل ما فعل ، وان كل انسان آخر يفعله ، وان بعضهم يفعلونه دون أن تلجئهم الضرورة الى فعله ولم يستطع أن يقنع مشاعره الخاصة بصواب مافعل ولم يشأ أن يشهد عملية تسليم « البضاعة » فقد ذهب فى جولة قصيرة يقوم فيها ببعض الأعمال فى الريف وهو يرجو أن ينتهى كل شىء قبل عودته ٠

وانطلقت المركبة بتوم وهالى على الطريق المترب ، ومرت بسرعة بكل موقع قديم مألوف حتى ابتعدت عن حدود المزرعة ، وحتى وجدا نفسيهما على الهضبة الفسيحة المكشوفة ٠ وبعد أن انطلقا نحو ميل، توقف هالى بالمركبة فجأة أمام باب دكان حداد ٠ وهبط الى المحل بعد أن أخذ معه زوجا من القيود الحديدية ليجرى عليهما بعض الاصلاحات ٠

وقال هالى وهو يعرض القيود مشيرا الى توم :

ـ ان هذه أصغر قليلا من مقاسه ٠

فقال الحداد :

ـ أليس هذا توم عبد المستر شلبى ٠٠ انه لم يبعه !

فقال هالى :

ـ بل باعه !

فرد عليه الحداد قائلا :

ـ عجبا ! أحق ما تقول ؟ من كان يظن هذا ؟ عجبا ٠٠ لا حاجة بك الى تقييده طوال الطريق ٠٠ انه أوفى وأحسن مخلوق ٠

ـ فقال هالى :

ـ نعم ٠٠ نعم ٠٠ ولكن أصحابك الطيبين هؤلاء ليسوا الا المخلوقات التى تريد الهرب ٠ أما الأغبياء ، فانهم لا يهتمون بأى مكان يكونون ٠ والصعاليك السكارى لا يحفلون بشىء ٠ انهم يتبعون أى سيد ، وأكبر الظن أنهم يحبون الانتقال من سيد الى آخر ٠ ولكن أصحابك الطيبين هؤلاء ، يكرهون الانتقال كما يكرهون الذنوب ولا مندوحة من تقييدهم ٠ لأنهم اذا أطلقت أرجلهم ، فانهم سيستخدمونها بلا ريب ٠

فقال الحداد وهو يبحث بين آلاته :

ـ ان تلك المزارع فى أدنى الجنوب أيها الرجل الغريب ، ليست

بالمكان الذى يحب الذهاب اليه زنجى من كنتكى · ان الزنوج هناك يموتون بسرعة بالغة أليس كذلك ؟

فأجاب هالى :

ـ نعم ·· بسرعة بالغة يموتون · وسبب موتهم هو جو المكان وهذا الشىء أو ذاك ·· وانهم يموتون لكى يحفظوا أسعار العبيد فى السوق فى مستواها المرتفع ·

ـ اننى لا يسعنى يا صاحبى الا أن أحس بالأسى اذ أرى رجلا لطيفا هادئا طيبا مثل توم يذهب الى حيث يسحق فى احدى مزارع السكر ·· فى أدنى الجنوب ·

ـ ان لديه فرصة طيبة · لقد وعدت بحسن معاملته · لسوف ألحقه للخدمة فى بيت أسرة عريقة صالحة ، فاذا استطاع مقاومة الجو والحمى ، فسوف يستمتع بالمركز الذى يهفو اليه أى زنجى ·

ـ أعتقد أنه ترك هنا زوجته وأطفاله !

فقال هالى :

ـ نعم ·· ولكنه سيتزوج بغيرها هناك ·· وهو واجد فى كل مكان مايكفيه من النساء ·

وكان توم جالسا محزونا خارج دكان الحداد أثناء هذا الحديث· وسمع على حين غفلة دقدقة حادة سريعة لحوافر جواد وراءه ، وقبل أن يفيق من دهشته ، وثب الغلام جورج الى المركبة ، وألقى بذراعيه فى صخب حول عنق توم ، وراح ينتحب ويصب غضبه بكل قواه قائلا :

ـ أعلن ان هذه وضاعة حقيقية ! ولن أحفل بما يقوله أى واحد منهم ، انها لوضاعة قذرة مخجلة ·

ثم مضى يقول فيما يشبه العواء المكتوم :

ـ لو كنت رجلا ، لما أمكنهم أن يفعلوا هذا · وما كان ينبغى أن

يفعلوه ·

فقال توم :

ـ ياسيد جورج ·· اننى مغتبط بهذا · فما كنت أحتمل الرحيل دون أن أزاك · ان رؤيتى لك أسعدتنى حقا ·· الى أقصى حد ·

وحرك توم عندئذ قدميه ، ووقعت نظرات جورج على الأغلال ، فرفع ذراعيه الى أعلى وصاح قائلا :

ـ يا للعار ! سألقى هذا الرجل العجوز على الأرض ·· نعم ·· سأفعل ·

ـ لا ·· لن تفعل يامستر جورج · ويجب ألا ترفع صـوتك على هذا النحو · ان اغضابه لن يفيدنى فى شىء ·

ـ لن أفعل اذن من أجلك · ولكن ·· فكر فى هـذا ·· أليس هذا عارا ؟ انهم لم يرسلوا الى أبدا ·· ولم يرسلوا الى كلمة واحدة· ولولا صاحبى توم لنكولن لما سمعت بالأمر · وأؤكد لك أنى ثرت فيهم أشد ثورة ، ثرت فى جميع من بالبيت ·

ـ أخشى ألا يكون هذا صوابا يامستر جورج ·

فقال :

ـ لم أتمالك نفسى ! فقلت لهم ان هذا عار · اسمع ياعم توم ·

ثم استدار بظهره الى دكان الحداد وقال بلهجة خفية :

ـ لقد جئت لك بدولارى ·

فقال توم متأثرا

ـ اننى لا أستطيع أخذه يامستر جورج ·· بأى حال من الأحوال!

ـ ولكنك سوف تأخذه ! اسمع ·· لقد ذكرت هذا لعمتى كلو ، ونصحتنى بأن أثقبه وأضع فيه خيطا لكى تعلقه فى رقبتك وتحتفظ به بعيدا عن الأنظار · والا فان هذا الصعلوك الدنىء قد يأخـذه

منك . اسمع ياتوم . انى أريد أن أنسفه نسفا لكى أستريح .

ـ لا .. لا تفعل يامستر جورج ، لأن هذا لن يفيدنى فى شيء .

فقال جورج :

ـ لن أفعل اكراما لك .

ثم أخذ يحاول وضع الدولار حول عنق توم ، ومضى يقول :

والآن .. اغلق سترتك عليه باحكام واحتفظ به ، واذكر كلما رأيته أننى سألحق بك يوما وأعيدك . لقد تحدثت أنا والعمة كلو فى هذا الموضوع . وطلبت اليها ألا تخشى شيئا ، ولسوف أرى ماذا ينبغى أن أفعل .. لسوف أزعج حياة أبى اذا لم يعمل على اعادتك .

ـ ياسيد جورج .. لا ينبغى أن تتحدث هكذا عن أبيك .

ـ اننى لا أقصد به سوءا يا عم توم ، حاشا لله .

فقال توم :

ـ والآن ياسيد جورج . عليك أن تكون غلاما طيبا .. وأن تذكر كم من القلوب معقودة عليك . كن دائما بجانب والدتك ، لا ترتكب تلك الحماقات التى يرتكبها الأولاد حين يشعرون أنهم أصبحوا أكبر من أن يهتموا بأمهاتهم . هل أقول لك شيئا يامستر جورج ؟ ان الله يمنح الانسان نعما كثيرة مرتين ، ولكنه لا يمنحه الأم الا مرة واحدة . انك لن ترى أبدا سيدة كهذه ياسيد جورج ولو عشت حتى المائة من عمرك . ولهذا قف بجانبها ، واكبر ، وكن سبب سعادتها . انك ابنى العزيز .. ولسوف تفعل ما أقول .. أليس كذلك ؟

فقال جورج فى جد :

ـ نعم سأفعل ياعمى توم ..

ـ واحرص على نقاء حديثك ياسيد جورج . فان الصبيان الصغار حين يبلغون مابلغت من السن يميلون أحيانا الى العناد ، ومن الطبيعى

أن يكونوا كذلك ، ولكن السادة الحقيقيين ، وأرجو أن تكون منهم، لا يوجهون كلمة نابية غير مهذبة لآبائهم • فهل يسوءك هذا ياسيد جورج ؟

ـ لا •• ياعم توم •• فى الحق أنك كنت دائما تسدى الى النصائح الطيبة •

وأخذ توم يربت بيده الكبيرة القوية رأس الغلام ذا الشعر المموج ثم قال بصوت أشد رقة من صوت سيده :

ـ اننى أكبر منك سنا • وأنا أرى كل ماسوف تصل اليه •• ان لديك كل شيء ياسيد جورج •• انك مثقف ، متميز ، تعرف القراءة والكتابة ، وسوف تكبر فتصبح رجلا عظيما متعلما ، صالحا ،وسوف يشعر جميع الذين حولك ، ووالدك ووالدتك بالفخر بك ! كن سيدا طيبا كأبيك ، ومتدينا كوالدتك •• تذكر خالقك فى أيام شبابك ياسيد جورج •

فقال جورج :

ـ لسوف أكون طيبا حقا ياعم توم •• أؤكد لك هذا •• سأكون من الدرجة الأولى وعليك ألا تفقد الأمل • لسوف أعيدك الى المزرعة فيما بعد • وكما قلت للعمة كلو فى هذا الصباح ، سأعيد بناء بيتك من جديد ، وستكون لك فيه غرفة استقبال بطنفسة عندما أكبر •• لسوف ترى أياما سعيدة فى المستقبل •

وعندئذ أقبل هالى الى باب الدكان والقيد الحديدى بين يديه ، فقال له جورج فى ترفع شديد وهو يهبط من المركبة :

ـ اسمع الآن ياهذا • لسوف أجعل أبى وأمى يعرفان كيف تعامل العم توم •

ـ مرحبا بذلك •

فقال له جورج :

ـ أعتقد أنه ينبغى أن تشعر بالخجل من نفسك وأنت تقضى

حياتك كلها فى شراء الرجال والنساء وتقييدهم بالأغلال كالماشية ! أعتقد أنك لا شك تحس بالدناءة ٠

فرد عليه هالى قائلا :

ـ ما دام قومك من الكبراء فى حاجة لشراء الرجـــال والنساء ، فأنا طيب مثلهم ٠ وليس فى بيعهم من الدناءة أكثر مما فى شرائهم ٠

فقال جورج :

ـ اننى حين أكون رجلا لن أفعل هـذا ولا ذاك ٠ وأنا اليـــوم أشعر بالخجل لأننى من أهل كنتكى مع أنى كنت دائمـــا فخورا بذلك من قبل ٠

وجلس جورج منتصبا على جواده ، وتلفت حوله فى ترفع كأنما يتوقع أن يرى أثر حديثه على الولاية كلها ، وأخيرا قال :

ـ وداعا ياعم توم ٠٠ احتفظ بشجاعتك دائما ٠

فقال توم وهو ينظر اليه فى اعزاز واعجاب :

ـ وداعا يا سيد جورج ٠٠ بارك الله فيك ! ليس فى كنتكى الكثير من أمثالك ٠

قال ذلك بملء قلبه عندما غاب عن ناظره وجه الصبى الصريح ٠ وظل يبتعد ، وظل توم يشيعه بنظراته حتى تلاشت دقدقة حـوافر الجواد ، وتلاشى معها آخر منظر وآخر صـوت من موطنه ٠ ولـكنه خال أن فوق قلبه مكانا دافئا حيث وضعت تلك الأيدى الصـــغيرة الدولار الثمين ٠ ورفع توم يده وقربه من قلبه ٠

وقال هالى وهو يقبل على المركبة ويلقى بالقيد الحديدى فيها :

ـ اسمع الآن ياتوم ٠٠ لسوف أبدأ معاملتى معك بالحسنى ، كما أفعل عادة مع زنوجى ٠ انى أقول لك من أول الأمر أن لابد لك أن تعاملنى بالمعاملة التى أنا خليق بها وسأعاملك أنا بمـــا يليق بك ٠ فأنا لا أقســـو أبدا على زنوجى ٠ اننى أحـــاول أن أبذل أحسن

ما أستطيع من أجلهم • وعليك الآن أن تستقر فى أمان ، وألا تحاول معى احدى ألاعيبك ، لأنى أعرف جميع ألاعيب الزنوج ، فلا جدوى من محاولتها • فاذا كان الزنوج هادئين ، ولا يحاولون الهرب ،فانهم يقضون معى أحسن الأوقات أما اذا لم يكونوا كذلك •• فان الذنب واقع عليهم لا على •

وأكد توم لهالى أنه ليس فى نيته الهرب فى الوقت الحاضر ، وبدا أن هذا النصح من نافلة القول لأنه موجه الى رجل فى قدميه أغلال ثقيلة من الحديد ، ولـــكن المستر هالى كان معتادا أن يبـدأ علاقته « ببضائعه » بشىء قليل من النصح على هذا النحو يريد به أن يبعث فيهم الانشراح والثقة ، وأن يمنع ما عساه أن يحدث من شىء غـير مستحب فيما بعد •

وهنا ، نطوى صحيفة توم الى حين لنتتبع مصير غيره من الشخصيات فى قصتنا •

الفصل الحادي عشر

وفيه تعانى « الملكية » من حالة عقلية منحرفة

كانت ساعة متأخرة من أصيل يوم مطير عندما هبط مسافر أمام باب فندق ريفى صغير فى قرية « ن » بولاية كنتكى . وفى غرفة الشراب وجد مجموعة شتى من الناس مجتمعين بعد أن دفعت بهم رداءة الجو الى التماس الملاذ . وكان المكان يمثل المنظر المعتاد لمثل هذه الاجتماعات كان فيه جماعة من أهل كنتكى ضخام الأجسام طوال عراض فى قمصان الصيد ، مسترخين بمفاصلهم الطويلة فوق مساحات كبيرة ، وفى أوضاع فريدة تنم عن خصائص جنسهم ، وبنادق مكدسة فى ركن ، وحوافظ الذخيرة وحقائب الصيد ، وكلاب المطاردة ، وزنوج صغار ، مكومين كلهم فى الأركان . وكان هؤلاء وهؤلاء جميعا ، الظاهرة التقليدية فى الصورة . والى كل طرف من المدفأة جلس سيد طويل الساقين ، متراجعا بمقعده الى الوراء ، وقبعته على رأسه ، وكعبا حذائه الموحل على سجادة المدفأة ـ وهو وضع ، سنقول عنه للقراء ، انه جد أثير فى لحظات التأمل والتفكير بالحانات الغربية ، حيث يفضل المسافرون أن يتخذوه للارتفاع بمستوى تفكيرهم وتأملاتهم .

وكان صاحب الحانة ، الواقف وراء منصة الشراب ، كمعظم مواطنيه ، ضخم الجسم ، طيب القلب مسترخى الأطراف ، وذا خصلة ضخمة من الشعر على رأسه ، تقوم عليها قبعة طويلة كبيرة .

والحق أن كل من بالغرفة كان يضع على رأسه هذا الرمز الخاص لسلطة الرجل ، وسواء كانت قبعة من الفلين أو خوص النخيل أوجلد السمور القذر أو الجوخ الجديد الممتاز ، فانها كانت تستقر هناك فى وضع ينم عن روح الاستقلال الجمهورى الحق . وهى فى الحقيقة

تبدو الطابع المميز لكل فرد · فان بعضهم يرتدونها مائلة فى خيلاء الى أحد الجانبين ، وهؤلاء هم المرحـون اللطاف اللاهون ، وبعضهم يضغطونها بلا حساب فوق أنوفهم ، وهؤلاء من ذوى الطباع الجافية المحافظة الذين لا يرتدون قبعاتهم الا لأنهم يريدون أن يظهروا بها· وأن يظلوا يرتدونهـــا ما داموا يرغبون فى ذلك · وهنـــاك الذين يزحلقون قبعاتهم الى الوراء ·· انهم الرجال المتيقظون الذين يهدفون الى الطريق الواضح للنجاح · أما الرجال المهملون أو الجـاهلون أو المستهترون ، فانهم يضعون قبعاتهم على رءوسهم كيفما يكون ، ولا يكفون عن تحريكها فى كل اتجـــاه ، والواقع أن أنواع القبعـات تعتبر من الدراسات التى لا تقل صعوبة عن دراسات شكسبير ·

وكان الزنوج المتبـــاينون بسراويلهم الفضفاضة ، وقمصـــانهم البسيطة متفرقين هنا وهناك دون أن تؤدى أعمالهم الى نتائج فريدة الا استعدادهم الطبيعى لتحويل كل فائدة ممكنة لصـالح سـيدهم وضيوفه · ويضاف الى هذه الصورة منظر النـار المبهجة المتأججة التى يرتفع لهيبها الى مدخنة كبيرة واسعة · وكان الباب الخارجى مفتوحا على مصراعيه وكذلك كل نافذة ، وكانت سـتائر النوافذ القطنية ترفرف وتصطفق بنسائم قوية من هواء رطب بارد ·· وبهذا كله يستطيع القارىء أن يتصور مدى ما فى حانات كنتكى من بهجة وامتاع ·

وان الواحد من أهل كنتكى فى هذه الأيام ليتمثل فيه عـلى أحسن وجه مبدأ الغرائز والخصائص المتوارثة · فقـد كان آباؤه صيادين أقوياء ــ رجالا عاشوا فى الغـابات والتحفوا بالسماء التى لا يحجبها عنهم غطاء واستضاءوا بالنجوم ، ولا يزال أبنـاؤهم حتى اليوم يتصرفون كأن البيوت مضارب ، فهم يرتدون القبعات فى كل وقت ، ويتعثرون فى كل مكان ، ويضعون كعوب أحذيتهم فى أعلى المقاعد وأرفف المدافىء ، كما كان يفعل آباؤهم وهم يتدحرجون على العشب الأخضر ويضعون أقدامهم بأحذيتهـــا على الأشجار وكتل الخشب · ويتركون ــ أى الأبناء ــ الأبواب والنوافذ مفتوحة صيفا وشتاء ، لكى يحصلوا على هواء يكفى لرئاتهم الضـخمة ، ويسمون

كل انسان « بالغريب » فى شىء من الاستخفاف المقرون بالسماحة ، وهم فى مجموعهم من أكثر بنى الانسان صراحة وبساطة ومرحا ٠

والى هذا الجمع الطليق السمح ، أقبل مسافرنا ٠ وكان رجلا قصيرا مكتنز البدن ، أنيق الملابس ، بوجه مستدير سمح ، وبمظهر ينم عن شىء من الاهتمام الخاص بالنفس ٠ وكان شديد الحرص على حقيبته ومظلته ، فأحضرهما معه الى الغرفة بنفسه ، رافضا فى اصرار وعناد كل ما عرضه عليه مختلف الخدم من مساعدات لحملهما عنه ٠ وتلفت فى جوانب غرفة الشراب بهيئة تنم عن القلق، ثم تراجع بنفائسه الى أدفأ ركن حيث وضعها تحت مقعده وجلس وراح ينظر فى شىء من التوجس الى ذلك الرجل الموقر الذى كان يزين بحذائه رف المدفأة ، والذى راح يبصق ذات اليمين وذات الشمال فى حيوية ونشاط كفيلين بازعاج سيد ضعيف الأعصاب حريص على حسن السلوك ٠

وقال ذلك السيد السالف الذكر وهو يطلق من فمه عصير مضغة تبغ فى اتجاه الوافد الجديد تحية له وتكريما

ــ اسمع أيها الغريب ٠٠ كيف حالك ؟

فأجاب الآخر وهو يروغ ــ فى ذعر ــ من تلك التحية المزعجة

ــ لا بأس ٠

فقال المتحدث وهو يتناول من جيبه شقة من التبغ وسكينا طويلا:

ــ أثمة أخبار ؟

فأجابه الرجل :

ــ لا ٠ لا أعرف أخبارا معينة ٠

فقال المتحدث الأول وهو يقدم فى مودة واخاء قطعة من التبغ للرجل الغريب :

ــ امضغ هذه ٠

فأجابه هذا وهو يبتعد عنه قليلا

ـ لا ٠٠ شكرا لك ان هذا لا يناسبنى ٠

فقال الآخر ببساطة وهو يضع القطعة فى فمه ليحافظ على مدد من عصير التبغ لصالح المجتمع العام :

ـ ألا تناسبك ؟ اه !

وكان السيد العجوز ينزعج بعض الشىء كلما أطلق صاحبه الطويل بصاق تبغه ناحيته ، ولما لاحظ صاحبه هذا ، تحول فى سماحة بالغة بقذائفه الى منطقة أخرى ، وشرع يوجهها الى أحد أسياخ المدفأة الحديدية ويظهر فى ذلك درجة من الموهبة العسكرية تكفى للاستيلاء على مدينة ٠ فسأله السيد العجوز حين لاحظ أن بعض المجتمعين تحلقوا فى مجموعة حول ورقة اعلان كبيرة

ـ ما هذا ؟!

فقال أحد المجتمعين بايجاز :

ـ اعلان عن هرب أحد الزنوج ٠

ونهض المستر ويلسون ـ وهذا اسم السيد العجوز ـ ، وبعد أن أصلح أمر الحقيبة والمظلة بعناية ، شرع فى تمهل يتناول منظاره ويضعه على أنفه ، حتى اذا أتم هذه العملية ، بدأ يقرأ

« هرب من ناشر الاعلان ، العبد الخلاسى جورج ٠ وجورج المذكور طوله ستة أقدام ، ولونه خلاسى فاتح جدا ، وشعره بنى متموج ، شديد الذكاء ، طلق الحديث ، يقرأ ويكتب ٠ من المحتمل أنه سيحاول الظهور أمام الناس كأنه رجل أبيض ، على ظهره وكتفيه آثار جراح عميقة ، وموسوم على يده اليمنى بالحرف « هـ » ٠ وانى على استعداد لدفع أربعمائة دولار لمن يقبض عليه حيا ، وتقديم نفس المبلغ لمن يثبت بالبراهين المقنعة أنه قتل »

وقرأ السيد العجوز هذا الاعلان من أوله الى آخره بصوت خفيض كأنه يريد أن يحفظه ٠ أما صاحبنا الطويل الساقين الذى كان

يحاصر بقذائفه سيخ المدفأة ، كما سبق القول ، فقد نهض بقامته الطويلة واقفا ، وسار الى الاعلان ، ثم أطلق عليه في تعمد واضح قذيفة من عصير تبغه ، ثم قال بايجاز قبل أن يعود الى مجلسه :

ـ هذا هو رأيي في هذا الاعلان ٠

فقال صاحب الحانة

ـ عجبا الآن أيها الغريب ٠ لماذا تفعل هذا ؟

ـ انى على استعداد لأن أبصق أيضا على كاتب هذه الورقة لو كان هنا ٠

قال الرجل الطويل هذه العبارة بهدوء وقد عاد الى عمليته القديمة فى تقطيع التبغ ، ثم مضى يقول :

ـ ان أى رجل يمتلك غلاما له هذه الصفات ، ثم لا يحسن معاملته ، يستحق أن يفقده ٠ ان مثل هذه الاعلانات عار على كنتكي ، هذا هو رأيى الصريح اذا أراد أحد أن يعلمه ٠

فقال صاحب الحانة وهو يسجل شيئا فى دفتره :

ـ تلك حقيقة بلا ريب ٠

فقال الرجل الطويل وهو يواصل الهجوم على سياج المدفأة

ـ ان لدى عصابة من العبيد ٠ وكل ما أقوله لهم هو « اجروا يا أولاد ! احفروا ! ضعوا البذور حينما تريدون ! ٠٠ فلن آتى قط لأشرف عليكم ! » وبهذه الطريقة أحتفظ بهم ٠ انك اذا تركتهم يشعرون بأن لهم الحرية فى الهرب ، فانهم سيفقدون الرغبة فيه ٠ وأكثر من هذا فقد سجلت مستندات تحريرهم من الرق اذا ما أفلست يوما ٠ وهم يعرفون هذه الحقيقة ٠ وأؤكد لك أيها الغريب أنه لا يوجد فى هذه النواحي شخص يستفيد من عبيده كما أستفيد أنا ٠ عجبا ٠٠ لقد أرسلت عبيدى الى ولاية سنسناتى ومعهم عدد من الجياد تساوى خمسمائة دولار ٠ وقد جاءوا بالثمن كاملا الى ، وتكرر هذا مرة بعد أخرى ٠ وحق لهم أن يفعلوا هذا ٠ فاذا عاملتهم

كأنهم كلاب حصلت منهم على أعمال الكلاب وتصرفاتها أما اذا عاملتهم معاملة الرجال فسوف تظفر منهم بأعمال الرجال ٠

وأطلق المتحدث ، في غمرة الحماس ، وابلا من قذائف فمه الى نار المدفأة تأكيدا لحديثه ٠

وقال المستر ويلسون

ـ أعتقد أنك على صواب أيها الصديق ٠ وان العبد الموصوف هنا رجل ممتاز كما يبدو ، لا شك فى ذلك ، لقد اشتغل فى مصنع للتعبئة أمتلكه ، نحو اثنتى عشرة سنة ٠ وكان أحسن عمالى ٠ انه شاب نابغة أيضا ٠٠ اخترع آلة لتنظيف التيل ٠ وهى آلة قيمة حقا ، وتستعمل الآن فى مصانع كثيرة ٠ وان سيده ليمتلك حق امتيازها ٠

فقال الرجل الطويل تاجر الماشية :

ـ أؤكد لك انه يحتفظ بحق الامتياز ويظفر منه بالمال ثم يستدير ويسم بالنار يد الشاب اليمنى ٠ ولو أتيحت لى فرصة طيبة ، لوسمت يده لكى يحمل هذا الوسم ردحا من الوقت ٠

وقال رجل غليظ المنظر من الجانب الآخر فى الغرفة :

ـ ان هؤلاء العبيد المتعلمين يكونون دائما متكبرين ومترفعين ، وهذا ما يدعو الى الاساءة اليهم ، والقسوة عليهم ٠٠ ولو أنهم أحسنوا السلوك لما حدث لهم شىء ٠

فقال تاجر الماشية بجفاء واستخفاف :

ـ كأنك تريد أن تقول ان الله خلقهم بشرا وأنت تحاول أن تمسخهم حيوانات ٠

فمضى الآخر يقول وهو لا يحس بسبب بلادته الطبيعية ، باستهجان خصمه :

ـ ان الزنوج الأذكياء لا يصلحون لأسيادهم فى شىء ، فما جدوى

النبوغ وما الى هذا فيهم إذا كنت أنت لا تستطيع الاستفادة منهم ؟ بل ان كل الفائدة التى يحصلون عليها بنبوغهم هى العمل على خداعك . كان لدي واحد أو اثنان من أمثال هؤلاء العبيد ، وقد بعتهما فى أدنى النهر .. لأنى كنت أعلم أننى سأفقدهما عاجلا أو آجلا اذا لم أبعهما .

فقال تاجر الماشية :

ـ الأحسن أن ترسل التعليمات الى الله ليصنع لك مجموعة خاصة بلا أرواح أو مشاعر اطلاقا .

وهنا قطعت المحادثة لاقتراب مركبة صغيرة بجواد واحد من الحانة . وكان لها مظهر راق ، وكان فى مقعدها رجل أنيق الثياب رفيع المظهر مع خادم ملون يقودها له .

وأخذ الجمع كله يفحص القادم الجديد بذلك الاهتمام الذى يفحص به عادة جماعة من المتسكعين فى يوم مطير . كان طويلا جدا ذا بشرة اسبانية سمراء ، وعينين سوداوين جميلتين تعبران عما وراءهما ، وشعر قصير مموج ، أسود لامع أيضا . وكان بنفه الأقنى الجميل الشكل ، وشفتاه الرقيقتان المستقيمتان ، وأطرافه القوية المفتولة قد أثارت كلها فى جميع الموجودين من فورهم الشعور بأنهم أمام شخص غير عادى . وسار ودخل الحانة ببساطة بين المجتمعين ، وأومأ برأسه الى خادم الحانة مشيرا بذلك الى المكان الذى يضع فيه حقيبة سفره ، ثم انحنى للموجودين والقبعة فى يده ، وسار متمهلا الى منصة الشراب ، وذكر اسمه « هنرى بتلر » ، من ولاية أوكلاند ، منطقة شلبى ، وبعد أن استدار فى غير اهتمام ، مضى الى الاعلان وراح يقرؤه ، ثم قال لخادمه :

ـ جيم .. يخيل لى أنى التقيت بشاب تنطبق عليه بعض هذه الأوصاف فى حانة برمان .. أليس كذلك ؟

فقال جيم :

ـ نعم ياسيد .. ولكننى لست واثقا تماما من العلامة التى على يده .

فقال الغريب وهو يتثاءب بلا اهتمام :

ــ اننى لم أنظر الى يده طبعا ٠

ثم سار الى صاحب الحانة وطلب اليه أن يعد له غرفة خاصة لأن لديه بعض رسائل يريد كتابتها فورا ٠

وبدا الاهتمام الشديد على صاحب الحانة ، وانطلق جمع الخدم من الزنوج الذين يبلغ عددهم نحو سبعة ، كبارا وصغارا ، ذكورا واناثا ، أطفالا وبالغين ، ينفذون التعليمات بحماسة ، ويندفعون هنا وهناك مهرولين ، يدوس بعضهم على أقدام البعض ، ويتعثر بعضهم فى بعض لفرط اهتمامهم باعداد الغرفة للسيد ٠ هذا بينما كان هو يجلس مسترخيا على مقعد فى وسط الغرفة ، ويشتبك فى الحديث مع الرجل الجالس بجواره ٠

وكان رجل الأعمال المستر ويلسون يتأمل الغريب ، منذ دخوله، فى شىء من الفضول المقرون بالقلق والاضطراب ٠ لقد بدا له أنه رآه وتعرف به فى مكان ما ولكنه لا يتذكره ٠ وكان بعد كل فترة لا تطول أكثر من لحظات ، كلما تحدث الرجل أو تحرك أو ابتسم ، يضطرب هو ويثبت نظراته عليه ، ثم يشيح بها فجأة حين تلتقى بها عينا الرجل الغريب السوداوان المتألقتان ، فى برود وهدوء ٠ وأخيرا بدا أن وميض التذكر قد التمع فى ذهنه فجأة ، لأنه حدج النظر الى الغريب فى شىء من الدهشة المريبة والانزعاج مما جعل الغريب يتقدم نحوه ويقول بلهجة من عرف هويته وهو يمد اليه يده :

ــ المستر ويلسون ، كما أظن ؟ معذرة ، اننى لم أتذكرك من قبل، ولكنى أرى انك تذكرنى فأنا المستر بتلر من ولاية أوكلاند ، منطقة شلبى ٠

فقال المستر ويلسون فى هيئة المتحدث أثناء الحلم :

ــ نعم ٠٠ نعم ٠٠ نعم ياسيدى ٠

وعندئذ أقبل غلام زنجى وأعلن أن الغرفة قد أعدت للسيد ٠٠ فقال السيد بغير مبالاة لخادمه :

ـ احمل الحقيبة اليها ياجيم ٠

ثم التفت الى المستر ويلسون وأضاف قائلا :

ـ أرغب فى الحديث اليك عن بعض الشئون بضع لحظات فى غرفتى اذا سمحت ٠

وتبعه المستر ويلسون كأنه شخص يمشى وهو نائم ٠ ومضى الاثنان الى غرفة كبيرة فى الطابق العلوى حيث كانت النار المضرمة حديثا تئز فى المدفأة ، وحيث كان عدد من الخدم يعملون بسرعة فى وضع اللمسات الأخيرة من الترتيبات ٠

ولما تم كل شىء ، وانصرف الخدم ، حرص الرجل الشاب على اغلاق الباب ووضع المفتاح فى جيبه ، ثم استدار وعقد ذراعيه على صدره وحدق النظر فى وجه المستر ويلسون الذى قال له

ـ جورج !

فأجابه الشاب قائلا :

ـ نعم جورج !

ـ لم يخطر هذا ببالى أبدا ٠

ـ اننى ، كما أظن ، قد أحسنت التنكر ٠

ومضى الشاب يقول وهو يبتسم :

ـ ان قليلا من زيت شجر الجوز قد جعل بشرتى الصفراء فى لون خمرى رقيق ، وقد صبغت شعرى باللون الأسود ، ومن ثم ترى أن أوصاف الاعلان لا تنطبق على ألبتة ٠

ـ ولكن هذه المغامرة التى تركبها ياجورج شديدة الخطرعليك٠٠ وما كنت لأشير عليك بها ٠

فقال جورج بنفس الابتسامة المترفعة :

ـ ان فى استطاعتى القيام بها على مسئوليتى الخاصة ٠

ونحن نذكر ، بهذه المناسبة ، أن جورج كان ينحدر من والد من الجنس الأبيض وكانت أمه واحدة من أتعس بنات جنسها ، تمتاز بجمال خالص جعلها مطمع شهوات مالكها ، وأما الأبناء قد لايعرفون لهم أبا . وقد ورث جورج عن أبيه المنحدر من أرفع الأسر فى كنتكى ، مجموعة من السمات الأوروبية وروحا عالية لا تلين . وتلقى عن أمه ذلك اللون الخلاسى الفاتح الذى تخفف منه عينان سوداوان جميلتان . وكان التغيير البسيط فى لون البشرة ولون شعره ، قد حوله الى هيئة الشخص الأسبانى التى بدا فيها عندئذ. ولما كانت رشاقة الحركة ورقة السلوك من الأمور المفطور عليها ، فانه لم يجد من العسير عليه أن يقوم بهذا الدور الخطير الذى اتخذه لنفسه .. دور السيد المسافر مع خادمه .

وراح المستر ويلسون ـ وهو سيد طاعن فى السن طيب القلب وان كان ملولا حريصا ـ يذرع الغرفة جيئة وذهابا وكأنه ـ كما يقول جون بنيان ـ « كثير الصعود والهبوط فى ذات نفسه » متحيرا بين رغبته فى مساعدة جورج ، وبين احساس مضطرب بوجوب التمسك بنصوص القانون والنظام ، ومن ثم أعرب عن ذات نفسه وهو لا يزال يضطرب جيئة ورواحا ، قائلا :

ـ أظن ياجورج أنك هارب ، تاركا سيدك الشرعى ـ جورج ، اننى لا أعجب من هذا ـ ولكنى فى الوقت نفسه آسف له ـ جورج .. نعم .. يجب يقينا أن أقول هذا ـ فان واجبى أن أصارحك به.

فقال جورج بهدوء :

ـ ولماذا تأسف ياسيدى ؟

ـ عجبا .. لأنى أراك ، كأنك تعمل على مخالفة قوانين بلادك .

فقال جورج فى لهجة عنيفة مريرة :

ـ بلادى ؟ أى بلد لى غير القبر ! وانى لأتمنى على الله لو أنى كنت فيه .

ـ عجبا ياجورج .. لا .. لا .. ان هذا لا يجدى ، وان هذا

اللون من الحديث ، لاثم ، مخالف للدين • حقـا ياجورج ان لك سيدا قاسيا •• انه في الواقع كذلك •• وقد أسـاء التصرف معك بلا سبب معقول • وأنا لا أستطيع التظاهر بالدفاع عنه • ولـكنك تعرف كيف أمر الملاك هاجر بالعودة الى سيدتها والخضوع لها •كما أعاد الرسول العبد أنسيمس الى سيده •

فقال جورج بنظرات غاضبة :

ـ لا تستشهد بالكتاب المقدس أمامي على هذا النحو • لا تفعل•• لأن زوجتي مسـيحية ، وأنا أنوى أن أكون كذلك اذا ما أتيحت لي الفرصة ، أما اذا استشهدت بالكتاب المقدس لشخص في ظروفي ، فان هذا كفيل بعدوله عن هـذه النية • انني أرفع أمري الى الله القدير ـ اني مستعد لوضع قضيتي بين يديه لأسأله هل أنا مخطىء في سعيي الى الحرية •

فقال الرجل الطيب وهو يتمخط :

ـ ان هذه المشاعر طبيعية ياجورج •• نعم •• انهـا طبيعية • ولكن من واجبي ألا أشجعك على التمادي فيها • نعم ياولدي ••انني أرثى لحالك الآن • ان حالتك سيئة •• سيئة جدا • ولكن رسول المسيح يقول ان كل انسان يجب أن يرضى بما قسم له ، وينبغي لنا جميعا أن نخضع لتصرفات القدر ياجورج •• ألا ترى هذا !

فقال جورج وهـو واقف ورأسـه منحن الى الوراء ، وذراعاه معقودتان بقوة على صدره ، وابتسامة مريرة على شفتيه :

ـ لست أدري يامستر ويلسـون ، كيف تكون حالك اذا جاء الهنود الحمر وانتزعوك أسيرا من بين أولادك وزوجتك ، وأرادوا أن يحتفظوا بك لتطحن القمح لهم طوال حياتك •انك اذا رأيت الواجب يقتضيك الخضوع لما قدر عليك ، فأنا أرى أيضا أنك ستظن أن أول جواد شارد يقع بين يديك للهرب به ، دليلا على العنـاية الالهية • أليس ذلك صحيحا ؟

وحملق السيد العجوز الضئيل الجسم بنظرات شاردة في جورج

وهو يشرح الأمر على هذا النحو ٠ ولكنه وان لم يكن منطقيا بتفكيره، قد أوتى ذلك الاحساس الذى لا يباريه فيه بعض المناطقة فى هذا الموضوع الخاص ـ وهو الاحساس بوجوب الصمت عندما لا يوجد ما يمكن أن يقال ـ ومن ثم وقف يمسح بيديه فى عناية على مظلته ـ ويبسط ويطوى كل ثنية فيها ويربت عليها ثم واصل نصائحه بطريقة عامة فقال :

ـ اسمع ياجورج ٠٠ أنت تعرف أننى كنت أقف دائما بجانبك ، وأيا كان ما قلت لك ، فقد قلته لصالحك ٠ وانه ليبدو لى الآن أنك مقدم على أمر خطير لا أمل لك فى اخراجه الى حيز الوجود ٠ فاذا قبض عليك، فان الأمر سيغدو أسوأ مما كان بكثير ٠ انهم سنيذلونك٠ ويقسون فى تعذيبك ، ثم يبيعونك فى أدنى النهر ٠

ـ اننى أعرف كل هذا يامستر ويلسون ٠٠ اننى حقا مقدم على أمر خطير ٠٠ ولكن ـ ثم فتح معطفه وكشف عن غدارتين وسكين كبير وقال

ـ انظر انى مستعد لهم ٠ ولن أذهب أبدا الى الجنوب ٠ واذا اضطررت الى هذا ، فانى أفضل الرقاد فى مقبرة على أرض حرة مساحتها ست أقدام ٠٠ وستكون هذه أول أرض أمتلكها فى كنتكى وآخر ما أمتلك منها ٠

ـ عجبا يا جورج ٠٠ ان هذا التفكير رهيب ٠ انه يدفعك حقا الى أصعب الأمور ياجورج ٠ اننى أشعر بالقلق اذ أراك تنوى الخروج على قوانين بلادك ٠

ـ بلادى مرة أخرى ٠ ان لك بلدا يامستر ويلسون ، ولكن أى بلد لى ؟ أو لأى شخص مثلى ولد من أم جارية ؟ أية قوانين فى هذه البلاد تحمينا ؟ اننا لا نشرعها اننا لا نوافق عليها ، وليس لنا أى شأن بها ٠ ان كل ما تفعله هذه القوانين لنا ، هى أن تحطمنا وأن تبقى علينا أذلاء ٠ ألم أسمع أحاديثكم فى اليوم الرابع من شهر يوليه كل عام (*) ٠ ألا تقولون لنا ، مرة كل عام ، ان الحكومة

(*) عيد الاستقلال الامريكى (المترجم)

تستمد سلطتها العادلة من رضاء المحكومين ؟ ألا يستطيع الانسان أن يفكر وهو يسمع مثل هذه الأقوال ؟ ألا يستطيع أن يضيف هذا الى ذاك ويرى كيف تكون نتيجته ؟

وكانت عقلية المستر ويلسون من النوع الذى قد يجوز تشبيهه ببالة قطن : منفوشة ناعمة ، طيبة هشة ومضطربة . وكان يرثى لجورج فى قرارة نفسه ، ويدرك فى شىء من الغموض والابهام بعض ما يعترك فى صدره من مشاعر وانفعالات . ولكنه كان يرى أن واجبه يحتم عليه اسداء النصح له فى اصرار شديد .

ـ جورج .. ان هذا أمر خطير . وينبغى أن أحدثك حديث الصديق ، وأنا صديق لك كما تعلم . فأقول انه يحسن بك ألا يكون لك شأن بهذه الأفكار .. فهى أفكار خبيثة ياجورج .. جد خبيثة ضارة لمن كان فى مثل وضعك من الشبان .

ثم جلس المستر ويلسون الى المنضدة ، وبدأ ـ فى توتر عصبى ـ يعبث بمقبض مظلته بين أسنانه . أما جورج ، فقد قال وهو يتقدم نحوه ويجلس أمامه جلسة ذوى الحزم :

ـ اسمع يامستر ويلسون .. انظر الى الآن .. ألست وأنا جالس أمامك أبدو رجلا مثلك فى كل جارحة من جوارحى . انظر الى وجهى .. انظر الى يدى .. انظر الى جسمى .

وشد الشاب قامته بكبرياء ومضى يقول :

ـ لم لا أكون رجلا كأى انسان غيرى ؟ استمع يامستر ويلسون الى ما أقوله لك . لقد كان لى أب .. أب من السادة فى كنتكى ولايتكم .. لم يرنى جديرا بأن يحتفظ بى ويمنع بيعى مع الكلاب والجياد أداء لديون مزرعته بعد وفاته . لقد رأيت أمى وهى تعرض فى المزاد ببيت العمدة مع أبنائها السبعة . وقد بيعوا جميعا أمام عينيها الواحد بعد الآخر الى السادة ، سادة مختلفين . وكنت أنا أصغرهم .. وقد جاءت هى وركعت أمام سيدى الأول وابتهلت اليه أن يشتريها معى حتى تستطيع البقاء ـ على الأقل ـ مع أحد

أبنائها • ولكنه ركلها بحذائه الغليظ • وقد رأيته يفعل هـــذا • وكان آخر ما سمعت صراخها وأنينها عندما شـدنى الى عنق جواده وحملنى الى مقره •

ــ ثم ماذا ؟

ــ وعقد سيدى صفقة مع أحد الرجال ، فاشترى أختى الكبرى ، وكانت فتاة طيبة متدينة وعضوا فى الكنيسة المعمدانية ، وكانت قد نشئت على حسن التربيـــة وطيب السلوك ، وكنت فى أول الأمر سعيدا بشراء سيدى اياها ، لأنى سأجد بجانبى صديقا • ولكنى سرعان ما أسفت لهذا • لقـــد كنت أقف ياسيدى بجانب البـــاب وأسمعها وهى تجلد بالسوط ، وأحس كأن كل ضربة تمزق نيـــاط قلبى • ولم يكن فى وسعى أن أساعدها • وكانت تجلد ياســيدى لأنها تريد أن تعيش حياة شريفة متدينة من النوع الذى لا تسمح به قوانينكم للفتيات المستعبدات ، وأخيرا رأيتها تقيد بالسلاسل مع مجموعة من عبيد أحد النخاسين لترسل للبيع فى سوق أورليانز • لقد أرسلت هناك لهذا الغرض وحده ــ وكان هذا آخر عهدى بها ــ وكبرت أنا •• ومرت أعوام طوال ، وأعوام مثلها •• لا والد •• ولا أم •• ولا أخت ، ولا مخلوق حى يهتم بى أكثر من الاهتمام بكلب•• ولم أجد غير الجلد بالسياط ، والزجر ، والجوع • عجبا ياسيدى•• لقد كان الجوع يبلغ بى حدا يدفعنى الى التقاط العظام التى يلقون بها للكلاب ، ومع ذلك ، فعندما كنت غلاما صغيرا أقضى الليل كله فى البكاء والعويل لم يكن بكائى من الجوع ، لا ولا من آلام الضرب بالسياط ، لا ياســـيدى •• كنت أبكى على أمى وأخـــواتى • كنت أبكى لأنى محروم من أى صديق على وجه الأرض يحبنى • لم أعرف أبدا معنى السكينة والراحة •• لم أتلق أبدا كلمة عطف حتى جئت للعمل فى مصنعك • لقد أحسنت يامستر ويلسون معـــاملتى •• وشجعتنى كى أجيد العمل ، وأتعلم القراءة والكتـــابة ، وأحـــاول أن أرقى بنفسى •والله يعلم مدى عرفانى بجميلك هـــذا • ثم التقيت بالفتاة التى أصبحت زوجتى • وقد رأيتها ياسيدى ، وأنت تعرف كم هى جميلة • فلما تبينت أنها تحبنى ، ولما تزوجتها كنت لا أكاد

أومن بأنى على قيد الحياة ، فلشد ماكانت سعادتي يا سيدى ،ولشد ما كانت حلوة ، طيبة العشرة ، ولكن ••• ماذا حدث بعد ذلك ؟ لقد حدث أن جاء سيدى وانتزعنى من عملي ومن أصدقائى ومن كل من أحب ، وراح يطحنني طحنا في أعمال شاقة قذرة • ولماذا كل هذا ؟ لأنى كما يقول ، نسيت حقيقة أمرى ، ولهذا فهو يريد ــ كما يقول ــ أن يعلمنى أننى زنجي لاأكثر •وبعدهذا كله ،وآخر هذا كله، فرق بينى وبين زوجتى ، وقال ان علي أن أهجرها وأعيش مع امرأة أخرى ، وان قوانينكم هي التى تمنحه السلطة التى تمكنه من فعل هذا كله • مستر ويلسون ••فكر في هذا فقط • وهذا ما لا يرتضيه الله ولا الانسان فتصور هذا يامستر ويلسون • أليس في هذه الأعمال التى حطمت قلبى وقلوب أمي وأخواتي وزوجتى عمل واحد لم تجزه قوانينكم ولم تسمح لكل شخص أن يفعله في كنتكى ،دون أن يستطيع أحد أن يقول له •• لا • أتسمى هذه قوانين بلادى أنا ؟ ليس لى ياسيدى بلاد • كما أنه ليس لى أب • ولكنى سأعمل ليكون لى بلد • اننى لا أريد من بلادكم شيئا أكثر من أن تتركونى وشأنى• أخرج منها بسلام • وعندما أصل الى كندا حيث تمتلكني القوانين وتبسط على حمايتها ستكون تلك بلادى وسأطيع قوانينها ، أما اذا حاول شخص ما أن يمنعنى من هذا ، فليأخذ حذره ، لأننى انسان بائس • لسوف أكافح من أجل حريتى حتى النفس الأخير • انك تقول أن أباءك فعلوا هذا من أجل الحرية ،فاذا كانهذا حقهم ، فهو أيضا حقى •

وكان يدلى بهذا الحديث وهو جالس حينا على حافة المنضدة ، وحينا يذرع الغرفة جيئة وذهابا • وكان يدلى به والدموع تتساقط من عينيه وبنظرات كالشرر وبحركات تنم عن اليأس • فلا عجب ان لم يعد يطيقه ذلك السيد العجوز الطيب القلب الذى كان هذا الخطاب موجها اليه ، فاذا هو يخرجمن جيبه منديلا كبيرا من الحرير الأصفر يمسح عينيه ووجهه بحرارة ، وأخيرا انفجر قائلا على حين غرة :

ــ تبا لهم جميعا ••! ألم أكن دائما أقول هذا لأولئك العجائز

الملعونين الحمقى ! اننى أرجو ألا أكون ارتكبت خطيئة بمثل هـــذه الألفاظ .. امض فى طريقك ياجورج .. امض فى طريقك . ولكن كن على حذر ياولدى . لا تطلق النار على أحـــد ياجورج الا ــ بل الأفضل ألا تطلق النار أبدا . أو ، على الأقل ، لا تطلقها فى مقتل .

ثم أضاف قائلا وهو ينهض فى توتر عصبى ويروح فى الغـرفة ويجىء :

ــ وأين زوجتك يا جورج ؟

ــ هربت ياسيدى .. هربت وطفلها بين ذراعيها الى حيث لا يعلم أحد غير الله . ذهبت وراء نجم الشمال . ولن يســتطيع مخلوق أن يعلم متى أو أين نلتقى فى هذا العالم ان كان ثمة لقاء .

ــ عجبا ! أهذا ممكن ؟ أتهرب من أسرة طيبة كالنبى كانت معها ؟

ــ ان الأسر الشفيقة تغرق فى الديون أحيــانا ، وقوانين بلادك تسمح للسيد أن ينتزع الأطفال من صدور أمهاتهم ليبيعهم ويؤدى بأثمانهم ديونه .

وكان صوت جورج ينم عن المرارة وهو يقول هذا . أما السـيد العجوز فقد قال وهو يفتش فى جيبه ــ أظن أننى .. قد لا أحسن التدبير .. تبا لهذا .. ثم مضى يقول على حين غفلة:اننى لن أعمل بما يوحى به الى عقلى فى هذا الأمر .

ثم أخرج من جيبه رزمة أوراق مالية وقدمها لجورج ، وهو يقول:

ــ خذ هذه يا جورج .

فرد عليه جورج قائلا :

ــ لا . .ياسيدى الشــفيق . لقد أحسنت كثيرا الى ، وربمـا سبب لك هذا العمل متاعب .. ان لدى من المال ما يكفى ، وما أرجو أن يصل بى الى حيث أريد .

ــ بل يجب ياجورج .. ان المال نصير كبير فى كل مكان . ولا

يستطيع أحد أن يظفر منه بأكثر مما يشاء اذا كان يناله من طريق شريف • خذه •• أرجو أن تأخذه •• الآن •• خذه يا ولدى •

فقال جورج وهو يأخذ المال :

ـ سآخذه ياسيدى على شرط ، وهو أن أرده اليك فى وقت ما فى المستقبل ••

ـ والآن ياجورج •• الى أى مدى تنوى السفر على هذا النحو ؟ أرجو ألا تكون المسافة بعيدة جدا •• لقد نجحت فيما فعلت •• ولكنها جرأة أكثر مما يجب •• ومن هذا الشخص الأسود ؟

ـ انه زميل مخلص •• ذهب الى كندا منذ أكثر من عام • وقد سمع بعد وصوله اليها ، أن الغضب استبد بسيده لهربه بحيث جلد أمه بالسوط ، وقد عانى مشقة العودة ليواسيها ويعمل على اتاحة الفرصة لتهريبها •

ـ وهل نجح فى هذا ؟

ـ لم ينجح فى ذلك بعد •• لقد ظل يحوم حول مزرعة سيده ، ولكن الفرصة لم تسنح له بعد • وهو فى خلال هذا يصحبنى الى أعيو ليعهد بى الى بعض أصدقاء له عاونوه ثم يعود لتهريب أمه •

فقال الشيخ هذا أمر بالغ الخطورة •

فرفع جورج قامته وابتسم فى ترفع •

وراح السيد العجوز يفحصه بنظراته من رأسه الى قدميه فى عجب برىء ، ثم قال

ـ جورج •• ان شيئا أبرز مواهبك ابرازا عجيبا •• انك ترفع رأسك عاليا ، وتتحدث وتتصرف كرجل آخر •

فقال جورج بكبرياء :

ـ ذلك بأنى رجل حر • نعم ياسيدى •• لم أعد أعترف بسيادة رجل على • اننى حر ••

ـ كن على حذر ٠٠ فلست واثقا من هذا بعد ٠٠ فربما يقبضون عليك ٠

فقال جورج :

ـ ان جميع الناس أحرار متساوون فى القبر يامستر ويلسون ، اذا لم يكن من الأمر بد ٠

فقال المستر ويلسون :

ـ لقد أذهلتنى الى أقصى حد جرأتك التى دفعت بك الى هذا المكان حيث توجد أقرب حانة ٠

ـ ان هذه الجرأة يامستر ويلسون ، وقرب الحانة مما يجعل هذه الجرأة أبعد الأشياء عن تفكيرهم ، فهمسيبحثون عنى بعيدا عن هذا المكان ٠ وأنت نفسك لم تتعرف على بسهولة ٠ وسيد جيم لا يقيم فى هذه المنطقة ٠ انه غير معروف فى هذه النواحى ، وعدا هذا فقد يئس من العثور عليه ، وما من أحد يبحث عنه ، ولن يتعرف على أحد من الاعلان كما أظن !

ـ ولكن السمة التى على يدك ؟

فخلع جورج قفازه وكشف عن جرح حديث العهد بالالتئام وقال بازدراء :

ـ هذا هو الدليل على مبلغ اهتمام المستر هاريس بأمرى ٠٠فقد خطر له منذ أسبوعين أن يسمنى على يدى لأنه كما يقول يعتقد أننى سأحاول الهرب ذات يوم ٠٠ ان أثر الوسم يبدو مثيرا ٠٠ أليس كذلك ؟!

ثم عاد الى وضع يده فى القفاز ، قال المستر ويلسون

ـ أعترف أن البرودة تسرى فى دمائى كلما فكرت فى هذا كله٠٠ فى حالتك ٠٠ وفيما تتعرض له من المخاطر ٠

ومضى جورج يقول بعد لحظات قليلة من الصمت :

ـ ياسيدى الشفيق ٠٠ حين رأيت أنك تعرفت على ، فكرت فى أن أتبادل الحديث معك فى هذا الشأن خشية أن تكشف نظرتك المدهوشة أمرى ٠ ولسوف أرحل فى ساعة مبكرة ، قبل أن تشرق الشمس ٠ وأرجو قبل أن يقبل ليل الغد أن أكون نائما بسلام فى أهيو ٠ لسوف أمضى فى طريقى نهارا ، وأنزل فى أحسن الفنادق ، وأتناول الطعام مع السادة ملاك الأراضى ٠٠ والآن وداعا ياسيدى٠٠ اذا سمعت أنهم قبضوا على ، فاعلم أنى فى عداد الموتى ٠

ووقف جورج ثابتا كالصخرة ، ومد يده كما يفعل الأمراء ٠ وصافحه الرجل العجوز الضئيل الجسم الودود بحرارة ، وبعد أن أسدى اليه طائفة من النصائح لالتزام الحذر تناول مظلته والتمس طريقه الى خارج الغرفة ٠

ووقف جورج ينظر الى الباب وهو غارق فى تفكيره والرجل العجوز يغلقه ٠ وكأن فكرة قد لاحت له ، فتقدم بسرعة نحوه ففتحه ثم قال :

ـ مستر ويلسون ٠٠ استمع منى الى كلمة أخرى ٠

وعاد السيد العجوز الى الغرفة ، وأغلق جورج الباب بالمفتاح كما فعل من قبل ، ثم وقف برهة ينظر الى الأرض فى تردد ، وأخيرا رفع رأسه بجهد مفاجىء وقال :

ـ مستر ويلسون ٠٠ لقد أثبت بمعاملتك لى أنك انسان تخاف الله ٠ وأنا ألتمس منك صنيعا طيبا للمرة الأخيرة ٠

ـ نعم يا جورج ٠

ـ ياسيدى ٠٠ لقد أصبت فى قولك اننى مقدم على أمر خطير : وليس على وجه الأرض مخلوق حى يهتم بأمرى اذا مت ٠

ثم أضاف قائلا وهو يتنفس بجهد ويتحدث بمشقة بالغة :

ـ لسوف تركل جثتى بالأقدام وأدفن كما تدفن الكلاب ، ولن يفكر أحد فى يوما بعد ذلك الا زوجتى المسكينة ٠٠ ألا ما أشد بؤسها ٠ لسوف تبكى وتلبس الحداد على ٠ فاذا أمكنك ياسيدى

أن ترسل هذا الدبوس اليها ، أكون شاكرا ، لقد أعطته لي الطفلة المسكينة في يوم عيد الميلاد ٠

ثم مضى يقول في لهفة :

ـ أعطها اياه وقل لها انني ظللت أحبها الى آخر لحظة ٠ فهل أنت فاعل ذلك ؟ هل أنت فاعل ؟

فقال السيد العجوز ، وهو يتناول الدبوس ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع وسرت في صوته رجفة الحزن والأسى :

ـ لا شك أني فاعل أيها المسكين ٠

ـ قل لها هذا ولا تقل لها غير ان آخر ما أرجوه منهـا أن تذهب الى كندا اذا استطاعت الوصول اليها ٠ فمهما تكن شفقة سيدتهـا عليها ، ومهما يبلغ حبها لبيتها ، فقل لها ألا تعود ـ لأن الاستعباد ينتهي دائما بالتعاسة ٠ قل لها أن تربي ابننا ليكون رجـلا حرا ٠ وعندئذ لن يعاني في حياته مثلما عانيت أنا ٠ قل لها هذا يامستر ويلسون ٠٠ أأنت فاعل ؟

ـ نعم ياجورج ٠٠ سـأقول لها هذا ٠ ولكنني أعتقـد انك لن تموت ٠٠ تشجع ٠٠ فأنت شاب باسل ٠ ثق بالله ياجورج ٠٠ واني أتمنى من صميم قلبي أن تكتب لك السلامة ٠٠ وهذا ما أرجوه ٠٠

فقال جورج في مرارة لم يستطع بعدها الرجـل الشيخ مواصلة الحديث

ـ هل يوجد حقا اله تعتمد عليه ؟

فقال الرجل العجوز وهو يكاد ينتحب :

ـ أوه ٠٠ لا ٠٠ لا تقل هـذا يا ولدي ٠٠ ولا تجعله يتسرب الى مشاعرك ٠ ان الله موجود ولكن عقولنا لا تحيط به سبحانه ٠٠ وان الحق والعدل عند عرشه ٠٠ ان الله موجود ياجورج ٠٠ آمن به ٠٠ ثق فيه ٠٠ وأنا واثق أنه سيعينك ٠٠ لسوف تصلح الأمور في النهاية ، ان لم تكن في هذه الدنيا ، ففي الآخرة ٠

وكانت سماحة الرجل العجوز البسيط وتقواه الحقة قد أسبغت عليه الى حين الوقار والسلطان وهو يتحدث · فوقف جورج فجأة من مشيته وهو ذاهب جيئة وذهابا بالغرفة · وبعد أن فكر برهة ، قال بهدوء :

ـ شكرا لك على قولك هذا ياصديقي الطيب ·· لسوف أفكر فيما قلت ·

الفصل الثانى عشر

حادث مختار من حوادث تجارة مشروعة

« صوت سمع فى الرامة ، نوح وبكاء وعويل كثير. راحيل تبكى على أولادها ولا تريد أن تتعزى . »

مضى المستر هالى وتوم يتأرجحان فى مركبتهما وكل منهما مستغرق - الى حين - فى تأملاته . وكانت تأملات رجلين جالسين جنبا الى جنب من أعجب الأمور . انهما يجلسان على مقعد واحد ، ولهما نفس الأعين والآذان والأيدى وأعضاء الجسم على اختلاف أنواعها ، وتمر أمام أعينهما نفس المناظر ، ومع هذا فما أعجب المفارقات التى سوف نجدها فى تأملات كل منهما .

فالمستر هالى ، مثلا ، كان يفكر أولا فى طول توم وعرضه ، ومقدار ثمنه حين يباع اذا احتفظ به ممتلىء الجسم ، حسن الحال حتى يمضى به الى السوق . كان يفكر فى كيف يمكن أن يجمع زمرة من العبيد ، وفى أسعار السوق المرتفعة لهذه الشحنة المفترضة من الرجال والنساء والأطفال الذين ستتكون منهم ، وما الى هذا من شئون العمل الأخرى . ثم أخذ يفكر فى نفسه ، وفى مدى شفقته لأن غيره من الناس يقيدون أقدام زنوجهم وأيديهم بالسلاسل ، أما هو فيكتفى بوضع السلاسل فى قدمى توم ، تاركا له حرية استعمال يديه طالما كان يحسن السلوك . وتنهد وهو يفكر فى مدى جحود الطبيعة البشرية ، بحيث يمكن أن يوجد مجال للشك فى أن توم يقدر ألوان رحمته هذه أو لا يقدرها . لقد سبق أن غدر به « الزنوج » الذين أحسن معاملتهم ،ومع هذافانه يدهشه أنه بقى طيب القلب كما كان .

أما توم فقد كان يفكر فى بعض كلمات من كتاب قديم عفا عليه

الزمان ، ظلت تتزدد فى ذهنه المرة بعد الأخرى ، « لأنه ليس لناهنا مدينة باقية ، لكنا نطلب العتيدة !! .. » ان هذه الكلمات الموجودة فى كتاب قديم والتى حفظهـا بعض « الجهلة وغير المتعلمين » ظلت قوية التأثير ، على مدى الأيام ، وبطريقـة عجيبة بعض الشىء ، فى أذهان أناس فقراء بسطاء مثل توم . انها تهز الروح فى أعماقها ، وتثير ، كدوى النفير ، الشجاعة والنشاط والحماسة فى نفـوس لم يكن فيها من قبل غير ظلام اليأس .

وتناول المستر هالى من جيبه أشـتاتا من الصحف وبدأ يتصفح اعلاناتها فى اهتمام واستغراق . ولم يكن قارئا بليغا ، وانمـا كان معتادا أن يقرأ بطريقة القائية وبصوت عال الى حد ما ، وكأنما يريد أن تتثبت أذناه كما ترى عيناه ، وبهذا الصـوت راح يقرأ فى بطء الفقرة التاليه .

« بيع جبرى ـ للزنوج ! بناء على أمر المحكمـة سيباع فى يوم الثلاثاء العشرين من شـهر فبراير ، وأمام باب المحكمـة بمدينة واشنطن بولاية كنتكى الزنوج الآتية أسماؤهم بعد : هاجر سن ٦٠ سنة ، وجون سن ٣٠ سنة ، وبن سن ٢١ سنة ، وشاؤل سن ٢٥ سنة ، والبرت سن ١٤ سنة . وسيتم البيع لصالح الدائنين وورثة ضيعة المحترم جيسى بلانشفورد . »

منفذا البيع

صمويل موريس

وتوماس فلينت

وقال لتوم لمجرد الرغبة فى الحديث الى أى شخص :

ـ يجب أن أحضر هذا البيع . ذلك لأنى سوف أجمـع شحنة كبيرة معك ياتوم ، وسوف أشيع فيها الروح الاجتماعية والبهجـة والرغبة فى العلاقات الودية كما تعلم . ولهذا يجب أن نمضى قدما الى واشنطن أولا وقبل كل شىء . ثم أودعك السجن بعد ذلك ريثما أفرغ من هذه العملية .

وتلقى توم هذه المعلومات اللطيفة بخضوع تام ، وكل ما فعله أن أخذ يتسأل فى قرارة نفسه كم من هؤلاء الرجال المحكوم عليهم بالبيع لهم زوجات وأطفال ، وهل يحسون بما يحس به هو عند فراقهم ؟ وكان لا مندوحة من الاعتراف أيضا ، بأن هذه المعلومات — الطيبة — التى تلقاها عرضا عن القائه فى السجن لم تثر بأى حال احساس الرضا فى نفس الرجل المسكين الذى طالما أحس بالفخر لالتزامه طريق الشرف والاستقامة الذى اختطه لنفسه ٠ نعم ، فان توم — كما ينبغى أن نعترف — كان شديد الفخر بأمانته٠ وذلك لأنه لم يكن للمسكين شىء كثير يفخر به ٠ فلو أنه كان ينتمى الى طبقات أعلى فى المجتمع لما تدهور فيما نظن الى هذا الدرك الأسفل ٠ ومهما يكن من شىء فقد أخذ النهار ينصرم وجاء المساء ليجد هالى وتوم مستريحين فى واشنطن — أحدهما فى حانة ، والآخر فى سجن ٠

وفى نحو الحادية عشرة من صباح اليوم التالى ، تجمع أخلاط من الناس حول درج المحكمة يدخنون ، ويمضغون التبغ ، ويبصقون ويسبون ويتبادلون الحديث طبقا لمشاربهم وأذواقهم فى الحياة ٠ وكلهم فى انتظار بدء المزاد ٠ وكان الرجال والنساء المعروضون للبيع جالسين معا على مسافة من هؤلاء يتبادلون الحديث فى أصوات خافتة ٠ وكانت المرأة المعلن عن بيعها باسم هاجر افريقية من الطراز العادى فى ملامحها وقوامها ، ولعلها كانت فى الستين من عمرها ، ولكنها كانت تبدو أكبر سنا من هذا لما عانته من مشقة العمل والأمراض ٠ وكانت نصف عمياء ، أو عشواء ، كسيحة بعض الشىء بسبب داء الروماتزم ٠ ووقف بجانبها الابن الوحيد الذى تبقى لها ، البرت ، وكان غلاما ضئيل الجسم تبدو عليه ملامح الذكاء ، فى الرابعة عشرة ٠ وكان هو الوحيد الذى بقى على قيد الحياة من أسرة كبيرة بيع أفرادها تباعا فى أسواق بالجنوب ٠ وكانت الأم تتشبث به بكل مافى يديها المرتعشتين من قوة ، وتتطلع فى جزع شديد الى كل من يقترب نحوه ليفحصه ٠

وكان أكبر الرجال سنا يقول لها :

ـ لا تخافى يا عمتى هاجر · لقد تحدثت مع السـيد توماس عن هذا الأمر · وهو يرى أنه قد يستطيع أن يبيعك مع ابنك فى صفقة واحدة ·

وتقول وهى ترفع يديها المرتعشتين :

ـ لا حاجة بهم لأن يظنوا أنى لم أعد أصلح لشىء · فأنا لا زلت قادرة على طهو الطعام ومسح البلاط ، وجلو الأوانى · اننى جديرة بالشراء ، ولو بثمن بخس ·

ثم تضيف قائلة فى لهفة :

ـ قل لهم هذا · نعم قل لهم أنت هذا ·

وهنا يشق هالى طريقه بين المجتمعين ، ويمضى الى ذلك الرجـل ، ويشد فمه ويفتحه وينظر فيه ، ويتحسس أسنانه ، ويأمره بالوقوف مستقيما ، ثم يطلب اليـه أن يحنى ظهره ، وأن يقـوم بمختلف الحركات ليعرض عضلاته ، ثم تجاوزه الى الرجل التالى واختبره على هذا النحو ، حتى اذا وصل أخيرا الى الغلام ، أخذ يتحسس ذراعيه ويقيم يديه ، ويفحص بعينيه أصـابعه ، ويأمره بالقفز ليرى مدى خفته ومرونته ·

وقالت المرأة العجوز فى لهفة شديدة :

ـ انه لن يباع بدونى · أنا وهو سنباع صفقة واحدة · وأنا ما زلت قوية حقا يا سيدى ، أستطيع القيـام بأعمـال كثيرة ، كثيرة يا سيدى ·

فقال هالى بنظرة ازدراء :

ـ أتعملين فى الحقول ؟ هل هذا معقول ؟

وكأنما اقتنع بما أجراه من فحص ، فاذا هـو يعود الى مكانه ، ويروح ينظر وقد وقف ويداه فى جيبه ، ولفافة تبغ كبيرة فى فمه ، والقبعة مائلة على جبينه ، مستعد لبدء العمل ·

وقال رجل كان يتابع بنظراته فحص هالى للزنوج ، كأنمـا يريد

هو أن يقرر ما يفعل :

ـ ما رأيك فيهم ؟

فبصق هالى وأجاب قائلا :

ـ لا بأس . نسوف أزايد على صغار السن ، وعلى الغلام .

فقال الرجل :

ـ انهم يريدون أن يبيعوا المرأة العجوز وابنها معا .

ـ اذن فالأمر يستحق اعادة النظر . عجبا ! انهـا هيكل عظمى عتيق ، لا تساوى همها .

فقال الرجل :

ـ كأنك لن تشتريها اذن !

ـ ان من يشتريها أيا كان لأحمق . انها عشواء النظر ، وشبه كسيحة .وهى الى ذلك حمقاء أيضا .

فقال الرجل وهو يفكر

ـ ان البعض يشترون هـذه المخلوقات المسنة ثم يجدون أنهم أحسن حالا مما كانوا يظنون .

فقال هالى :

ـ ليس هذا رأيى ألبتة . اننى لا أقبلها ولو كانت مهداة الى..نعم.

ـ اه . من الشفقة عليها ألا تشترى مع ابنهـا ، فان قلبهـا فيما أظن يتلهف عليه . لنفرض أنهم سيبيعونها بثمن بخس !

فقال هالى :

ـ لا بأس فى هذا لمن معه مال يريد أن ينفقه على هذا النحو . أما أنا فسأزايد على الغلام ليعمل فى المزارع . ولكنى لن أشغل نفسى بهذه المرأة اطلاقا ، حتى لو منحوها لى بلا مقابل .

فأجابه الرجل :

ـ لسوف يحطمها اليأس ٠

فقال التاجر وهو رابط الجأش :

ـ طبعا ٠

وهنا قطعت المحادثة عندما ارتفعت الهمهمة بين المجتمعين ، واذا الدلال وهو رجل قصير القامة ، سريع الحركة ، يصطنع الأهمية لنفسه ، يشق طريقه بين المجتمعين ، بينما كتمت المرأة العجوز أنفاسها ، ودفعتها غريزتها الى التعلق بابنها وقالت

ـ ابق بالقرب من أمك يا ألبرت ٠ لا تبتعد ٠ لسوف يبيعوننا صفقة واحدة ٠

فقال الغلام :

ـ يا أماه ٠ أخشى ألا يحدث هذا ٠

فقالت العجوز المسكينة بعنف :

ـ لابد لهم أن يفعلوا يا ولدى ٠ والا فانى لا أستطيع الحياة على أى وضع ٠

وأعلن الدلال بصوته الجهورى الرنان ، بعد أن طلب الى الجميع افساح المجال ، ان المزاد على وشك الابتداء ٠ وأفسح المكان ،وبدأت المزايدة ٠ وسرعان ما بيع مختلف الرجال فى القائمة بأسعار دلت على زيادة الطلب فى السوق ٠ وقد رسا مزاد اثنين منهم على هالى ٠

وقال الدلال أخيرا للغلام وهو يلمسه بالمطرقة الصغيرة :

ـ قم الآن واعرض ميزاتك ٠

وصاحت الأم العجوز وهى تتشبث بابنها فى عزم :

ـ اعرضنا معا ٠٠ معا نحن الأثنين ٠ أرجوك أيها السيد ٠

فقال الرجل بغلظة وهو يدفع يديها عن الغلام :

ـ ابتعدى · فدورك فى آخر المزاد · والآن اقفز أيها الزنجى ·

ثم دفــع بكلمة منه الغــلام الى منصــة العــرض · وارتفعت وراءه زفرة عميقة محزونة ، وتوقف الغــلام برهة ، وتلفت وراءه ، ولكن لم يكن ثمة وقت للتريث ، وانهمرت الدموع من عينيه الكبيرتين النجلاوين ، ثم صــعد الى منصة العرض فورا · وسرعــان ما أثار جسمه الجميل ، وأطرافه القوية ووجهه الصبوح المنافسة · واذا ستة من الأثمان تصل أذنى الدلال فى وقت واحد · وظل الغلام فى شىء من الخوف والقلق ينظر من جانب الى جانب وهو يسمع الأصوات المتزايدة هنا ، ثم هنــاك ، حتى وقعت مطرقة الدلال · وظفر به هالى ، ودفع الغلام من منصة المزاد الى سيده الجديد ، الا أنه توقف برهة ونظر وراءه عندما بسطت أمه العجوز المسكينة يديها اليــه وكل جسمها يرتعد :

ـ اشترنى أيضا أيها السيد ، أناشدك الله العزيز · اشترنى ، والا فانى سأموت ·

فقال هالى وهو يستدير

ـ بل سوف تموتين اذا فعلت · هذه هى الحقيقة · لن أشتريك ·

وكانت المزايدة على المرأة العجوز المسكينة سريعة قصيرة ، فان الرجل الذى تحدث مع هالى ، والذى بدا غير مجرد من الرحمة كلها ، اشتراها بثمن زهيد · ثم ابتدأ الجمع يتفرق ·

وتحلق ضحايا المزاد البائسون الذين عاشوا معا فى مكان واحــد سنوات طوالا ، حول الأم العجوز البائسة التى كانت آلامهــا تثير الشجن فى نفس كل من يراها ·

وكانت تردد قولها المرة بعد الأخرى بصوت ينم عن انفطار قلبها :

ـ ألا يتركون لى واحدا من أبنائى ! لقد كان سيدى يقول دائمــا اننى سأحتفظ دائما بواحد ! وقد بر بوعده !

وقال لها أكبر العبيد سنا فى أسى :

ـ اعتمدي على الله يا عمتي هاجر ٠

فقالت الأم وهي تبكي بحرارة :

ـ وما جدوى هذا الآن ٠

فقال الابن :

ـ أماه ٠٠ أماه ٠٠ لا ٠ لا تقولي هذا ٠ يقولون ان سيدك الجديد رجل طيب ٠

ـ لست أبالي ، لست أبالي ، آه يا ألبرت ! آه ، ونـــدى ٠ انك آخر أبنائي ، أه يا الهى ٠ كيف أحتمل هذا ٠

وقال هالي بجفاء :

ـ هيا ابعدوها ٠ ألا يستطيع بعضكم ابعادها ؟ ان مضيها فيمـا تفعله لن يفيدها بشيء ٠

واستطاع كبار السن من الرجال بالاقنـــاع حينا وبالقوة حينا آخر أن يخلصوا الغلام من قبضة أمه العجوز اليائسة ، وأن يقودوها الى مركبة سيدها الجديد ، وهم يحاولون التخفيف عنها ٠

وقال هالي بعد أن جمع العبيد الثلاثة الذين اشتراهم ،وأخرج طائفة من القيود الحديدية وأخذ في تقييد معاصمهم بها ، وشد كل قيـد الى سلسلة حديدية طويلة ، ثم راح يدفع بهم الى السجن : « هيا »

وبعد أيام قليلة كان هالي جالسا في أمان مع من يملكهم من العبيد في احـــدى سفن نهر أهايو ، وكان هؤلاء هم الجـانب الأول من شحنته التي ستزداد ، كلما تقدمت السفينة في طريقها ، بســلع مختلفة من نفس النوع ، وهي السلع التي جمعها هو ، أو مندوبه ، في مختلف الأماكن على طول الشاطيء ٠

وكانت السفينة « لابل ريفيير » وهي من أجمـل وأصلح السفن التي مخرت عباب النهر المسمى باسمها ، تنساب الى أدنى النهر في اختيال تحت سماء صافية ، والعلم الأمريكي الحر بنجومه وشرائطه يرفرف فوقها ، بينما ازدحمت أفاريزها بسيدات أنيقات الملابس ،

وبالسادة ، الذين كانوا يتمشون ويستمتعون باليوم الجميل · لقد كانوا جميعا ناعمين بالحياة ، منتعشـــين ومبتهجين ، كانوا كلهم كذلك ما عدا عبيد هالى الذين ألقي بهم ، مـــع غيرهم من السـلع المشحونة على سطح السفينة الأسفل ، والذين كانوا ـ لسبب ما ـ غير مقدرين فيما يبــدو ما لهم من مزايا مختلفــة ، وهم جالســـون مجتمعين يتبادلون الحديث فى أصوات خافتة ·

وقال هالى لهم وهو مقبل نحوهم بنشاط :

ـ أيها الأولاد · أرجو أن تحتفظوا بروحكم المعنوية عالية ، وأن تنشروا البهجـــة بينكم · انني لا أريد وجوها كالحة ، أتفهمـون ؟ استجمعوا قواكم أيها الأولاد ، أحسنوا العمل معى ، وأنا أحسن معاملتكم ·

وأجاب الأولاد الموجه اليهم الحديث بالعبارة التى لا تتبدل أبدا « نعم أيها السيد » وهى العبارة التى ظلت على مدى الأجيال كلمة السر ترددها افريقيا المسكينة · ولكن ينبغى الاعتراف بأنهم لم يبد عليهم أنهم شديدو الانشراح ، لقد كانت تنتابهم الأفكار المختلفـة عن زوجاتهم وأمهاتهم وأخواتهم وأبنائهم الذين شاهدوهم لآخر مرة· ومع أن الذين قضوا عليهم على هـــذا النحو كانوا يطلبون اليهم أن يبتهجوا ، فان هذه البهجة لم تواتهم من فورها ·

وقالت « السلعة » المعروفة باسم « جون سن ٣٠ سنة » :

ـ ان لى زوجة ·

ثم وضع يده بقيدها الحديدى على ركبة توم ومضى يقول :

ـ وهى لا تعرف قط شيئا عن هذا · ألا ما أشد بؤسها من فتاة !

فقال له توم :

ـ وأين تقيم ؟

ـ فى حانة غير بعيدة من هنا ·

ثم أضاف الى ذلك قوله :

ــ أتمنى لو أراها مرة أخرى فى هذا العالم ٠

ألا ما أشد بؤسك يا جون ٠ لقدكان هذا الشعور غريزة فيه ٠ وان الدموع التى انهمرت من عينيه وهو يتحدث تتنثال من تلقاء نفسها وكأنما هو رجل أبيض ! وتنهد توم من قلب كليم ، وحاول بقــــدر ما فى طاقته الضعيفة أن يخفف عنه ٠

وكان فى أعلى السفينة آباء وأمهات وأزواج وزوجات وأطفـــال مرحون راقصون يتنقلون بينهم كأنهم فراشات كثيرة صغيرة ، وكان كل شيء يمضى فى راحة وهدوء ٠

وقال طفل جاء توا من أسفل السفينة :

ــ أماه ٠ ان فى هذه السفينة تاجر زنوج وقد وضع فى أسفلها أربعة أو خمسة منهم ٠

فقالت الأم بنبرات بين الحزن والاستنكار :

ــ ما أشد بؤس أولئك الخلائق !

فقالت سيدة أخرى :

ــ ماذا حدث ؟

فأجابت أم الطفل قائلة :

ــ ثمة عبيد مساكين فى أسفل السفينة ٠

وقال الغلام :

ــ وهم مقيدون بالأغلال ٠

وقالت سيدة أخرى :

ــ ألا ما أشد العار الذى يجلل بلادنا حين يسمح بعرض هــــذه المناظر على الملأ ٠

فقالت سيدة مهذبة كانت تجلس عند باب غرفتها الفخمة تخيط ثوبا بينما كانت ابنتها وابنها يلعبان حولها :

ـ يمكن أن يقال الشيء الكثير عن وجهتي النظر في هذا الموضوع. لقد رأيت الجنوب . وينبغي أن أقول انني أرى الزنوج هناك أحسن حالا مما لو كانوا أحرارا .

فقالت السيدة التي كانت ملاحظتها سببا في العبارة السابقة

ـ أعترف أنهم في حالة طيبة من بعض النواحي . ولكن أبشع جانب في الاستعباد والرق ، كما أعتقد ، هو استهانته بالمشاعر والعواطف ـ كالتفريق بين الأسر مثلا .

فقالت السيدة الأخرى وهي تستعرض ثوب طفل فرغت لتوها من اعداده وراحت تمعن النظر الى زركشته :

ـ انه لأمر كريه حقا ، ولكنني أظن أن هذا لا يحدث كثيرا .

فقالت السيدة الأولى في جد

ـ بل يحدث هذا كثيرا . لقد عشت سنوات طوالا في ولايتي كنتكي وفيرجينيا ، ورأيت مايكفي لتمزيق نياط القلب . افترضي يا سيدتي أن ابنيك هذين سينتزعان منك ويباعان .. ؟

فقالت السيدة وهي ترتب بعض خيوط الصوف على حجرها

ـ اننا لا نستطيع أن نقارن مشاعرنا بمشاعر هذه الطبقة من الناس .

فقالت السيدة الأولى بحرارة :

ـ حقا ياسيدتي ؟ انك حين تقولين هذا لا تعرفين شيئا عن مشاعرهم . لقد ولدت ونشأت بينهم . وأنا أعرف أنهم لا يقلون عنا في قوة شعورهم ، بل أشد احساسا منا .

فقالت السيدة وهي تتثاءب :

ـ أحق هذا ؟

ثم نظرت من نافذة المقصورة ، وأخيرا كررت ، على سبيل الختام، الملاحظة التي بدأت بها الحديث فقالت :

– على كل حال أعتقد أنهم أحسن حالا مما لو كانوا أحرارا ·

وهنا قال رجل من رجال الدين تبدو عليه سيماء الوقار ، يرتدي المسوح السوداء ، ويجلس بجانب باب مقصورته :

– لا شك أن ارادة مدبر الكون هي التي جعلت من الجنس الافريقي خدما فأبقت عليهم في حالة اجتماعية منحطة · وقد جاء في الكتاب المقدس « ملعون كنعان · عبد العبيد يكون لاخوته » ·

فقال رجل طويل كان واقفا عن كثب :

– قل لي أيها الغريب ، أهذا ما يعنيه ذلك النص ؟

– بلا شك · انه يسر العناية الالهية لأسباب غامضة ، أن نحكم على جنس معين بالرق منذ آماد عديدة ، وينبغي لنا ألا نعارض في ذلك ·

فقال الرجل :

– اذن سوف نستمر في شراء الزنوج اذا كان ذلك ما تريده العناية الالهية ·· أليس كذلك ياسيدي المحترم ؟

قال هذه العبارة الأخيرة وهو يلتفت الى هالي الذي كان واقفا ويداه في جيبيه ، بالقرب من المدفأة ، ينصت الى الحديث باهتمام بالغ ·

ومضى الرجل الطويل يقول :

– نعم · يجب علينا جميعا أن نخضع لأوامر مدبر الكون · ومن ثم يجب أن يباع الزنوج ، وأن يشردوا هنا وهناك ، وأن يبقوا أذلاء خاضعين ، فانهم لهذا كله خلقوا · ان آراءك على هذا النحو تبدو طيبة · أليس كذلك أيها الغريب ؟

وكانت العبارة الأخيرة موجهة مرة أخرى الى هالي الذي قال :

– انني لم أفكر في هذا أبدا · وما كان في مقدوري أن أقول هذا · فأنا لست مثقفا · وقد مارست هذه التجارة التماسا للرزق

لا غير ، فاذا لم تكن كمـــا ينبغى ، فانى آمل أن أتوب فى الوقت المناسب ، كما تعلم ٠

فقال الرجل الطويل :

ـ ولكنك الآن ستعفى نفسك من مشقة التفكير فى هذا الأمر بعد أن علمت بما جاء فى الكتاب المقدس ٠ فلو أنك درست ما ورد فى الكتاب المقدس كما فعل مثل هذا الرجل الصالح ، لعرفت ذلك من قبل ، ولوفرت على نفسك الكثير من القلق ٠ كان يكفى أن تقــول « ملعون ٠٠٠ » ما اسمه ؟ ، ثم اذا كل شىء كما ينبغى ٠

وجلس الرجل الطويل الغريب ـ الذى لم يكن غير تاجر الماشية الأمين الذى ســبق أن قدمناه الى القراء فى حانة كنتكي ـ وشرع يدخن وقد ارتسمت على وجهه الطويل المعروق إبتسامة عجيبة ٠

وهنا تدخل فى الحديث شاب طويل نحيف القوام ينم وجهه عن أمارات العطف والذكاء ، وردد هذه الكلمات قائلا :

« فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضا بهم»

ثم أضاف قائلا :

ـ أعتقد أن هذا أيضا جاء فى الكتاب المقدس ، كما جاءت هــذه العبارة : « ملعون كنعان ٠٠ »

فقال جون تاجر الماشية :

ـ معقول ٠ يبدو بوضوح أنها نص أيها الغريب ، على الأقل فى نظر أمثالنا المساكين ٠

ثم راح يدخن كالبركان ٠

وتلبث الشاب برهة ، وبدا كأنه يريد أن يقول أكثر ممــا قال ولكن السفينة وقفت فجأة ، واذا بالجميع يندفعون كعادتهم لـيروا أين رست بهم ٠

وقال جون لأحد الرجال وهم في طريقهم الى الخارج :

ـ هل كلاهما من رجال الدين ؟

وأومأ الرجل برأسه علامة على الايجاب ٠

ولما وقفت السفينة ، اندفعت امرأة سوداء فوق لوح العبور ومرقت بين الجميع ، وطارت الى حيث جلس العبيد ، وألقت بذراعيها حول عنق احدى « السلع » المشتراه باسم « جون سن ٣٠ سنة » وأخذت بالدموع وشهقات البكاء تندبه وترثيه رثاء الزوجة لزوجها٠

ولكن ما حاجتنا الى أن نسرد قصة ، طالما سردناها ، وفى كل يوم ذكرت ، عن قلوب محطمة ومقطعة النياط وعن الضعفاء حين يداسون ويطحنون كى يكسب الأقوياء وينعموا ! لا حاجة بنا لأن نروى هذه القصة ٠ فان كل يوم يرويها ٠٠ ويرويها أيضا فى أذن السميع العليم الذى يمهل ولا يهمل ٠

ووقف الشاب الذى سبق أن تحدث مؤيدا قضية الانسانية وقضاء الله ، عاقدا ذراعيه على صدره ، متطلعا الى هذا المنظر ٠ ولما استدار ، رأى هالى واقفا بجانبه ، فقال له بصوت كظيم :

ـ ياصديقى ! كيف تستطيع ، بل كيف تجرؤ على ممارسة هذه التجارة بهذا الشكل ؟ انظر الى هذه المخلوقات اليائسة ! فهأنذا أشعر بالبهجة تملأ قلبى لأنى فى طريقى الى زوجتى وبنى ٠ وان نفس الناقوس الذى يقربنى رنينه اليهما ، يفرق بين ذلك الرجل المسكين وزوجته الى أبد الدهر ٠ ثق أن الله سوف يحاسبك على هذا حسابا عسيرا ٠

واستدار التاجر وانصرف فى صمت ٠

وقال تاجر الماشية وهو يلمس مرفق هالى :

ـ يمكننى القول الآن ان هناك اختلافا بين رجال الدين ٠ أليس كذلك ؟ يبدو أن آية « ملعون كنعان » لا توافق مزاج ذلك القس ألا ترى هذا ؟

فغمغم هالى فى قلق ، وقال جون :

ـ وأسوأ من هذا ، أن هذه الآية لعلها لا ترضى الله أيضا عندما تذهب اليه ذات يوم ، كما نذهب جميعا على ما أظن !

ومضى هالى مفكرا الى الجانب الآخر من السفينة حيث راح يقول لنفسه :

ـ اذا ربحت كثيرا فى الشحنة التالية أو الشحنتين التاليتين ، فأعتقد أنى سأكف عن هذه التجارة هذا العام • فان الأمر يزداد خطرا بحق •

وتناول مفكرته وبدأ يراجع حساباته ، وهى عملية يراها كثير من السادة ، غير هالى ، مهدئة للضمير المضطرب •

وانسابت السفينة فى كبرياء بعيدا عن الشاطىء ، ومضى كل من فيها فى مرحهم كما كانوا يفعلون من قبل • وأخذ الرجال يتحدثون، ويتسكعون فى أنحائها ويقرءون ، ويدخنون • وعادت النساء الى الحياكة ، والأطفال الى اللعب •• ومضت السفينة فى طريقها قدما•

وفيما كانت راسية ذات يوم عند بلدة صغيرة بولاية كنتكى ، مضى هالى الى البلدة ليقوم بمهمة بسيطة خاصة بتجارته •

واقترب توم ، الذى كانت أغلاله تسمح له بالتجول قليلا ، نحو جانب السفينة ، ووقف متململا يحدق النظر من فوق السياج • ثم رأى التاجر بعد حين عائدا بخطوات نشيطة ومعه امرأة ملونة تحمل بين ذراعيها طفلا • وكانت حسنة الهندام ، يتبعها رجل ملون حاملا حقيبة سفر كبيرة • وتقدمت المرأة فى ابتهاج ، وهى تتحدث ، أثناء مسيرها ، مع الرجل الحامل للحقيبة • وعلى هذا النحو مرت فوق لوح العبور الى السفينة • وصلصل الجرس ، وصفرت الباخرة وجلجلت محركات السفينة ، ثم اذا هى تنساب الى أدنى النهر •

وسارت المرأة قدما بين الصناديق والبالات على السطح الأسفل ، حتى اذا جلست ، راحت تشغل نفسها بمناغاة طفلها •

وقام هالى بجولة أو جولتين فى داخل السفينة ، حتى اذا عاد ، جلس بجانب المرأة وشرع يتحدث اليها بشىء فى صوت خافت

نوعا ما ٠

وما لبث توم أن لاحظ أمارات الكآبة العميقة ترتسم على جبين المرأة ، وأنها كانت تجيب بسرعة وبعنف بالغ ٠

وسمعها تقول :

ـ انني لا أصدق هذا ٠ لا أصدق هذا ٠ انك تخدعني لا أكثر ٠

فقال هالى وهو يتناول من جيبه ورقة :

ـ اذا كنت لا تصدقينني ، فانظرى الى هذه ٠ انها وثيقة بيعك ٠ وهذا هو توقيع سيدك عليها ٠ وقد دفعت مبلغا ضخما ، نقدا وعدا، في هذه الصفقة أيضا ٠ أؤكد لك هذا ٠

فقالت المرأة في اضطراب متزايد :

ـ انني لا أصدق أن سيدى يخدعني على هذا النحو ٠ ان هـــذا لا يمكن أن يكون حقا ٠

ـ يمكنك أن تطلبى من أى رجل هنا يحسن القراءة ٠ هذا هو ٠

ثم قال لرجل كان مارا به :

ـ أرجو أن تقرأ هذه ٠ ان هذه الفتاة لا تصدقنى وأنا أقول لها عما فيها ٠

فقال الرجل :

ـ عجبا ! انها وثيقة بيع موقع عليها باسم جون فوزديك ،يعترف فيها بأنه باع لك الفتاة لوسى وطفلها ٠ انها في رأيى وثيقة صحيحة قانونية ٠

وجمع صراخ المرأة بصوتها المنفعل عددا من الركاب حـــولها ، وعندئذ شرح التاجر لهم ، بايجاز ، سبب اهتياجها ٠

فقالت المرأة :

ـ لقد قال لى انه سيمضى بى الى مدينة لويزفيل لأشتغل طاهية

فى نفس الحانة التى يعمل بها زوجى · وهـــذا ما قاله لى سيدى بنفسه · وأنا لا أستطيع أن أصدق أنه يكذب على ·

وقال رجل تبدو عليه طيبة القلب كان يفحص وثيقة البيع :

ـ ولكنه باعك يا فتاتى المسكينة · نعم · لقد فعل هذا بلا شك·

فقالت المرأة وقد هدأت فجأة ، ثم ضمت طفلها الى صدرها بقوة ، وجلست على حقيبتها ، واستدارت بظهرها الى الجميـع ، وشرعت تحدق الى النهر فى غير اكتراث :

ـ اذن لا جدوى من الحديث ·

وقال التاجر :

ـ ستأخذين الأمر أخيرا فى يسر ! فانك فتاة شجاعة ، كما أرى·

وبدت المرأة هادئة النفس أثناء انسياب السفينة قدما · ومرت على رأسها نســـمات صيف عليلة جميلة كالروح المواسية · انهـا النسمات الرقيقة التى لا تتساءل أبدا هل الجبين الذى تروحه مكفهر أم مشرق · ورأت الفتاة ضوء الشمس يتألق على صفحة الماء ، وفى المويجات الذهبيـة ، وسمعت الأصــوات المرحة الزاخرة بالرضى والسرور تتحدث حولها فى كل مكان ، ولكن قلبها كان مثقلا وكأنما حطت عليه صخرة · ورفع طفلها نفسه قبالتها وربت وجنتيها بيديه الصغيرتين وهو يتواثب الى أعلى وأســـفل ، زائطا مثرثرا وقد بدا كأنما قرر أن يثيرها · ثم ضمته اليها بقوة على حين غفلة ، وانحدرت دموعها ببطء الواحدة بعد الأخرى على وجهه البرىء المدهوش ، ثم أخذت تدريجيا ، وشيئا فشيئا ، تستكين الى الهـــدوء ، ثم شغلت نفسها بالاهتمام والعناية بالطفل ·

وكان الطفل ، وهو غلام فى الشهر العاشر من عمره ، كبير الحجم، قوى الجسم بالنسبة الى سنه ، كما كان شديد الحيوية بأطرافه · فهو لا يهدأ لحظة ، ولا يكف أبدا عن اشغال أمه بامساكه وحمايته من نشاطه الموفور ·

ووقف رجل أمامه فجأة وقال وهو يضع يديه فى جيبيه :

ـ انه لطفل جميل • كم عمره ؟

فقالت أمه :

ـ عشرة أشهر ونصف شهر •

وصفر الرجل للطفل ، وقدم اليه قطعة حلوى تلقفها بلهفة ، وسرعان ما دسها فى فمه وأخذ يتحلبها •

وقال الرجل :

ـ انه طفل ذكى يعرف ما ينبغى أن يفعل •

ثم صفر بشفتيه ومضى فى سبيله ، حتى اذا بلغ الجانب الآخر من السفينة ، التقى بهالى الذى كان يدخن وهو جالس فوق كومة من الصناديق •

وتناول الغريب عود ثقاب ، وأشعل لفافة كبيرة وهو يقول :

ـ انها فتاة من نوع لطيف تلك التى جئت بها هناك أيها الغريب•

فقال هالى وهو ينفث الدخان من فمه :

ـ نعم • أعتقد أنها لطيفة بعض اللطف •

فسأله الرجل :

ـ أذاهب بها الى الجنوب ؟

وأومأ هالى واستمر يدخن ، فعاد الرجل يقول :

ـ لتعمل فى المزارع ؟

فقال هالى :

ـ ربما • فانى أجمع عبيدا ، بأمر تكليف ، للعمل بالمزارع • وأظن أنى سأضمها الى الشحنة • وقد قالوا لى انها طاهية بارعة ، وفى مقدورهم أن يستخدموها فى هذا العمل أو يعهدوا اليها بجمع القطن ، فان لها الأصابع الملائمة لذلك • وقد رأيت هذا بنفسى • وسوف تباع ، فى كلتا الحالين ، بثمن مرتفع •

وعاد هالى الى التدخين ، وقال الرجل :

ـ انهم لن يوافقوا على وجود طفلها معها فى المزارع .

فقال هالى وهو يشعل لفافة أخرى كبيرة :

ـ سوف أبيعه فى أول فرصة سانحة .

فقال الغريب وهو يصعد كومة الصناديق ويجلس مستريحا :

ـ أعتقد أنك ستبيعه بثمن بخس .

ـ لا أدرى على وجه التحـــديد . انه طفل قوى ذكى بدين كـل جسمه عضلات .

ـ هذا حق ، ولكن تربيته تحتاج الى عناء ونفقات .

فرد عليه هالى :

ـ كلام فارغ . انهم يتربون بنفس البساطة التى تتربى بها أية مخلوقات أخرى . انهم ليسوا أكثر ازعاجا فى تربيتهم من الجراء . وان ذلك الطفل سوف يجرى فى كل مكان بعد شهر .

ـ ان لدى مكانا طيبا للتربية ، وقد خطر لى أن أزيد بضاعتى من العبيد الصغار . لقد فقدت احـــدى الطاهيات ابنها فى الأسـبوع الماضى ، بعد غرقه فى حوض الغســيل بينما كانت تنشر الملابس المغسولة . وأعتقد أنه من الخير أن نعهد اليها بتربية هذا الصغير .

وأخذ هالى والغريب يدخنان برهـــة فى صمت . وبدا كأن كلا منهما لا يريد أن يكون البادىء فى اعادة الحديث عن هذا الموضوع . وأخيرا عاد الرجل الى الحديث قائلا :

ـ لا أعتقد أنك ســـتطالب بأكثر من عشرة دولارات ثمنا لهـذا الطفل ، ولا سيما أنك تريد الخلاص منه بأى حال .

فهز هالى رأسه وبصق مستنكرا ثم قال وهو يعود الى التـدخين مرة أخرى :

ـ لا . هذا العرض لن يجدى البتة .

ـ اذن ماذا تريد ثمنا له أيها الغريب ؟

فقال هالى :

ـ أرى الآن أنه فى مقدورى تربية ذلك الطفل بنفسى ، أو تحت اشرافى • فهو موفور الصحة والوسامة ، ويمكن أن يباع بمائة دولار بعد ستة أشهر من اليوم ، ومن المنتظر أن يرتفع ثمنه بعـد عام أو عامين الى مائتى دولار اذا أنا أحسنت اختيار مكان تربيته • ولهـذا فأنا لا أقبل أقل من خمسين دولارا ثمنا له الآن •

فقال الرجل :

ـ أيها الغريب • هذا غير معقول !

فقال هالى بايماءة حاسمة من رأسه :

ـ لا جدال فى هذا !

فقال الغريب :

ـ سأدفع ثلاثين دولارا ثمنا له • ولا أزيد عليها شيئا •

فقال هالى بعزم ثابت جديد وهو يبصق مرة أخرى :

ـ الآن سأقول لك ما سوف أفعل ••لسوف أقتسم الفرق بيننا وأطالب بخمسة وأربعين دولارا ، وانهذا أقصى ما أستطيع أن أفعل•

فقال الرجل بعد برهة :

ـ لا بأس • موافق •

فقال هالى :

ـ اتفقنا •• أين تهبط ؟

فقال الرجل :

ـ فى لويزفيل •

فرد عليه هالى :

ـ لويزفيل ؟ عظيم جدا · لسوف نصل اليهـا حوالى الغروب · وسيكون الطفل عندئذ نائما · عظيم جدا ·أى سوف تأخذه بهدوء · فلا صراخ ولا عويل · نعم ، سيتم الأمر برفق · فأنا أحب القيـام بكل شىء فى هدوء ، وأكره كل أنواع الضجيج والاهتياج ·

ثم عاد هالى يدخن لفافته ، بعد انتقال عدة أوراق مالية من حافظة الرجل الى حافظة النخاس ·

وكان المساء هادئا صافيا عندما رست السفينة على رصيف ميناء لويزفيل وكانت المرأة جالسة وطفلها بين ذراعيها ، مستغرقا وقتئذ فى نوم عميق · فلما سمعت النداء على اسم المدينة ، وضعت طفلها بسرعة فى مهد صغير مكون من الفراغ الواقع بين الصناديق ، وذلك بعد أن بسطت تحته رداءها بعناية ، ثم وثبت الى جانب السـفينة وهى تأمل أن ترى زوجها بين مختلف خدام الحانة المتزاحمين عـلى الرصيف · وعلى هذا الأمل ، شقت طريقهـا الى السياج الأمامى للسفينة ، ومدت عينيها وراءه ، وحدقت النظرات بامعان الى الرءوس المتحركة على الشاطىء ، وهكذا تكاثر المتزاحمون بينها وبين طفلها·

وقال هالى وهو يلتقط الطفل النائم ويقدمه الى الغريب :

ـ هذا وقتك الآن · حذار أن توقظه أو تدفعه الى البكاء الآن والا واجهنا مع الفتاة موقفا عصيبا ·

وتناول الرجل الطفل بلفائفه فى عناية ، وسرعان ما اختفى بـين المتجمهرين على الشاطىء ·

ولما صرت السفينة وتململت وأطلقت أنفاسها دخانا وابتعدت عن الرصيف وأخذت تمضى ببطء فى طريقها ، عادت المرأة الى مكانهـا الأول حيث رأت النخاس جالسا ، دون أن ترى للطفل أثرا ·

وقالت فى دهشة حائرة :

ـ عجبا ! عجبا ! أين هو ؟

فقال النخاس :

– اسمعى يا لوسى · لقد ذهب ابنك ، ويحسن أن تعرفى هــذه الحقيقة سواء الآن أو فيما بعد · أترين ؟ انه لم يكن فى مقدورك أن تمضى به الى الجنوب ، وقد أتيحت لى الفرصة لبيعـــه الى أسرة من الطراز الأول يمكنها أن تربيه أحسن مما تفعلين !

وكان التاجر قد بلغ مرحلة الكمال الدينى والسياسى التى كان يبشر بها أخيرا بعض الساسة والمبشرون فى الشمال · وهى المرحلة التى استطاع فيها أن يتغلب على كل ضعف أو عاطفة انسانية فيه· وكان مستطاعا أن يكون قلبه مثل قلبك ياســيدى وقلبى ببعض الجهود والتربية اللائقة ، ولكن نظرة الألم المرتاعة واليأس الشديد التى ألقتها المرأة عليــه ، كان يمكن أن تثير الاضــطراب فى نفس انسان أقل دربة منه · غير أن هالى كان معتادا عليها ، فقد رأى مثل هذه النظرة مئات المرات · وفى وسعك أن تعتاد أنت أيضا مثل هذه الأشياء ياصديقى · وهذا هو الهدف العظيم للجهود الحديثة التى تهدف الى جعل المجتمع الشمالى كله معتادا على هذا أيضا من أجــل الاتحاد · وهكذا لم ير التاجر فى أمارات الألم القاتل المرتسمة على ملامحها السوداء ، وفى يديها المنقبضتين ، وفى أنفاســها اللاهثة ، الا ظواهر وأعراضا حتمية لتجارته · ولم يتساءل ،وكل ماكان يفكر فيه هو هل تصرخ أوتثير ضجةعلى السفينة ، ذلك لأنه كغيره من الســادة المواطنين المؤيدين لنظامنــا الاجتمــاعى – يكره الضجيج والاضطراب ·

ولكن المرأة لم تصرخ ، لأن الصدمة قد أصابت قلبهــا مباشرة ، وفى الصميم الى حد حال بينها وبين البكاء والعويل ·

لقد تراخت فى ذهول ، وسقطت يداها المتهالكتان بجانبهـــا · وحدقت بنظراتها الى الأمام دون أن ترى شــيئا · واختلطت كل الأصــوات وصرير الســفينة وضجيج الآلات كالحلم فى أذنهـــا المهوشة ، ولم يعد فى قلبها المسكين المنفطر الأخرس صيحة أو عبرة تنم عن شقائها التام · فاذا هى تبدو فى أتم هدوء ·

وبدا للتاجر الذى كان يفكر فيما يعود عليــــه من نفع ويرى أن

انسانيته لا تكاد تقل عن انسانية بعض ساستنا ، أن من واجبه العمل على مواساتها بقدر ما تسمح به الحالة ، فقال :

ـ أنا أعرف أن الصدمة عنيفة عليك فى أول الأمر يا لوسى · ولكن فتاة ذكية عاقلة مثلك لن تستسلم لها · انها ضرورة حتمية كما ترين ، ولا مفر منها ·

فقالت الفتاة بصوت الشخص الذى يختنق :

ـ لا تقل هذا ياسيدى ·· لا تقل ·

فألح عليها قائلا :

ـ انك يا لوسى فتاة ذكية · وأنا أستهدف مصلحتك · ولسوف أجد لك مكانا طيبا فى أدنى النهر · وسرعان ما ستجدين زوجا آخر · فان فتاة جميلة مثلك ···

فقالت المرأة بصوت ممتلىء بألم مرير جعل النخاس يدرك ان ثمة شيئا فى الوقت الحاضر أقوى من أسلوبه الذى يتخذه فى مثل هذه المناسبات ·

ـ آه ياسيدى · لو أنك لم تفعل غير أن تكف عن الحديث الى ··

ثم نهض ، واستدارت المرأة بظهرها اليه ، وأخفت رأسها فى ردائها ·

وأخذ النخاس يروح ويجىء فترة من الوقت وهو يتوقف بين الحين والآخر وينظر اليها ، ويحدث نفسه قائلا :

ـ انها تعانى من الصدمة أشد العناء ، ولكنها تعانى مع ذلك فى سكون · لسوف أتركها لنفسها برهة،وعندئذ ستغدو شيئا فشيئا كما ينبغى أن تكون ·

وكان توم قد لاحظ هذه العملية كلها من أول الأمر الى آخره وأدرك نتائجها كل الادراك ، وكانت تبدو له رهيبة عنيفة قاسية الى حد لا يمكن التعبير عنه لأنه وهو الزنجى المسكين الجاهل أسود اللون لم يتعلم كيف يعمم ، ويتخذ لنفسه نظرات واسعة الأفق ·

فلو أن كل ما فعل هو أنه تعلم وتثقف على أيدى بعض رجال الدين المسيحى لكان له رأى أفضل فى هذا الموضوع ، ولنظر اليه على آنه من الأحداث اليومية لتجارة مشروعة ـ تجارة يؤيدها بقوة نظام يقول فيه عنه أحد كبار رجال الدين الأمريكيين وهو الدكتور جويل باركر من أهل فيلادلفيا انه « ليس فيه من الشرور أكثر مما تحتمه أية علاقات فى الحياة الاجتماعية والمنزلية » • ولكن توم ، كما نرى ، ليس الا مخلوقا فقيراجاهلا تقتصرقراءاته على العهد الجديد من الكتاب المقدس ، ومن ثم فهو لا يستطيع أن يهدىء نفسه ويواسيها بمثل هذه الآراء • لقد كانت روحه ينزف منها الدم فى أعماقه لما هو فى رأيه ظلم وقع على ذلك الشىء المعذب المسكين الراقد على الصناديق كعود الغاب المنسحق ، الشىء الخالد مع ذلك ، والذى يحس ويعيش وينضح الدم ، والذى تضعهقوانينالدولة الأمريكية وهى هادئة مطمئنة فى مستوى واحد مع السلع والبالات والصناديق التى ترقد بينها الفتاة •

واقترب توم منها ، وحاول أن يقول شيئا ، ولكنها لم تفعل أكثر من أن تئن أنينا • وتحدث اليها ، فى ايمان وصدق ، والدموع تنثال على وجنتيه ، عن القلب الملىء بالحب فى السماء ، وعن السيد المسيح العطوف ، وعن الدار الباقية الخالدة ، ولكن الأذن كانت صماء من فرط الألم ، والقلب المفلوج لم يعد يقوى على الاحساس •

وأقبل الليل ـ الليل الهادىء ، الساجى ، الرائع الذى يسكب لألاءه على الكون بعدد لا يحصى من العيون الملائكية الساجية الوامضة فى جمال وسكون ، ولكن لم يكن ثمة حديث أو لغة ، لا ولا صوت عطوف أو يد حانية تمتد من تلك السماء البعيدة • ولم تلبث أصوات المتحدثين فى شئون العمل أو فى المباهج والمسرات أن تخافتت ، الواحد بعد الآخر • وخيم سكون النوم على السفينة كلها ، وأمسى خرير الماء عند تقدم السفينة مسموعا بوضوح • وتمدد توم بجسمه على صندوق حيث راح يسمع ، بين الحين والآخر ، نحيبا مختنقا أو صيحة صادة من تلك المخلوقة المنطرحة على الأرض وتقول : ماذا أفعل يارب ؟ يا الهى ، يا الهى الرحيم •• أعنى على

أمري • وهكذا استمر الحال الى أن تلاشى الصوت أخيرا فى طيات السكون •

واستيقظ توم فى منتصف الليل ، بانتفاضة مفاجئة ، فقد مرق شيء أسود مسرعا بجواره نحو جانب السفينة ثم سمع ارتطام جسم بالماء • ولم يكن أحد غيره قد سمع أو رأى شيئا • ورفع رأسه ، ورأى مكان الفتاة خاليا ، فنهض وأخذ يبحث حوله دون جدوى •ان القلب الدامى المسكين قد سكن أخيرا ، ولكن النهر ظل يجرى ويعبث وتعلو فيه الأمواج الصغيرة فى مرح كأنه لم يطو ذلك القلب المعذب •

صبرا ! صبرا ! يا من تنتفض قلوبكم سخطا على مثل هذه المظالم • فليس ثمة خفقة معذب أو دمعة مظلوم يغفل عنها رب العالمين فى مجده وهو نصير المحزونين • ان رحاب رحمته وكرمه تتسع لكل آلام العالم • فتمثل أنت برحمته سبحانه ، واملأ قلبك بالحب والتسامح ، لأنه بقدر ايمانك بوجود الله ، يكون ايمانك بمجيء يوم الحساب •

وأقبل النخاس مبكرا نشيطا منتعشا ليرى كيف حال بضاعته الآدمية • وعندئذ حل دوره ليتلفت حوله فى حيرة وارتباك • وأخيرا قال لتوم :

ــ أين ذهبت تلك الفتاة ؟

ولم يشأ توم ــ الذى تعلم حكمة الاحتفاظ برأيه لنفسه ــ أن يدلى بملاحظاته وشكوكه ، ومن ثم قال انه لا يعرف •

وقال النخاس :

ــ لم يكن فى مقدورها يقينا أن تغادر السفينة ليلا عند أية مرساة ، لأنى كنت متيقظا ومتنبها لأمر كهذا كلما وقفت السفينة• فأنا لا أثق أبدا فى حراسة غيرى لبضاعتى •

وكان هذا الحديث موجها الى توم فى شيء من السرية الخاصة ، وكأنما الأمر يهمه بوجه خاص • ولكن توم لم يجب بشيء •

وفتش النخاس السفينة من مقدمهـــا الى مؤخرها ، وبحث بين الصناديق والبالات والبراميل وحول الآلات وعند المداخن ولكن على غير جدوى ٠

وبعد هذا البحث غير المجـــدى ذهب الى حيث كان توم واقفـــا وقال له :

ـ اسمع ياتوم ٠ كن عادلا فى هذا الموضوع ٠ انك تعرف شيئا عنه الآن ، لا تنكر ٠ فأنا أعلم أنك تعرف ٠ فقد رأيت الفتاة راقدة هنا نحو الساعة العاشرة ، ثم فى الثانية عشرة ، ثم مرة أخرى فيما بين الواحدة والثانية ، ثم فى الرابعة اختفت ٠وكنت أنت نائما هناك طوال الوقت ٠ والآن فأنت تعرف شيئا ، ولا مفر لك من هذا ٠

فقال توم :

ـ اسمع ياسيدى ٠ لقد شعرت بشىء يمرق بجانبى عند الصباح، وكنت بين اليقظة والوسن ٠ ثم سمعت شيئا يرتطم ارتطاما شديدا بالماء ، ولما تنبهت تماما وجدت الفتاة قد اختفت ٠هذا كل ما أعرف٠

ولم يصدم التاجر أو يندهش ، لأنه ، كما سبق القول ، تعـــود على أشياء كثيرة لم تتعودها أنت ٠ حتى أحداث الموت الرهيبة لاتثير شيئا من القشعريرة فى جسمه ٠ فلقد شاهد الموت مرات كثيرة ٠٠ التقى به فى طريق معاملاته التجارية وتآلف معه ٠٠ ولم يعد يفكر فيه الا أنه عميل قاس يشيع الارتباك فى معاملاته التجـــارية بلا انصاف ، وهكذا أقسم أن الفتاة كانت بضاعة غير طيبة ، وأنه سىء الحظ الى أقصى حد ، وأنه اذا ساءت الأمور على هـــذا النحو ، فلن يربح مليما من رحلته ٠ وقصارى القول انه كان فيما يبدو يرى نفسه رجلا مظلوما بلا أدنى شك ، ولكن لا جـــدوى من التحسر ما دامت الفتاة قد هربت الى مكان لا يمكن أن يعـــود منه هارب ، حتى ولو طالب بعودته كل أبناء الوطن ٠ ومن ثم جلس التـــاجر فى اكتئاب وتناول مفكرته ووضع اسم الفتاة المفقودة على رأس قائمة الخسائر٠ ولعلك تقول :

ـ انه مخلوق فظيع ، ذلك التاجر ! أليس كذلك ؟ انه لرجـــل

رهيب حقا ، بلا احساس .

ولعل شخصا ما يرد عليك قائلا :

ـ ولكن ليس هناك من يحفل بهؤلاء التجار . انهم موضع الاحتقار العام ولا يسمح بوجودهم فى أى مجتمع راق مهذب .

ولكن من هو ، ياسيدى ، الذى يصنع التاجر ؟ من هو المسئول الأول عن وجوده ؟ أهو الرجل المستنير المثقف الذكى الراقى الذى يؤيد نظاما يسمح فيه بوجود مثل هذا التاجر ، أم هو هذا التاجر المسكين نفسه ؟ انك تكون الرأى العام الذى يؤيد تجارته ويروجها ، فتفسده وتغويه وتنحط به حتى لا يعود يخجل منها ، ففى أى شىء تكون أنت خيرا منه ؟

هل أنت متعلم وهو جاهل ؟ هل أنت رفيع وهو وضيع ؟ هل أنت مهذب وهو غليظ الطباع ؟ هل أنت موهوب وهو عادى بسيط ؟

ان هذه الاعتبارات كلها ربما تكون فى جانبه ، يوم الحساب ، أكثر مما هى فى جانبك .

ولا يسعنا بعد أن سردنا هذه الحوادث الصغيرة التى تقع خلال هذه التجارة المشروعة الا أن نرجو العالم ألا يظن أن المشرعين الامريكيين مجردون من المشاعر الانسانية ، كما قد يستنتج بغير حق من الجهود الكبيرة التى يبذلها المجتمع بأكمله لحماية هذه الأنواع من المعاملات التجارية والابقاء عليها .

منذا الذى لا يعرف كيف يندد رجالنا العظام أشد التنديد بتجارة الرقيق الخارجية . ان هناك طائفة كبيرة من الرجال أمثال كلاركسون وولبرفورس قد برزوا من بيننا وأخذوا ينددون بهذه التجارة وما أروع ما يقولون وما يفعلون . وفى رأى هؤلاء أيها القارىء العزيز أن الاتجار بالزنوج المختطفين من افريقيا عمل رهيب لا يصح التفكير فيه . أما الاتجار بالزنوج القادمين من كنتكى فهو يختلف عن ذاك كل الاختلاف .

الفصل الثالث عشر

مستعمرة الكويكر

ويبرز الآن أمامنا منظر هادىء ساكن : مطبخ كبير فسيح جميل الطلاء ، أرضه الصفراء ناعمة براقة ، ليس فيها ذرة من الغبار ، به موقد طهو أنيق حسن الطلاء باللون الأسود ، وصفوف من العلب اللامعة التى تنم عن مواد يتحلب لها اللعاب اشتهاء . ومقاعد لامعة من الخشب الأخضر ، قديمة ومتينة ، ومقعد هزاز صغير على قاعدته المريحة وسادة مصنوعة من قطع صغيرة مختلفة الألوان من أقمشة صوفية ، وآخر أكبر حجما ، قديم مريح ، فى مسنديه الواسعين دعوة صريحة الى الترحيب ، تؤيدها وسائد لينة من الريش تجعله مقعدا قديما مريحا حقا مغريا بالجلوس عليه ، وهو ، ان شئت الحقيقة ، يساوى فى مضمار المتعة المنزلية عشرا من الوسائد المكسوة بالقطيفة الرخيصة أو بقماش البروكاتل التى تزين غرف الجلوس فى منازل السادة العظام . وعلى هذا المقعد ، المتأرجح أماما وخلفا ، جلست صاحبتنا القديمة اليزا ، مركزة عينيها على قطعة قماش جيدة الحياكة .. نعم .. انها هى .. وان كانت أكثر شحوب وجه ونحافة جسم مما كانت فى كنتكى ، مع أطياف الحزن الساجى ، راقدة فى ظلال أهدابها الطوال ، ومرفرفة حول فمها الرقيق . وكان فى وسع من ينظر اليها أن يرى بوضوح كيف تجمد قلبها الفتى وشاخ تحت وطأة الحزن العميق المتصل ، وهى حين ترفع ، بين الحين والآخر ، عينيها الواسعتين السوداوين لتتابع ألاعيب صغيرها هارى الذى كان يرفرف هنا وهناك على الأرض كأنه فراشة صغيرة ، ترى كيف تكشف نظراتها عن أعماق من الاصرار والعزيمة الثابتة لم يسبق أن بدت فى عينيها أبدا فى أيامها السعيدة الأولى .

وبجانبها جلست امرأة على حجرها وعاء من القصدير اللامع تفرز فيه بعناية شديدة بعض ثمار الخوخ · ولعلها كانت فى الخامسة والخمسين أو الستين ، ولكن وجهها كان من تلك الوجوه التى يبدو أن الزمن لا يلمسها الا ليضيئها ويزينها ·وكان غطاء رأسها الأبيض الناصع المصنوع على طراز جمعية الكويكر ، والمنديل الموصلين الأبيض البسيط المطوى برفق على صدرها ، والمطرف الصوفى ، والثوب ، كل هذا كان ينم فورا عن الطائفة التى تنتمى اليها · وكان وجهها مستديرا متوردا ، تنم نعومته عن موفور الصحة ، وتذكر المرء بالخوخة الناضجة · أما شعرها الذى وخطه الشيب بخيوط من الفضة ، فكان مفروقا ومرسلا برفق الى الوراء من جبين مرتفع لم يسطر عليه الزمن شيئا الا السلام على الأرض والمحبة للجميع · وتحته تألقت عينان كبيرتان عسليتان تنمان عن الصفاء والنقاء والحب · وحسبك أن تنظر اليهما مباشرة حتى تشعر كأنك ترى فى أعماقهما قلبا يخفق بالطهر والخير اللذين قلما يخفق بمثلهما قلب فى صدر امرأة · اننا نتحدث كثيرا عن جمال الصبايا والشابات ، ونتغنى به ، فلماذا لا يفطن بعضنا الى ما فى المسنات من جمال ؟ واذا شاء أحد أن يرى ما هو جمال الشيخوخة ، فاننا نحيله الى صديقتنا العزيزة راحيل هاليداى وهى جالسة فى مقعدها الهزاز الصغير الذى كان يصر ويكركر بين الحين والآخر ، اما لأنه أصيب بالبرد فى أيامه السوالف ، أو بسبب اصابته بالربو ، أو ربما كان ذلك نتيجة لاضطرابات عصبية · وأيا كان السبب ، فقد ظل يصر ويكر ويسعل بصوت مكبوت كلما تأرجحت عليه الى الأمام والخلف · ولو حدث هذا من مقعد آخر ، لما احتمله أحد ، ولكن الشيخ سيمون هاليداى كان يعلن دائما أن لهذا الصرير وقع أجمل موسيقى فى أذنيه ، كما كان الأطفال يحرصون دائما على «الانصات» الى موسيقى مقعد أمهم لا يجدون عنها بديلا أيا كان ، فان شئت السبب قلت لك انهم منذ عشرين عاما أو أكثر لم يسمعوا غيرعبارات الحب ، ومبادىء الأخلاق الطيبة وحنان الأمومة وعطفها ، تصدر عن ذلك المقعد · وكم من آلام فى الرأس وأشجان فى القلب وجدت العلاج عنده ، وكم من المشكلات الروحية والمادية عثرت على الحل

من هذه الجالسة عليه ، تلك الأم الحبيبة الحنون ـ بارك الله فيها !

وقالت لاليزا وهى تنظر بهدوء الى الخوخ فى الاناء :

ـ ألا زلت تفكرين فى الذهاب الى كندا يا اليزا ؟

فقالت اليزا بحزم :

ـ نعم يا سيدتى . يجب أن أمضى فى طريقى . لا أستطيع التوقف .

ـ وماذا تفعلين عندما تصلين الى هناك ؟ يجب أن تفكرى فى هذا يا ابنتى !

وانسابت كلمة « ابنتى » من شفتى راحيل هاليداى فى رنين طبيعى . ذلك أنه كان لها من الوجه والسمت ما يجعل كلمة «الأم» تبدو أكثر الكلمات انطباقا عليها فى الوجود .

وارتعدت يد اليزا ، وتساقطت بعض دموعها على قطعة الثوب التى كانت فى يدها ، ولكنها أجابت بثبات :

ـ لسوف أقوم بأى شىء ممكن . وأنا أرجو أن أجد ما أعمله .

وقالت راحيل

ـ أنت تعرفين أن فى مقدورك البقاء هنا الى أى أجل شئت .

ـ أوه . شكرا .

ثم أشارت الى هارى ومضت تقول :

ـ ولكننى لا أستطيع النوم فى الليل . لا أعرف فيه طعم الراحة . لقد حلمت الليلة الماضية أنى رأيت الرجل قادما الى الفناء .

ثم سرت الرعدة فى جسمها .

وقالت راحيل وهى تمسح عينيها

ـ يا للطفل المسكين ! ولكن لا تنزعجى من هذه الناحية . فقد

شاءت ارادة الله ألا يسرق لاجيء من قريتنا هذه · وأعتقد أن طفلك لن يكون أول سابقة هنا ·

وهنا فتح الباب ، وظهرت فيه امرأة صغيرة الحجم قصيرة مستديرة الجسم ، ذات وجه ضاحك منور كالتفاحة الناضجة · وكانت ، مثل راحيل ، ترتدى ملابس رمادية قاتمة وذلك المنديل الموصلين المطوى بعناية فوق صدرها الصغير الممتلىء ·

وقالت راحيل وهى تستقبل السيدة بابتهاج وتصافح يديها الاثنتين بحرارة :

ـ يا روث ستدمان ، كيف حالك يا روث ؟

فقالت روث وهى تتناول قبعتها الصوفية الصغيرة وتنفضها بمنديلها « على مايرام » وكشفت وهى تفعل هذا عن رأس صغير مستدير يجثم عليه فى أناقة واختيال غطاء الرأس الخاص بجماعة الكويكر ، دون أن يتزحزح أو يتحرك مهما ربتت عليه اليدان الصغيرتان البدينتان لتنسيقه ، وكانت خصلات من شعر مموج قد انفلتت هنا وهناك ، فكان على السيدة أن تحتال على جمعها واعادتها الى مكانها ، وعندئذ أدارت الوافدة الجديدة ، التى قد تبلغ من العمر خمسة وعشرين عاما ، وجهها عن المرآة الصغيرة التى كانت تستخدمها فى هذا الاصلاح وقد بدا عليها الرضا كما يبدو على الذين ينظرون الى هذه السيدة ، ذلك بأنها كانت فى الواقع سيدة ضئيلة الجسم من أجمل وألطف السيدات اللاتى يسعد لمرآهن قلب كل انسان ·

وعادت راحيل تقول :

ـ روث ، هذه اليزا هاريس ، وهذا هو الطفل الصغير الذى حدثتك عنه ·

فقالت روث وهى تصافح اليزا بحرارة وكأنها صديقة قديمة تنتظر مجيئها منذ أمد بعيد :

ـ اننى جد سعيدة برؤيتك يا اليزا · وهذا طفلك العزيز · لقد

أحضرت له كعكة معى ·

وأبرزت كعكة على شكل قلب للطفل الذى أقبل نحوها محملقا من خلال خصلاته ، وتقبل الهدية فى حياء ·

وقالت راحيل :

ـ أين طفلك ياروث ؟

ـ أوه · انه آت ، ولكن ابنتك مارى التقطته وأنا قادمة ،وانطلقت به نحو البيدر لتقدمه الى الأطفال الآخرين ·

وعندئذ فتح الباب ، وأقبلت مع الطفل مارى ، وهى فتاة بريئة متوردة الوجنتين ، ذات عينين واسعتين عسليتين كعينى أمها ،فنادت راحيل وهى تأخذ بين ذراعيها الطفل الكبير الأبيض البدين

ـ ها ! ها ! ما أجمل منظره ،.وما أسرع نموه !·

فقالت روث الصغيرة النشيطة وهى ترفع عن رأس الطفل الغطاء الحريرى الصغير ، وعن ملابسه الخارجية مختلف اللفافات :

ـ لا شك فى هذا · انه ينمو بسرعة ·

وبعد أن عدلت هندامه ، ونظمت ملابسه ، قبلته بحرارة ووضعته على الأرض ليستجمع شتات أفكاره · وبدا كأن الطفل معتاد على هذا النوع من الرعاية والاهتمام ، لأنه وضع ابهامه فى فمه ، (وكأنه شيء له أهميته) ، وسرعان ما لاح كأنه مستغرق فى تأملاته الخاصة ، بينما جلست أمه ، وتناولت جوربا طويلا من نسيج يمتزج فيه اللونان الأزرق والأبيض ، وشرعت تخيط بنشاط ·

وقالت راحيل لابنتها برفق :

ـ يا مارى · يحسن أن تملئى الابريق · ألا ترين هذا ؟

وتناولت مارى الابريق ومضت به الى البئر ، وسرعان ما عادت ووضعته على الموقد ، وما لبث أن راح يئز ، ويطلق البخار ، كأنه يعرب عن روح الترحيب والابتهاج · ثم وضعت مارى ثمار الخوخ

فى اناء السلق اطاعة لهمسات قليلة رقيقة من راحيل ، وسرعان ما كان الاناء على النار ·

وهنا تناولت راحيل لوح عجين ناصع البياض ، ووضعت الميدعة على صدرها ، وشرعت بهدوء تعـــد بعض أنواع البسكويت ، وقد قالت من قبل لمارى :

ـ يا مارى · ألا يحسن بك أن تخبرى جون ليعد دجاجة ·

واختفت مارى فورا · وقالت راحيـــل وهى تمضى فى صـــنع البسكويت :

ـ وكيف حال أبيجيل بيتر ؟

فقالت روث :

ـ أوه ! انها أحسن حالا من ذى قبل · لقد ذهبت اليها فى هذا الصباح ، ورتبت لها السرير ، ونظفت البيت ، ومضت لبيته هلـز بعد ظهر اليوم ، وخبزت من الخبز والفطائر ما يكفى بضعة أيام · وقد وعدت أن أعود اليها مرة أخرى هذا المساء لأساعدها على القيام من فراشها ·

فقالت راحيل :

ـ وأنا سأذهب اليها غدا صباحا وأقوم بأى عمـــل قد يحتاجه البيت ، وأشرف على ترقيع الملابس ·

فقالت روث :

ـ آه ! هذا حسن ·

ثم أضافت قائلة :

ـ لقد سمعت أن حنة ستانوود مريضة · وقد زارها جـون فى الليلة الماضية وينبغى أن أزورها غدا ·

فقالت راحيل :

ـ يستطيع جون أن يأتى الينا ويتناول طعامه معنا اذا احتـــاج

الأمر لبقائك خارج الدار طوال اليوم .

- شكرا لك ياراحيل ، لسوف نرى غدا ، ولكن .. هذا هو سيمون .

وهنا أقبل سيمون هاليداى ، وهو رجل طويل القامة مفتول العضلات ، يرتدى حلة وسروالا من الصوف ، وعلى رأسه قبعة واسعة الحافة .

وقال وهو يصافح روث بحرارة ويمسك بيده كف روث الصغيرة اليدين :

- كيف حالك ياروث ؟ وكيف حال جون ؟

فقالت روث بمرح :

- ان جون بخير ، والجميع بخير أيضا .

وقالت راحيل وهى تضع البسكويت فى الفرن :

- ألديك أنباء يا أبى ؟

فقال سيمون بلهجة ذات معنى خاص وهو يغسل يديه على حوض أنيق فى دهليز جانبى :

- أخبرنى بيتر ستينز أنهم لابد أن يصلوا الليلة مع .. بعض الأصدقاء .

فقالت راحيل وهى تفكر وتلقى نظرة على اليزا

- أحق هذا ؟

وقال سيمون لاليزا وهو يعود الى المطبخ :

- هل قلت ان اسمك اليزا هاريس ؟

فأرسلت راحيل نظرة سريعة الى زوجها بينما أجابت اليزا باضطراب :

- نعم .

وأوحت اليها مخاوفها المستبدة بها أنه من المحتمل أن يكون ثمة اعلان عنها ٠

وقال سيمون وهو واقف في الدهليز مناديا راحيل :

ـ يا أماه !

ففركت راحيل الدقيق عن يديهـا في الميدعة وقالت وهي تمضى اليه :

ـ ماذا تريد يا أبى ؟

ـ ان زوج هذه الفتاة موجود في المستعمرة وسيكون هنا الليلة٠

فقالت راحيل وقد توهج وجهها من فرط السرور :

ـ أتقول حقا يا أبى !

ـ هذه هى الحقيقة ٠ لقد وصل بيتر بالمركبة أمس ، فى الجانب الآخر ، وهناك وجد امرأة عجوزا ورجلين ٠ وقال أحدهما انه يدعى جورج هارس ، ولقد أيقنت مما تحدث به عن نفسه أنه هو ٠ وهو أيضا شاب ذكى محبوب ٠

ثم أضاف الى ذلك قوله :

ـ هل نخبرها بذلك الآن ؟

فقالت راحيل :

ـ لنخبر روث أولا ٠ ها ٠٠ روث ٠٠ تعالى ٠

ووضعت روث قطعـة التطريز من يدها ، وسرعان ما وصلت الى الباب الخلفى حيث قالت لها راحيل :

ـ روث ٠ ماذا تظنين ؟ يقـــول أبى ان زوج اليزا مع المجمـــوعة الأخيرة ، وسوف يكون هنا الليلة ٠

وانبثقت موجة ابتهاج من الكويكرية الصغيرة قطعت على راحيـــل الحديث ، ذلك أنها وثبت وهى تصفق بحرارة ، وثبة انفلتت عـلى

أثرها خصلتان من تحت قبعتها الكويكرية ، واستقرتا لامعتين على منديل العنق الأبيض ٠

وقالت راحيل برفق :

ـ اسكتي ياعزيزتي ! اسكتي ياروث ! قولي لنا ، هل نخبرها الآن ؟

ـ الآن ؟ نعم بكل تأكيد ٠ في هذه اللحظة ٠ عجبا ٠ لنفرض الآن أن الذى أتى هو زوجي جون ، فأى احساس يخامرني وقتئذ ؟ هلم نخبرها فورا ٠

فقال سيمون وهو ينظر الى روث بوجه مشرق :

ـ لقد تعودت أن تعلمي نفسك كيف تحبين جيرانك ياروث ٠

ـ بكل تأكيد ٠ أليس لهذا خلقنا الله ؟ فلو لم أكن أحب زوجي جون وطفلي لما عرفت كيف أبتهج لها ٠ هلم الآن وأخبرها ٠٠ افعل ٠

ثم وضعت يدها على ذراع راحيل لتغريها بذلك وقالت :

ـ امضي بها الى غرفة نومك ، هناك ، ودعيني أحمر الدجاج ، ريثما تقومين بهذه المهمة ٠

وخرجت راحيل الى المطبخ ، حيث كانت اليزا تخيط قطعة قماش ، ثم قالت لها برفق وهي تفتح بابا يفضي الى غرفة نوم صغيرة :

ـ تعالى معي هنا يا ابنتي ، فلدى أنباء لك ٠

وفارت الدماء في وجه اليزا الشاحب ، ونهضت ترتعد من فرط قلقها العصبي ، ونظرت الى طفلها ، وعندئذ قالت روث وهي تندفع اليها وتمسك يديها :

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ لا تخافي أبدا ٠ انها أنباء طيبة يا اليزا ٠ أدخلي ٠٠ أدخلي ٠

ثم دفعت بها في رفق نحو الباب الذى لم يلبث أن أغلقته وراءها ، ثم استدارت وحملت هاري الصغير بين ذراعيها وشرعت تقبله وهي

تقول :

ـ لسوف ترى أباك يابنى ؟ فهل تعرف هذا ؟ ان أباك آت اليك ٠

وأخذت تكرر هذه العبارة المرة بعد المرة والطفل ينظر اليها مندهشا ٠

وفى خلال هذا ، كان منظر آخر يجرى وراء الباب المغلق ٠ فقد جذبت راحيل هاليداى اليزا نحوها ، وقالت :

ـ ليسبغ الله رحمته عليك يا ابنتى ٠ لقد هرب زوجك من بيت العبودية ٠

واندفعت الدماء الى وجنتى اليزا فى توهج مفاجىء ، ثم انحسرت مرتدة الى القلب فجأة أيضا ، واذا هى تتهالك شاحبة فى شبه اغماء ٠

فقالت راحيل وهى تضع يدها على رأسها :

ـ تشجعى ياطفلتى ٠٠ انه الآن بين أصدقاء سوف يأتون به الليلة الى هنا ٠٠

فرددت اليزا قولها :

ـ الليلة ؟ الليلة ٠٠

وبدا كأن الكلمة فقدت كل معناها فى ذهنها ٠ ودار رأسها ، واضطرب تفكيرها ، ولاح كل شىء فى عينيها ضبابا ٠٠ الى حين ٠

ولما تنبهت ، وجدت نفسها راقدة بعناية تامة على السرير ،وفوقها غطاء صوفى ، والشابة روث تدلك يديها بزيت الكافور ، وفتحت عينيها وكأنها فى حلم ، وأحست باسترخاء لذيذ ، كالذى يحس به انسان كان يحمل على عاتقه عبئا ثقيلا ثم اذا هو يرفع عنه ، فيستريح ٠ وهدأت أعصابها المتوترة التى لم تتراخ لحظة واحدة منذ أول ساعة من فرارها ، وخامرها احساس بالطمأنينة والراحة ، ثم رقدت على الفراش ، وراحت تتابع بعينيها الواسعتين السوداوين، حركات أولئك الذين حولها كأنها فى حلم هادىء ، فرأت الباب

المفتوح على الغرفة الأخرى ، وخوان العشاء بمفرشه الأبيض الناصع ، وسمعت أزيز ابريق الشاى ، ورأت روث تروح وتجىء بصحاف الكعك وأطباق الطعام ، وتقف بين الحين والآخر لتضع قطعة كعك فى يد الصغير هارى ، أو تربت رأسه ، أو تلف خصلات طويلة من شعره على أصبعها الأبيض الناصع . ورأت راحيل بسمتها الحانى العطوف وهى تأتى بين آن وآخر اليها لتنظم وتنسق أغطية السرير ، أو لتضغط على يدها أو ذراعها لتعرب لها عن سرورها وبهجتها ، وكانت اليزا تحس فى أعماق نفسها بنوع من اشراق ضوء الشمس ينسكب عليها من عينى راحيل العسليتين الكبيرتين المليئتين بالعطف والحنان . ورأت زوج روث يأتى ، وروث تطير اليه ، وتشرع تتهامس معه بلهفة وحماسة وهى بين الحين والآخر تشير - بايماءة معبرة - نحو غرفة اليزا . ورأت اليزا روث وهى تجلس الى مائدة الشاى والطفل بين ذراعيها ، ورأتهم جميعا جالسين الى هذه المائدة ، ومعهم صغيرها هارى ، جالسا على مقعد مرتفع ، مستظلا بجناح راحيل الرءوم . وكان ثمة همهمة حديث خافت ، ورنين خفيف لملاعق الشاى ، وصلصلة موسيقية للفناجين والأطباق ، كل هذا ممتزج فى حلم ممتع من الراحة ، ثم نامت اليزا ، كما لم تنم منذ تلك الساعة الرهيبة من منتصف الليل التى حملت فيها ابنها وهربت فى تلك الليلة المتلألئة النجوم .

وحلمت ببلد جميل - بأرض الراحة والاستقرار كما بدت لها - بضفاف خضراء ، وجزائر بهيجة ، ومياه جميلة لألاءة ، وهناك ، فى منزل ، قالت لها عنه أصوات عطوفة انه بيتها ، رأت صغيرها يلعب .. كأى طفل حر سعيد . وسمعت وقع أقدام زوجها ، وأحست به يزداد منها اقترابا ، وبذراعيه يطوقانها ، وبدموعه تتساقط على وجهها . واستيقظت .. انه لم يكن حلما . فقد كان ضوء النهار قد تلاشى منذ وقت طويل ، وابنها راقد فى هدوء بجانبها ، مستغرقا فى النوم ، وشمعة تحترق فى خفوت على حاملها .. وزوجها يبكى بجانب وسادتها .

وكان صباح اليوم التالى بهيجا مشرقا فى بيت الكويكريين . فقد

نهضت الأم قبل موعدها المعتاد ، ولم تلبث أن أحاط بهـا الفتيات والغلمان النشيطون الذين لم يكد يتسع لنـا الوقت لنقـدمهم الى قرائنا أمس ، والذين كانوا يؤدون ـ فى طاعة ـ أوامر راحيل التى نصدرها فى رفق بهذه العبـارة « ألا يحسن أن تفعلوا هـذا » أو بالعبارة الأكثر رفقا « أليس من الأفضل أن تفعلوا هذا » • وذلك فى مضمار الاستعداد لوجبة الافطار • فان وجبة الافطار فى وادى انديانا الخصيب كانت عمليـة معقدة كثيرة المطالب • ومن ثم فهى تحتاج ـ كما تحتاج عملية قطف أوراق الورد وتهـذيب الشجيرات فىالفردوس ـ الى أيد مساعدة بالاضافة الى يدى « الأم » الأصيلة• فبينما كان جون ـ زوج روث ـ يعدو الى نبع الماء العذب ، وسيمون الابن الثانى يعد الدقيق لكعك القمح ، ومارى تطحن البن ، كانت راحيل تقوم برفق وهدوء على صنع البسكويت ، واعـداد الدجاج ، ونشر نوع من الاشعاع المشرق على كل شىء حولهـا • فاذا خيف أن يحدث شىء منالصدام أو الاحتكاك الناشىء من حماسة أولئك العمال الصغار غير المنظمة فان عبارتهـا الرقيقة بين العاملين الصـغار « تعالوا •• تعالوا » أو « لست أريدكم الآن » كانت تكفى لازالةكل الصعاب • لقد كتب الشعراء عن حزام فينوس الذى خلب ألبـاب الناس جميعا على مر الأجيـال والعصور ، وان لدينا هنـا حزام راحيل الذى يهدىء النفوس ويجعل كل شىء يتم فى تناسق وانتظام واننا لنعتقد أن هذا الحزام أنسب لعصرنا الحاضر بلا أدنى جدال •

وفيما كانت جميع الاستعدادات الأخـرى تجرى ، كان سيمون الوالد يقف فى قميصه أمام مرآة صغيرة فى ركن ، مشغولا بهـذه العملية الأوليـة ، أى حلق لحيته ، وكان كل شىء يمضى فى رفق وتآلف وانسجام بالمطبخ الـكبير ، ولشد ما كان كل منهم يبـدو سعيدا مستمتعا بما يؤديه من عمل ، فلا عجب أن خيم عليهم جميعا جو من الزمالة الطيبة والثقة المتبادلة •• حتى السكاكين والشوك ، كان لهـا رنين مؤتلف وهى تحمل الى المائدة ، كمـا كان للدجاج واللحم أزيز عذب أثناء التحمير فى المقلاة وكأنما هما أكثر استمتاعا بهذه العملية من أى شىء آخر ، وهكذا فوجىء جورج وإليزا وهارى الصغير بهـذا الكرم البالغ والاسـتقبال الحار عندما خرجوا من

غرفتهم فلا عجب أن بدا لهم كل شيء كأنه حلم ٠

ثم جلسوا جميعا أخيرا الى المائدة ـ مائدة الافطار ـ بينما وقفت ماري بجانب الفرن تخبز صينية فطير ٠ حتى اذا تم نضجها وتورد سطحها ، نقلت الى المائدة ٠ وكانت راحيل عادة تبدو أسعد وأشفق ما تكون وهي جالسة الى رأس المائدة ٠ وانك لتلاحظ الشيء الجم من عطف الأمومة وحنان القلب حتى في طريقة تقديمها لصحفة من الكعك أو صبها لبعض القهوة في فنجان ٠ ومن ثم يبدو كأنها تضع روحا في الطعام أو الشراب الذي تقدمه ٠

وكانت تلك أول مرة يجلس فيها جورج على قدم المساواة الى مائدة رجل أبيض ٠ ومن ثم فقد جلس ، أول الأمر ، في شيء من التوتر والاضطراب ٠ ولكن لم تلبث مشاعره هذه أن تلاشت ، كالضباب ، أمام فيض العطف الشبيه بضوء شمس الصباح المشرقة المحسنة ٠

ان هذا حقا لبيت ٠٠ بيت ! انها كلمة لم يعرف لها جورج من قبل معنى ، ومن ثم فان الايمان بالله والثقة في رعايته قد بدأت تحيط بقلبه ، وكأنما هي شعاع ذهبي من الحماية والثقة ، يطرد الظلام والكراهية والحزن والالحاد واليأس الشديد فاذا هي كلها تذوب أمام ضوء بشير حي ، وحرارة آلاف من عوامل الحب والنوايا الطيبة التي يكون لها من الجزاء الحسن ما يكون لتقديم كأس من شراب بارد باسم الرحمة ٠

وقال سيمون الابن وهو يضع الزبد على كعكته :

ـ أبي كيف يكون الحال لو عرف المسئولون الأمر مرة أخرى ؟

فأجاب سيمون الوالد قائلا في هدوء :

ـ يجب عندئذ أن أدفع غرامة ٠

ـ ولكن ماذا لو أنهم سجنوك ؟

فابتسم الوالد وقال :

ـ ألا تستطيع أنت وأمك أن تقوما على شئون المزرعة ؟

فقال الغلام :

ـ ان فى استطاعة أمى أن تقوم بكل شىء · ولكن أليس من العار وضع قوانين كهذه ؟

فقال الوالد فى وقار :

ـ ينبغى ألا تذكر حكامك بالسوء ياسيمون · ان الله وحده هو الذى ينعم علينا بطيبات الحياة لكى نكون رحماء عادلين ان أمكن · فاذا كان حكامنا يريدون منا ثمن هذا ، فيجب أن نؤديه اليهم ·

فقال الغلام :

ـ ليكن · فانى أكره ملاك العبيد هؤلاء

فقال سيمون الوالد :

ـ اننى أعجب لك يا ولدى · فان أمك لم تلقنك هذا ألبتة · فأنا لا أتردد فى تكريم مالك العبيد كما أكرم العبيد أنفسهم ، اذا ألجأه الله الى فى ساعة محنة ·

واحمر وجه سيمون الابن بشدة ، ولكن كل ما فعلته أمه أن ابتسمت وقالت :

ـ ان سيمون ولد طيب ، وسوف يكبر شيئا فشيئا حتى يصبح مثل أبيه ·

وهنا قال جورج ، زوج اليزا ، فى قلق :

ـ أرجو يا سيدى الكريم ألا تتعرض لأية مشكلات بسببنا !

ـ اطمئن يا جورج ، فاننا لهذا أوجدنا فى هذه الحياة · فاذا لم نواجه المشكلات من أجل أهداف طيبة ، فلن نكون جديرين باسمنا·

فقال جورج :

ـ ولكننى ، من جهتى ، لا أستطيع أن أحتمل هذا ·

فقال سيمون الكبير :

ـ لا تخش اذن ياصديقي جورج ،فاننا لانفعل هذا من أجلك ، بل نفعله من أجل الله والانسانية جمعاء ٠ والآن عليك أن تستكن بهدوء طوال النهار ، وفي المساء ، في العاشرة ، سيمضي بك فنياس فليتشر قدما الى المرحلة التالية ، أنت وسائر رفاقك ٠ فان مطارديك مسرعون وراءك ، ولا ينبغي أن تتأخر ٠

فقال جورج :

ـ اذا كان الأمر كذلك ، فلماذا ننتظر حتى المساء ؟

ـ انك في أمن هنا سحابة النهار ، لأن كـــل من في المستعمرة صديق ، وكلهم يحرسونك ٠ وقد ثبت لنا أن الرحيل ليـــلا أكثر أمنا ٠

الفصل الرابع عشر

ايفانجلين

« انه نجم صغير ، يسكب ضوءه

« على الحياة ـ انه أجمل من أن تتراءى صورته على هذه المرآة !

« انه مخلوق جميل ٠٠ لم يكد يتكون أو يتشكل بعد ٠

« انه وردة بكل أوراقها العاطرة لم تتفتح بعد ٠ »

المسيسبى آ كأنما غيرت عصـــا سحرية مناظره منـــذ أن كتب شاتوبريان يصفه وصفا يجمع فيه بين الشعر والنثر فيقول انه يجرى بين برار موحشة غير متقطعة هائلة ، تقوم عليها عجائب من روائع النبات والحيوان لم تخطر لأحد على بال ٠

ثم لا يلبث نهر الأحلام والخيال الطليق أن يخرج الى عالم الحقائق وكأن هذا يحدث فى ساعة واحدة من الزمان ـ وهو عالم لا يقل خيالا وروعة عن عالم الأحلام ٠ فأى نهر فى العالم يحمل فى صدره الى المحيط مثل هذا الثراء والانتاج فى بلد آخر ! بلد يشمل انتاجه كل ما بين المناطق الاستوائية ، والقطبين ! ان هذه المياه العكرة الكدرة المسرعة فى جريانها المرغية المزبدة ، المندفعة فى انحدارها ، لجديرة بأن تشبهها بذلك الطوفان من النشاط العملى الذى ينسكب عـــلى أمواجه ، بأيدى جنس من الناس أشد حرارة وحماسا من أى جنس اخر فى العالم القديم ٠

آه ! ولكن ليتهم لم يحملوا أيضا عبئا أشد من هذا رهبة ألا وهو دموع المظلومين وأنين المستضعفين ، ومرارة دعاء الفقراء والمساكين الصادرة من القلوب الجاهلة الى اله لا تعرف كنهه و لاتراه ، الـــه صامت ولكنه سوف يخرج عن صمته لينجى كل من على الأرض من فقراء »

وكان الضوء المائل الخارج من الشمس الغاربة يرتعش على صفحة النهر الممتدة كأنها عرض البحر · وكانت أعواد القصب المترنحة ، وأشجار السرو الطويلة القاتمة المغلفة عليها أكاليل كثيفة جنائزية من الطحالب ، تتألق فى الضوء الذهبى أثناء سير السفينة البخارية المثقلة بحمولتها قدما ·

كانت بالات القطن المجموع من مزارع كثيرة تملأ سطح السفينة وجوانبها حتى بدت من بعيد كأنها كتلة مربعة ضخمة رمادية الشكل تتحرك ببطء الى الأمام نحو السوق المقتربة · وينبغى علينا أن نطيل البحث فترة من الوقت فى سطحها المزدحم بالركاب قبل أن نعثر مرة أخرى على صديقنا المتواضع توم · ولعلنا نجده على سطح السفينة الأعلى ، فى ركن صغير بين بالات القطن التى تشغل أكبر مكان فى هذه السفينة ·

وقد استطاع توم بسبب أقوال المستر شلبى عنه من جهة ، وبسبب طبيعته الهادئة المسالمة ، أن يكتسب على غير علم منه ثقة رجل غليظ شكوك مثل هالى ·

وكان هالى فى أول الأمر يراقبه بحذر شديد طوال اليوم ، ولا يسمح له بالنوم ليلا دون أغلال · ولكن صبر توم وعدم شكواه ، ورضاه الواضح بحالته الراهنة استدرجت هالى شيئا فشيئا الى التخلى عن هذه الرقابة الشديدة ، مما جعل توم يستمتع بنوع من « وعد الشرف » ، فأصبح يروح ويغدو كما يشاء بحرية على سطح السفينة ·

ولما كان هادئا مجاملا خدوما بطبيعته ، لا يتردد أبدا فى تقديم المساعدة عند الضرورة للعمال فى أسفل السفينة ، فقد ظفر بمودة جميع العمال وأمضى ساعات عديدة فى معاونتهم بنفس الروح الطيبة والحماسة اللذين كان يعمل بهما فى مزرعة سيده بولاية كنتكى ·

فاذا بدا أنه لا يجد ما يعمله ، فانه يصعد الى ركن بين بالات القطن على السطح الأعلى ، ويشغل نفسه بقراءة ودراسة انجيله ،

واننا لنراه هنا الآن ٠

وعلى مسافة مائة ميل أو أكثر من مدينة نيواورليانز كان النهر أكثر ارتفاعا من الأراضى الممتدة على ضفتيه ، وكانت مياهه الهادره تنحدر بقوة بين جسرين ضخمين يبلغ ارتفاع كل منهما نحو عشرين قدما ٠ وكان المسافر على سطح الباخرة يطل ، وكأنه فوق قمة قلعة عائمة ، على المنطقة كلها الممتدة أميالا بعد أميال ٠ وهكذا كان توم يرى فى المزارع بعد المزارع أمام عينيه صورة للحياة التى كان يقترب منها ٠

لقد رأى من بعيد العبيد فى أعمالهم الشاقة ، ومن ورائهم ترى أكواخهم تلمع فى الأفق صفوفا قائمة فى كثير من الضياع ، ومن وراء هذه أيضا كان يرى قصور أسيادهم الفاخرة بملاعبها ومغانيها الرائعة ٠ وكان قلبه المسكين الساذج يهفو ــ وهو يرى هذه الصورة تتوالى أمامه ــ الى مزرعة سيده فى كنتكى بأشجار الزان الظليلة فيها ، والى بيت سيده بأبهائه الواسعة الرطيبة ، وبالقرب منه الكوخ الصغير بالنباتات المتسلقة والزهور التى تكسو واجهاته ،ويبدا له كأنما يرى هناك وجوها مألوفة لرفاق نشأوا معه منذ الطفولة ، ويرى زوجته المشغولة الناشطة فى اعداد وجبات عشائه ، ويسمع الضحكات المرحة الصادرة عن أولاده وهم يلعبون ٠ ومناغاة طفلته الجالسة على ركبته ، ثم اذا هذا كله يختفى فجأة ، فيعود يرى أعواد القصب ، وأشجار السرو ، والمزارع المنسابة ،ويعود يسمع مرةأخرى صرير آلات الباخرة وكركرتها ، وكأنما يقول له كل شىء فى وضوح ليس بعده وضوح ان تلك المرحلة من مراحل الحياة التى تتراءى له قد ذهبت كلها الى غير رجعة ٠

انك فى حالة كهذه ، قد تكتب الى زوجتك ، وتبعث بالرسائل الى أطفالك ٠ ولكن لم يكن فى مقدور توم أن يكتب ، فما كان للمراسلات البريدية وجود بالنسبة له ، وان هوة الفراق لم يكن لها حتى قنطرة من كلمة ود صغيرة أو اشارة عابرة ٠

فهل ثمة عجب اذن ، اذا تساقطت بعض عبراته على صفحات كتابه المقدس وهو يضعه أمامه على بالة القطن ، ثم وهو يتتبع باصبعه فى

صبر الكلمة بعد الكلمه ليستوعب ما تحمله من وعود وآمال · وكان توم الذى تعلم القراءة فى مرحلة متأخرة من عمره ، ليس الا قارئا بطيئا ، ومن ثم كان يمضى بجهد وعناء من آية الى آية وكان من حسن حظه أن الكتاب الذى كان منكبا عليه كان من النوع الذى لا يمكن أن تؤذيه القراءة البطيئة · أجل ، كتاب كلماته سبائك من الذهب كثيرا ما يبدو كأن كل كلمة فيه ينبغى أن توزن على حدة حتى يستطيع العقل أن يستوعب ما لها من قيمة تجل عن التقدير · وهلم نتتبعه قليلا وهو يشير الى كل كلمة وينطق بها فى صوت خافت مسموع وهو يقرأ

« لا تضطرب قلوبكم ·· فى بيت أبى منازل كثيرة والا فانى كنت قد قلت لكم انى أمضى لأعد لكم مكانا »

لقد كان قلب شيشرون ، عندما دفن ابنته الحبيبة ، مفعما بحزن خالص مرير مثل حزن توم · ولعله لم يكن أكثر امتلاء منه لأن الاثنين لم يكونا الا رجلين ، ولكن لم يكن فى مقدور شيشرون أن يرى مثل هذه الكلمات القدسية من الأمل ، أو يتوقع مثل هذا اللقاء فى المستقبل · ولو أنه أبصر هذه الكلمات لما آمن بها لأنه كان سيحاول أولا أن يملأ رأسه بآلاف الأسئلة والاستفتاء عن مدى صدق هذه المخطوطات ، ومبلغ ما فى ترجمتها من أمانة · ولكن هذه الكلمات كانت هى التى يحتاج اليها توم صادقة قدسية بحيث لا يحتمل أبدا أن يخامر رأسه البسيط أى شك فيها · ينبغى أن تكون هذه الكلمات حقا ، لأنه لا يستطيع أن يعيش أن يعيش ان لم تكن حقا ·

وبرغم أن انجيل توم كان خلوا من التعليقات والشروح على الهوامش بأقلام الشراح والمعنقين ، فانه كان مزدانا بعلامات وعبارات تفسيرية من ابتكار توم نفسه ، وكانت هذه تعينه أكثر مما لو كان ممتلئا بالشروح والتعليقات من أقلام جلة العلماء فقد كان من عادته

أن يجعل أبناء سيده يقرءون أمامه فى الكتاب المقدس ، ولا سيما السيد الصغير جورج ، وكان وهم يقرءون يضع بالقلم وبالحبر علامات قوية واضحة محددة للعبارات التى يكون لها أوقع الأثر فى أذنه وقلبه ·

وهكذا كانت العلامات المختلفة الأشكال والمعانى تملأ صفحات الكتاب المقدس من الغلاف للغلاف وبهذا كان يستطع فى لحظة أن يعرف العبارات الأثيرة لديه دون حاجة الى المشقة فى تهجى ما بينها ٠ ومن ثم كانت كل عبارة والكتاب المقدس موضوع أمامه ، تنبض بصورة من بيته القديم ، وتعيد الى ذاكرته بعض المباهج ، فلا عجب أن بدا الكتاب المقدس كل ما تبقى له فى الحياة ، وكل الحياة الأخرى التى وعد بها فى المستقبل ٠

وكان من بين ركاب الباخرة سيد شاب من أسرة موفورة الثراء والحسب ، تقيم فى أرليانز ، وتحمل اسم سانت كلير ٠ وكانت معه ابنته التى يتراوح عمرها بين الخامسة والسادسة وسيدة بدا أنها تمت بصلة القربى اليه وأنها تضع ابنته تحت رعايتها الخاصة ٠

وكان توم كثيرا ما يلمح هذه الابنة الصغيرة ، ذلك لأنها كانت من الأطفال النشطين الذين لا يستقرون فى مكان واحد الا بقدر ما يستقر شعاع أو نسمة هواء فى الصيف ٠ ٠وكذلك لم يكن من السهل أن ينسى أحد هذه الطفلة اذا شاهدها مرة واحدة ٠

كان قوامها نموذجا كاملا لجمال الطفولة مع خلوه مما يجتمع فيه عادة من بدانة واستدارة ٠ وكان فى ذلك القوام لون من الرقة الروحية الطاهرة كانتى قد يراها الانسان وهو يحلم بمخلوقات كالأطياف النورانية ٠وكان وجهها من ناحية جمال السمت والملامح يمتاز على وجه الخصوص بطابع من جدية التعبير الحالمة التى تفاجىء بعذوبتها الشخص المثالى المفكر ، وتترك أعمق الأثر فى نفوس أكثر الناس غباء ، وأكثرهم علما ، دون أن يعرفوا السبب على وجه التحديد ٠ وكان شكل رأسها وانعطاف عنقها ونصفها الأعلى تنم جميعا عن الصفاء والنبل ٠ وكان شعرها الطويل الذهبى القائم المنساب كالسحاب على وجهها « والجاذبية الروحية المطلة من عينيها البنفسجيتين الزرقاوين المظللتين بحاجبين من الذهب القاتم أيضا من السمات التى تميزها عن غيرها من الأطفال وتجعل كل من يراها يتلفت ليتطلع اليها وهى تنساب هنا وهناك فى جوانب الباخرة٠ ومع هذا فلم تكن هذه الصغيرة طفلة يمكن أن تسميها هادئة أو حزينة ، وانما كانت ترتسم

على وجهها أمارات من العبث البرىء ، وكأنها ظلال أوراق شجر فى الصيف تتلاعب على محياها وحول جرمها الخفيف • كانت لا تكف عن الحركة أبدا ، وطيف الابتسام يرفرف على فمها الوردى وهى تنساب هنا وهناك بخطوات خفيفة كالسحاب تغنى لنفسها كأنها فى حلم سعيد • وكان والدها والسيدة حارستها دائما مشغولين بالانطلاق وراءها • فاذا أمسكا بها انفلتت من أيديهما كأنها سحابة صيف ، ولم تقع على أذنها قط كلمة ملام أو تأنيب لأنها مهما فعلت كانت تمضى فى سبيلها متنقلة فى جميع أنحاء السفينة • واذ كانت ترتدى على الدوام ثيابا بيضاء فقد كانت تبدو وكأنها تتحرك كالظل وهى تنتقل فى مختلف الأماكن دون أن تترك وراءها وصمة أو بقعة ولم يكن فى الباخرة كلها ركن أو فجوة أعلاها وأسفلها خلا من وقع قدميها الساحرتين أو من انسياب طيب شعرها الذهبى أو عينيها الزرقاوين •

وكان الوقاد ، وهو يرفع وجهه المتصبب بالعرق من عمله الشاق، يجد أحيانا هاتين العينين تنظران فى عجب الى أعماق الفرن المضطرم والى وجهه فى خوف ورثاء كأنما تخاله معرضا لشىء من الخطر الرهيب • وأحيانا يتوقف ماسك عجلة الدفة ويبتسم عندما يبدوهذا الرأس كالصورة الجميلة ، من وراء زجاج مقصورة المراقبة ، ثم لا يلبث أن يختفى • وكانت أصوات العمال والبحارة الغليظة تباركها آلاف المرات والبسمات الرقيقة التى لم يتعودوها تتسلل الى الوجوه المرهقة كلما مرت هنا وهناك • واذا تعثرت بلا خوف فى أماكن خطيرة امتدت بلا وعى أياد خشنة ملوثة برماد الفحم لانقاذها وتمهيد الطريق لها •

وكان توم ذا الطبيعة الرقيقة السريعة التأثر التى يتميز بها جنسه والتى تدفعه دائما الى الحنو على كل ما يمتاز بالطفولة والبساطة يراقب هذه المخلوقة الصغيرة باهتمام يزداد يوما بعد يوم • وكانت تبدو فى نظره كشىء يكاد يبلغ مبلغ القداسة ، وكلما أطل عليه رأسها الذهبى أو العينان الزرقاوان من وراء بالة قطن قاتمة أو من حافة حزمة من الحزم خيل اليه أنه يرى ملاكا ينبثق من صحائف كتاب العهد الجديد الموضوع أمامه •

وكثيرا ما كانت تطوف وهى محزونة حول مجموعة عبيد هالى من الرجال والنساء الجالسين فى الأغلال • فكانت تنساب بينهم ، وترنو اليهم فى لهفة حائرة حزينة • وكانت فى بعض الأحيان ترفع أغلالهم بيديها الرقيقتين ثم تتحسر فى مرارة وحزن قبل أن تنساب بعيدا عنهم ، وكانت فى أحيان أخرى تظهر فجأة بينهم ويداها ممتلئتان بالحلوى والجوز والبرتقال فتوزع هـــذا كله عليهم فى ابتهاج ثم تنصرف •

وقد راقب توم هذه الآنسة الصغيرة كثيرا ، قبل أن يجرؤ عـــلى اتخاذ أية خطوات تمهيدية للتعرف بها • وكان يعرف الشىء الكثير من الألاعيب اللطيفة التى يستطيع بها اغراء الصغار وجذبهم اليه ، ومن ثم قرر أن يلعب دوره معها بمهارة ، ففى مقدوره أن يصنع سلالا صغيرة جذابة من بذور الكرز أو يحفر ملامح وجوه غريبة على لبـــاب الجوز الأمريكى الكبير ، أو يصنع شخوصا عجيبة راقصة من لبـــاب نبات البيلسان • كما كان بارعا فى صنع الصفارات على اختـــلاف حجمها وأنواعها ، أما جيوبه فكانت دائما ممتلئة بمختلف الأشـــياء الجذابة التى طالما احتفظ بها فى الأيام الخالية لمداعبة أطفـــال سيده ، والتى راح يتناولها الآن ، واحدة بعد واحدة فى عنـــاية وحرص ليتخذ منها عروضا للتعارف والصداقة •

وكانت تلك الصغيرة حيوية رغم اهتمامها الشديد بكل ما يجرى حولها ، ومن ثم لم يكن من السهل ترويضها • فهى فى بعض الأحيان كانت تجثم برهة كطائر الكنار على صندوق أو لفة قريبة من توم أثناء اشتغاله بتلك اللعب الصغيرة الآنفة الذكر ثم تأخذ منه فى نوع من الوقار والخجل الأشياء التى يقدمها اليها وأخيرا وصلا الى حالة من التآلف والصداقة • وقد تجرأ توم آخر الأمر فقال لها حين رأى أنهما وصلا أخيرا الى مثل هذه الحالة :

ــ ما اسم الآنسة الصغيرة ؟

فقالت :

ـ ايفانجلين سانت كلير ، ولكن أبى وجميع من معى يسـمونني ايفا • والآن • ما اسمك أنت ؟

ـ ان اسمى توم • وقد اعتاد الأطفال الصغار أن ينادونى باسم العم توم عندما كنت فى كنتكي •

فقالت ايفا :

ـ اذن فسوف أناديك باسم العم توم لأننى ، كما ترى ، أحبك• وعلى هذا الى أين أنت ذاهب يا عم توم •

ـ اننى لا أدرى يا مس ايفا •

فقالت مس ايفا :

ـ ألا تدرى ؟

ـ نعم • لأننى سوف أباع الى شخص لا أعرف من سيكون •

فأسرعت ايفا قائلة :

ـ ان أبى يستطيع أن يشتريك • واذا اشتراك فسوف تنعم بحياة طيبة • وأنا أنوى أن أطلب اليه أن يشتريك فى هذا اليوم نفسه •

ـ شكرا لك يا سيدتى الصغيرة •

وهنا وقفت السفينة عند مرساة صغيرة لتتزود ببعض الخشب للوقود ، وسمعت ايفا صوت أبيها ، فاندفعت نحوه بخفة ونهض توم ومضى ليقدم معونته فى حمل الخشب ثم سرعان ما شـغل مـع العمال •

ووقفت ايفا ووالدها عند حاجز الباخرة ليشـاهداها معا وهى تتحرك من المرساة • وما ان دار الرفاص دورتين أو ثلاث دورات فى الماء ، حتى فقدت الصغيرة ، بحركة مفاجئة ، توازنها ، وسقطت من جانب الباخرة الى الماء رأسا • وحاول أبوها الاندفاع وراءها وهو لا يكاد يدرى ما هـو فاعل ، لولا أن أمسكه بعض الركاب الذين رأوا أن ثمة شخصا أقدر على انقاذ الطفلة قد سبقه اليها •

ذلك أن توم كان واقفا تحتها مباشرة فى سطح الباخرة الأسفل عندما سقطت · ورآها وهى تصطدم بصفحة الماء ، ثم تغوص ، فوثب وراءها من فوره · ولم يكن من العسير على شخص مثله ، عريض الصدر مفتول الذراعين ، أن يبقى طافيا على صفحة الماء ـ حتى اذا رآها ـ بعد لحظة أو لحظتين ـ تطفو الى السطح ، تلقفها بين ذراعيه ، وسبح بها الى جانب الباخرة ، حيث وضعها والماء يتساقط منها بين مئات الأيدى التى امتدت كلها بلهفة كأنها أيدى رجل واحد لتتلقاها · وبعد لحظات أخرى كان والدها يحملها مغشيا عليها والماء يتساقط منها الى قمرة السيدات بالباخرة، حيث قامت ، كالمعتاد فى مثل هذه الأحوال ، منازعات بين الراكبات ، الطيبات القلب ، كل منهن تريد أن تقوم بأكبر قسط فى اسعاف الطفلة ، فتكون النتيجة عادة اضطرابا ، وتأخيرا فى اسعافها بكل وسيلة ممكنة

وكان اليوم التالى حارا رطبا ساكن الريح عندما اقتربت الباخرة من ميناء نيو أورليانز · وكانت روح النشاط والترقب والاستعداد قد انتشرت فى أنحائها وفى القمرة ، كان الواحد بعد الآخر يجمع حاجياته معا ، وينسقها تمهيدا للهبوط الى الشاطىء ، وكذلك نشط رئيس الخدم والوصيفة فى عمليات التنظيف والترتيب واعداد الباخرة لدخول الميناء فى أبهى رداء ·

وعلى السطح الأسفل ، جلس صاحبنا توم ، عاقدا ذراعيه ، يدير عينيه فى لهفة ، بين الحين والآخر ، نحو مجموعة من الركاب فى الجانب الآخر من الباخرة ·

وهناك ، فى ذلك الجانب ، كانت تقف ايفانجلين ، أكثر امتقاعا مما كانت فى اليوم السابق ، ولكن بلا أعراض أخرى تنم عن الحادث الذى وقع لها · وبجانبها وقف شاب أنيق السمت ، معتمدا بذراعه ـ فى غير اهتمام ـ على احدى بالات القطن ، وكانت مفتوحة أمامه مفكرة كبيرة · وكان الواضح ، من أول نظرة ، أن هذا السيد هو والد ايفا · فقد كان له نفس الرأس فى وضعه النبيل ، ونفس العينين الكبيرتين الزرقاوين ، ونفس الشعر الذهبى القاتم · ولكن

تعبيراته كانت جد مختلفة . فبرغم التشابه التام في اتساع العيون وصفاء لونها الأزرق ، فقد كان ينقص عيني الوالد هذا العمق من التعبير الحالم الغامض ، ويملؤهما تعبير واضـــح مشرق جريء كله الاحساس بهذا العالم الدنيوى . أما الفم المرسوم بدقة وجمال فـ..ن ينم عن الكبرياء وشيء من روح السخرية ، بينما كانت كل حـــركة وسكنة من قوامه الرشيق تدل على شعور واضح بالرفعة الطبيعيـة الموروثة . وكان ينصت في شيء من المرح ، وشيء من عدم الاهتمـام والسخرية والاحتقار ، الى هالى الذى كان مسرفا في التعبير ، مبالغا

في حركاته عن وصف مميزات السلعة التى كان يساوم عليها

وقال والد ايفا عندما فرغ هالى من حديثه :

ـ ان كل مبادىء وفضائل المسيحية محشوة داخل اهاب من الجلد الرقيق الأسود . ليكن . والآن يا صاحبى ، ما قيمة الخسائر ، كما تقولون في كنتكى . أو بالاختصار ، ماذا ينبغى أن أدفع في هذه الصفقة ؟ ما هو المبلغ الذى تريد أن تسلبه منى ، الآن ؟ انطق به . وأسرع .

فقال هالى

ـ اسمع . اذا قلت ان ثمن هذا العبد ألف وثلاثمائة دولار، فلست مغاليا أبدا . أؤكد لك الآن حقا اننى سأكون مغبونا .

فقال الشاب وهو يرمق بنظراته الصافية النفـــاذة هـــالى في سخرية :

ـ يا للمسكين ! ولكننى أعتقد أنك تطالب بهذا الثمن اكراما لى ؟

ـ ربما . ولكن الحقيقة كما يبدو ، هى أن ابنتك الصغيرة مشغوفة به ، وهذا أمر طبيعى .

ـ حقا . يبدو أنك انسان كريم يا صاحبى ! واذا نظـــرنا الى الموضوع من زاوية الرحمة المسيحية ، فما هو المبلغ الذى تنقصه من الثمن اكراما لطفلة صغيرة مشغوفة به كما ترى ؟

فقال النخاس :

ـ الآن ٠ أنظر اليه ، أنظر الى أطرافه ٠٠ الى صدره العريض ٠٠ انه قوى كالحصان ٠ أنظر الى رأسه ٠٠ ان هذه الجبهة العالية تدل على أنه زنجى بارع فى الحساب، وفى مقدوره أن يفعل أشياء كثيرة٠ لقد لمست هذا بنفسى ٠ فان زنجيا من هذا النوع الذكى يساوى مبلغا كبيرا ٠ بل انه يساوى هذا المبلغ على قوة جسمه اذا افترضنا أنه غبى ٠ ولكن اذا أضفنا الى قوته الجثمانية مواهبه الحسابية التقديرية وأنا أستطيع أن أثبت أنها فوق المعدل العادى ، فان الثمن عندئذ يزداد ارتفاعا بلا شك ٠ ان هذا الرجل كان يدير مزرعة سيده كلها٠ ان له مواهب نادرة ٠

فقال الشاب بنفس الابتسامة الساخرة المرفرفة حول فمه

ـ لا ٠ لالا ٠٠ هذا أسوأ ما يكون ٠ ان الزنجى الذى يعرف الكثير لا يصلح أبدا ٠ ان عبيدك الأذكياء يعمدون الى الهـــرب دائما ، ويسرقون الجياد ، ويثيرون القلاقل والاضطرابات بوجه عام ٠ ولهذا أعتقد أنه ينبغى أن تنقص من ثمنه مائتى دولار بسبب ذكائه ٠

ـ اه ٠ ربما يكون فيما تقول شيء من الحقيقة ، ولكن لا تنس ما يتمتع به من حميد الأخلاق ٠ ويمكننى أن أقدم شهادات من سيده ومن آخرين تثبت لك انه رجل شديد التقوى والورع ، عظيم الخشوع والتدين ، ليس له مثيل ٠ بل انه كان يسمى « الواعظ » فى المنطقة التى جاء منها ٠

فأضاف الشاب قائلا فى جفاف :

ـ ولهذا قد نستخدمه ليكون قس العائلة ٠ ! انها لفكـرة ٠ فان الاحساس الدينى أمر نادر بين أفراد أسرتنا ٠

ـ انك تمزح الآن !

ـ وكيف نعرف هذا ؟ ألم تؤكد لى الآن فقط انه واعظ ؟ هـــل امتحن أمام مجلس دينى أو لجنة ؟ والآن ٠ هلم قدم لى مستنداتك

وكان من الممكن أن يفقد النخاس هالى صبره لو لم يكن واثقا أن حديثه الطويل ومبالغاته السخيفة ستكون لها قيمة مالية فى آخـر

الأمر ، وذلك لما كان يراه فى عينى الشاب الزرقاوين الصافيتين من روح العبث والمرح ٠وعلى هذا وضع دفتر حساباته القذرعلى بالةالقطن وشرع ، فى لهفة ، يفحص بعض الأوراق فيه ، بينما وقف الشاب بجانبه ، ينظر اليه فى استهتار ومجون خفيف ٠

وهمست ايفا فى أذن أبيها قائلة بعد أن صعدت على صندوق ولفت ذراعها حول عنقه :

ــ اشتره يا أبى ، وليكن الثمن الذى تدفعه فيه ما يكون ٠ فأنا أعرف أن لديك من المال الشىء الكثير ٠ وأنا أريده ٠

ــ لماذا يا عزيزتى ؟ أتريدين أن تجعلى منه « شخليلة » ، أمأرجوحة حصان أم ماذا ؟

ــ أريد أن أجعله سعيدا !

ــ انه لهدف مبتكر بلا شك ٠

وهنا قدم النخاس شهادة موقعا عليها من المستر شلبى ،فتناولها الشاب بأطراف أصابعه ، وألقى عليها نظرة عابرة فى غير اكتراث ثم قال وقد عاد الى عينيه التعبير الخبيث القديم ٠

ــ انها مكتوبة بخط رجل مهذب ، وواضحة الحروف أيضا ٠ ولكننى الآن لست متأكدا ، بعد هذا كله « من المسألة الدينية ، فان المنطقة تكاد تتهدم لكثرة ما فيها من البيض الأتقياء ، مثل السياسيين الأتقياء الذين عرفناهم قبيل الانتخابات ، ومثل التقوى المنتشرة فى ادارات الولاية ومصالح الكنيسة ، بحيث أصبح الانسان لا يعرف من هو الذى سيخدعه بعد ذلك ٠ وكذلك لا أعرف أيضا شيئا عن عرض العقيدة الدينية فى الأسواق ، فى هذا الوقت على الأقل ٠ اننى لم أطالع الصحف لأعرف ماذا تساوى أخيرا ، وكيف تباع ٠ فكم مائة دولار تريد أن تضيفها على الثمن مقابل هذا التدين ؟

فقال النخاس :

ــ يبدو أنك تحب المزاح ٠ ولكن ان فيما تقول شيئا معقولا ٠

فان هناك ، كما أعرف ، اختـــلافا فى التدين ، فبعض المتدينين من طراز ردىء ٠هناك مثلا رواد الاجتماعات الدينية المتظاهرون بالتقوى، وهناك المغرمون بالترتيل والضجيج ، وهـؤلاء لا يعتد بهم ، ســواء كانوا بيضا أو سودا ٠ ولكن هناك أتقياء من السود حقا ، رأيتهـم بنفسى ، أشخاصا هادئين متزنين بسطاء أمناء أتقياء لا يســـتطيع العالم كله أن يغريهم بعمل شيء يعتقدون أنه خطأ ٠ وانك لترى فى هذا الخطاب ما يقوله سيد توم السابق عنه ٠

وهنا قال الشاب وهو ينحنى على حافظة نقوده :

ـ اذا كان فى مقدورك أن تؤكد لى أننى أستطيع حقا شراء هــذا النوع من التقوى وأن بعض حسنات هذا العبد ستوضع لحسابى فى كتابى بالآخرة على أنها حسنات خاصة بى ، فانى لا أمانع فى زيادة الثمن بعض الشىء ، فما قولك ؟

فقال التاجر

ـ أحق هذا ٠ اننى حقا لا أستطيع هذا ٠ فأنا أعتقد أن كــل إنسان سيعلق من عرقوبه هناك ٠

ـ ان هذا لسوء حظ الانسان الذى سيدفع مبلغا اضافيا على الثمن مقابل التقوى ، دون أن يتمكن من المتاجرة بها حيث يكون أحـــوج الناس اليها ٠

ثم مضى الشاب يقول وهو يقدم رزمة من الأوراق المالية للتاجر:

ـ هذا هو الثمن ٠ **احص المال يا صاحبى العجوز ٠**

فقال وقد أشرق وجهه من فرط الابتهاج : وهو يتنـــاول المحبرة ويكتب وثيقة البيع التى لم يلبث أن سلمها الى الشاب بعد لحظات:

ـ عظيم جدا ٠

وقال الشاب وهو يقرأ وثيقة البيع :

ـ لست أدرى هل لو عرف الناس كل شيء عنى فى السوق ،ماذا

أساوى • كم يساوى مثلا رأسى بشكله هذا ؟ وكم تساوى جبهتى العالية ، وكم يساوى ذراعاى ، ويداى وساقاى ، ثم كم تساوى تربيتى ، وتعليمى ، ومواهبى ، وأمانتى ، ودينى • أوه •• لسوف يكون ثمنى عن هذه الصفقة الأخيرة ضئيلا كما أرى • ولكن هلم يا ايفا •

وأخذ بيدها ومضى الى حيث وقف توم ووضع طرف اصبعه ببساطة تحت ذقنه ، وقال بمرح

ـ أنظر الى يا توم ، وأخبرنى برأيك فى سيدك الجديد !

ورفع توم رأسه • ولم يكن من الطبيعى أبدا ألا يشعر الانسان بالبهجة وهو ينظر الى هذا الوجه الشاب المرح الجميل • وأحس توم بالدموع تطفر الى عينيه وهو يقول بكل قلبه

ـ بارك الله فيك يا سيدى •

ـ عظيم • أرجو أن يستجاب دعاؤك • ما اسمك ؟ توم ؟ اننى أسألك لأنه من حقك تماما أن تفعل مثلى وتسألنى عن اسمى • هل تستطيع أن تسوق الجياد يا توم ؟

فقال توم :

ـ لقد عشت دائما بين الجياد • وكان سيدى شلبى يربى الكثير جدا منها •

ـ عظيم • أعتقد أنى سأعهد اليك بقيادة المركبات بشرط ألاتشرب الخمر أكثر من مرة فى الأسبوع ، ما لم تضطر الى هذا فى أحوال طارئة •

فنظر توم اليه بدهشة ، وبشىء من الألم ، ثم قال :

ـ اننى لا أذوق الخمر أبدا يا سيدى •

ـ لقد سمعت عن مثل هذا من قبل يا توم • ولكننا سنرى • وأيا كان الأمر ، فان عزوفك عن شرب الخمر سيكون لصالح الجميع •

ولا عليك يا وندى ٠

قالها بروح طيبة عندما رأى توم لا يزال متألما ، ثم أردف قائلا :

ـ اننى لا أرتاب فى نواياك الطيبة ٠

فقال توم :

ـ ان نواياى طيبة بكل تأكيد يا سيدى ٠

وهنا قالت ايفا :

ـ ولسوف تنعم بحياة طيبة ٠ فان أبى يحسن معاملة الجميع ولكنه فقط يحب الضحك عليهم ٠

فقال والدها ، سانت كلير ، وهو يضحك ويستدير وينصرف :

ـ ان أباك شاكر لك هذه التزكية ٠

الفصل الخامس عشر

وهو يتحدث عن سيد توم الجديد وأمور أخرى منوعة

لما كانت خيوط حياة بطلنا المتواضعة قد اشتبكت الآن بخيوط حيوات أرفع منها وأعلى ، فقد أصبح من الضروري أن نورد هنا مقدمة موجزة عن هذه الحيوات الجديدة فنقول :

كان أوجستين سانت كلير ابن مزارع ثرى بولاية لويزيانا تنحدر أسرته من أصل كندى ٠ وهو أى الوالد ، أحد أخوين يتشابهان الى حد كبير فى المزاج والطباع ٠ وقد استقر أحدهما فى مزرعة مزدهرة فى فيرمونت ، وأصبح الآخر مزارعا ثريا فى لويزيانا ٠ وكانت أم أوجستين سيدة فرنسية تدين بمذهب الهوجنوت ، وكانت أسرتها قد هاجرت الى لويزيانا فى أيام استعمارها الأولى ٠ وكان أوجستين وشقيقه ابنيهما الوحيدين ٠ واذ كان أولهما قد ورث عن أمه بنية رقيقة الى أقصى حد ، فقد عاش أكثر سنى حداثته فى رعاية الأطباء، وأرسل الى عمه فى فيرمونت عسى أن تقوى بنيته ويشتد عوده فى ذلك الجو الصحى البارد المنعش ٠

وكان فى طفولته على جانب كبير من رقة الأخلاق وحساسية الطباع ، أى أقرب الى رقة النساء منه الى خشونة الرجال ٠ ولكن الزمن خلع على هذه الرقة غشاء الرجولة الخشن ، ولذلك قل من الناس من كان يعرف أن هذه الرقة لا تزال كامنة فى أعماقه ٠ وكانت مواهبه تبدو دائما من الدرجة الأولى وان كانت ميوله الفكرية تتجه الى المثل العليا والفلسفة الجمالية ٠ وكان يشمئز من تلك الحياة الواقعية التى هى أثر من آثار اتزان مواهب الناس ٠ وما أن فرغ من مرحلة الدراسة الجامعية حتى تركزت كل مشاعره واحساساته فى الجوانب العاطفية المثالية من الحياة ٠ وسرعان ما

جاءت ساعته الحلوة ــ الساعة التى لا تأتى الا مرة واحدة فى العمر .. لقد ارتفع نجمه فى الأفق . انه النجم الذى كثيرا ما يرتفع بلا جدوى فلا يبقى من ذكراه الا حلم من الأحلام ، وهكــــذا كان نجمه .

وإذا تركنا المجاز الى الحقيقة ، قلنا انه رأى فتاة جميلــة موفورة العقل تقيم فى احدى الولايات الشمالية وظفر بحبها وخطبها لنفسه ثم عاد هو الى الجنوب ليعد العدة لزواجهما ، ولكن حدث فجأة أن أعيدت رسائله اليه بطريق البريد مع خطاب قصير من الوصى عليها يخبره فيه أن خطيبته ستكون ، قبل وصول هذه الرســائل اليه ، زوجة رجل آخر . فكاد يجن من شدة الألم ، ثم داعبه الأمل ، بلا جدوى ، كما داعب الكثيرين غيره ، بأن فى مقدوره أن ينتزع هــذا الحب من قلبه بجهد واحد قوى . ولما منعته كبرياؤه أن يطلب تفسيرا لما حدث ، أو يسعى للحصول بطريقة ما على هذا التفسير، فقد أغرق نفسه فى خضم من الحفلات الاجتماعية الصاخبة ، حتى اذا انصرم أسبوعان منذ استلامه ذلك الخطاب المشئوم ، فاذا هو خطيب لملكــة جمال الموسم ، وما ان تمت الاستعدادات اللازمة ، حتى أصبح زوجا لفتاة جميلة سوداء العينين رائعة القوام ، قدمت اليه بائنة قدرهــــا ألف دولار ، فخطر لجميع الناس ، بطبيعة الحال ، أنه شاب سعيد .

وفيما كان الزوجان يستمتعان بشهر العسل ويقيمـــان الولائم الفاخرة لطائفة من الأصدقاء فى دارهما الأنيقة القريبة من بحــيرة بوكارترين ، اذا رسالة تصل اليه ، ذات يوم ، مكتوبة بذلك الخط الذى يذكره أقوى ذكرى . وقد وصلته الرسالة وهو مستغرق فى حديث كله البهجة والمرح مع عدد كبير من الأصدقاء والصديقات . فامتقع وجهه بشدة وهو يرى خط الرسالة ، ولكنه تمالك نفسه ، وأتم الحديث البهيج الذى كان يتبادله فى تلك اللحظة مع ســـيدة تجلس أمامه ، ولم يمض الا قليل ، حتى انسحب بهدوء الى غرفتــه الخاصة حيث راح يقرأ ــ على انفراد ــ الخطاب الذى لم تعد ثمــــة جدوى من قراءته الآن . لقد كان زاخرا بتفصيلات مسهبة من خطيبته السابقة ، تذكر له فيها ألوان الاضطهاد التى تعرضت لها من أسرة

الوصي عليها ، ليرغموها على الزواج بابنه ٠٠ وذكرت له أن رسائله قد ظلت مدة طويلة لا تصل اليها ، وأنها هي ظلت تكتب اليه المرة بعد الأخرى حتى كلت وخامرها الشك ، وكيف ساءت صحتها آخر الأمر تحت وطأة القلق ، ثم اكتشفت آخر الأمر المؤامرة كلها التي دبرت لهما ٠ واختتمت الرسالة بعبارات الأمل والشكر ، وبالتعبير عن حبها الخالد ، مما جعل الشاب اليائس يحس بآلام دونها آلام الموت ، فكتب اليها من فوره :

« لقد تلقيت رسالتك ، ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان ٠ فقد صدقت كل ما سمعت ٠ واستبد اليأس بي ٠ وأنا الآن متزوج ! ٠ ومعنى هذا أن كل شيء قد انتهى ٠ ولم يبق لكل منا غير شيء واحد ٠٠ هو النسيان ٠ »

وبهذا انتهت كل صور الحياة الخيالية المثالية بالنسبة لأوجستين سانت كلير ٠ ولكن الواقع بقى ٠ بقى الواقع كالشاطىء المستوى العارى الموحل بعد أن انحسرت عنه أمواج الجزر الزرقاء المتألقة ، بكل ما عليها من زوارق منسابة ، وسفن بيضاء الأجنحة ، وموسيقى المجاديف ٠٠ وخرير المياه ٠٠ كل هذا قد مضى ، ولم يبق غير الواقع العارى الموحل - تلك هي الحقيقة العارية ٠

ان قلوب الناس ، في الروايات طبعا ، تتحطم ، وتهلك ، وينتهي بذلك كل شيء ٠ وهذا أمر سهل الوقوع في القصص ٠ أما في واقع الحياة ، فنحن لا نموت حين يموت كل ما يحيل الحياة بهيجة في أنظارنا ٠ فان هناك الشيء الكثير جدا من شواغل الاهتمام بالطعام والشراب والملبس ، والتمشي ، والزيارة ، والبيع والشراء ، والحديث والقراءة وكل ما تتكون منه « الحياة » التي لا مندوحة لنا عن المضي فيها ، والتي لا مفر لأوجستين من السير في ركابها ٠ ولو كانت زوجته سيدة مجربة عركتها تجارب الحياة ، لأمكنها أن تصنع له شيئا - كما ينبغي أن تفعل الزوجة - في جمع خيوط الحياة الممزقة ، ونسجها من جديد ثوبا من البهجة والاشراق ٠ ولكن مارى سانت كلير لم يكن في مقدورها حتى أن ترى أن خيوط حياته قد تمزقت ٠ لأنها ، كما سبق القول ، كانت جسما جميلا ، وعينين

رائعتين ، ومائة ألف دولار ، ولا شيء غير هذا مما يصلح لعلاج القلب المحطم ، والعقل المضطرب ٠

ولما وجد أوجستين راقدا على المتكأ ، يقول انه يشكو صداعا مفاجئا بسبب مأساته ، وقد كست وجهه صفرة الموت ، أشارت عليه مارى باستنشاق النشادر ٠ ولما تكررت حالة الصداع والشحوب أسبوعا بعد أسبوع ، لم تزد على أن قالت انها لا تظن أبدا أن أوجستين مريض حقا ، ولكنه يبدو أنه معرض لنوبات من الصداع فحسب ، وأن هذه النوبات من سوء حظها ، لأنها تمنعه من الاستمتاع بمصاحبتها الى الحفلات والسهرات ، وأن ذهابها اليها بمفردها يحرج مركزها لاسيما وأنهما حديثا العهد بالزواج ٠ وكان أوجستين مسرورا فى أعمــــاق نفسه لأنه تزوج بفتاة ليست قوية الملاحظة ، نافذة البصيرة ٠ فلما انتهى شهر العسل بمجاملاته وعواطفه وبسماته ، اكتشف أن السيدة الجميلة الشابة التى عاشت طيلة حياتها موضع التدليل والرعاية ، لا تصلح أن تكون ربة بيت فى الحياة الزوجية ٠

ان مارى لم تتمتع أبدا بمقدرة كبيرة على الحب أو رقة الاحساس، وكان الشيء القليل الذى تتمتع به من هاتين الفضيلتين ، قد غرق تحت طوفان من الأنانية الشديدة اللاشعورية ٠ وهى أنانية لاجدوى من علاجها لأن مارى لم تكن تحس بها أو تدرك وجودها ٠ فقد كانت منذ طفولتها محاطة بالخدم الذين لم يكن لهم عمل الا تحقيق أهوائها ورغباتها ، ولم يخطر ببالها أبدا أن لهؤلاء الخدم شعورا أو حقوقا ولو على أبعد احتمال ٠ ولم يضن عليها والدها ــ الذى لم يكن له أبناء غيرها ــ بشيء يستطيع انسان ما أن يقدمه لهــا ٠ ولمـا بلغت مرحلة الصبا والشباب ، وكانت جميلة ، مهذبة ، وارثة للمـــال الكثير ، ترامت عند قدميهـــا زفرات القلوب المناسبة لهـــا وغير المناسبة ، المستكنة فى صدور الجنس الآخر ٠ ولم يخامرها أدنى شك فى أن أوجستين شاب سعيد الحظ لزواجه بهـــا ٠ وانه لمن الخطأ الكبير الاعتقـــاد بأن المرأة التى بلا قلب يمكن أن تتبــادل العواطف بسهولة مع أحد ٠ فليس هناك على وجه الأرض مغتصب للحب أشد قسوة وجورا من المرأة الأنانية ٠ وهى كلمـــا فقدت

جاذبيتها ، ازدادت غيرة وقسوة فى اغتصابها للحب الى آخر قطرة منه . ولهذا ، فانه عندما كف أوجستين سانت كلير عن مجاملاته ومناجاته العاطفية التى كان يغدقها عليها أثناء الأسابيع الأولى بعد الزواج ، وجد أن « سلطانته » غير مستعدة أبدا للتخلى عن عبد هواها ! وكثرت الدموع والخصومات ، والثورات الخفيفة . وكذلك كثرت الشكايات من هذه الحياة ، وتكررت حالات الاكتئاب ، وزادت الطباع حدة وسوءا . وكان أوجستين طيب القلب متسامحا فى حقوقه بطبيعته ، فحاول أن يستجلب رضاها بضروب الهدايا والملق ، حتى اذا أصبحت مارى أما لطفلة جميلة ، تيقظت فى أعماق نفسه ، برهة من الزمن ، مشاعر شبيهة بالرقة والحنان .

وكانت والدة أوجستين سيدة ذات أخلاق رفيعة طاهرة الى حد كبير . ولهذا أطلق اسمها على ابنته ظنا منه أنها ستصبح فى مستقبل حياتها صورة مكررة منها . وتقبلت زوجته هذا الأمر فى غيرة شديدة ، وراحت تنظر الى حب زوجها وتفانيه فى حب ابنته بالشك والبغض . فقد رأت أن كل ما كان ينبغى أن يعطى لها ،قد أخذ منها . وهكذا أخذت صحتها تسوء تدريجيا منذ أن ولدت ابنتها . ولم يلبث هذا اللون من الحياة البليدة الخاملة ، بدنيا وفكريا ، والشعور الدائم بالاستياء وعدم الرضى ، مع الضعف الذى صاحب فترة الحمل والوضع ، أن حول فى خلال أعوام قليلة هذه الفتاة ذات الجمال المزدهر الشاب ، الى سيدة مريضة شاحبة واهية ، كل وقتها مقسم بين مختلف الأمراض والعلل الوهمية ، وكل تفكيرها مركز فى اعتبار نفسها أكثر الناس بؤسا وتعرضا للاضطهاد وسوء المعاملة .

ولم يكن ثمة نهاية لمختلف شكاياتها ، ولكن حصنها الأساسى الذى كانت تلجأ اليه دائما هو الشكوى من الصداع الذى كان أحيانا يلزمها الفراش ثلاثة أيام من كل ستة . ولما أصبح كل ما يتعلق بالتنظيم والترتيب والاشراف المنزلى فى أيدى الخدم ، أحس سانت كلير ، بطبيعة الحال ، بعدم الراحة والاستقرار . وكانت ابنته رقيقة البدن ، ضعيفة الصحة الى حد كبير ، ومن ثم

خشى ، اذا لم يكن ثمة من يرعاها ، أن تروح صحتها ، ثم حياتها ، ضحية قصور أمها وعجزها • فصحبها معه فى رحلة الى فيرمونت ، وهنـــاك استطاع أن يقنع ابنـة عمـه الآنسـة أوفيليا ســانت كلير بالعودة معه الى مقره بالجنـوب • وها هم أولاء الآن فى طريق العودة على هذه الباخرة بعد أن قدمناهم الى القراء •

ولكن لا يزال ثمة وقت لتقديم الآنسة أوفيليا حتى تصل الباخرة الى مدينة نيو أورليانز التى كانت قبابها وأبراجها تبدو من بعيد •

ان أى شخص قام بجولة فى ضياع ولايات نيو انجلاند ، سوف يتـذكر رؤيته ، فى احـــدى القرى الظليلة ، لذلك البيت الريفى الكبير ، بفنائه الواسع الأخضر النظيف ، المظلل بأغصان شـــجر الاسفندان السكرى الكثيفة •كما يتذكر جو الهدوء والنظام والدعة والسكينة التى لا أثر للاضطراب فيها ، والتى تنتشر على المكان كله• لم يكن ثمة شىء ضائع أو موضوع فى غير موضـــعه حتى لو كان قضيبا صغيرا مخلخلا فى السياج ، أو هنة صغيرة ملقاة على الأرض الخضراء التى تنبت فيهــا أعواد الزنبق تحت النوافذ • وســـوف يتذكر فى الداخل الغرفات الواسعة النظيفة التى لا يبدو أبدا أن ثمة شيئا يحدث فيها أو سوف يحدث ، والتى يستقر كل شىء فيها دائما فى موضعه ، والتى تجرى فيها شئون التدبير والتنسيق بدقة وهدوء كساعة الحائط القديمة الموضـــوعة فى ذاك الركن • وفى « غرفة محفوظات » الأسرة ، كما يسمونها ، ســوف يتذكر خزانة الكتب القديمة المبجلة بأبوابها الزجاجية ، حيث يوجد بهــا كتاب تاريخ رولان و « الفردوس المفقود » لملتون ، و « مسير الحـــاج » لبنيان ، و « كتاب الأسرة المقدس » لسكوت ، مرتبة جنبــا الى جنب أحسن ترتيب مع أعداد كبيرة من الكتب الأخرى التى لاتقل عنها جدية ووقارا • ولم يكن بالبيت خدم ، فيما عدا هذه السيدة ذات « القلنسوة » الناصعة البيـــاض ، والنظــارة ، التى تجلس للخياطة بعد ظهر كل يوم بين بناتها كأنها لم تقم أبدا بعمـــل فى البيت ، ولن تقوم بعمل • ذلك لأنها هى وبناتها كن يقمن بأعمال البيت فى « وقت مبكر جدا من اليـــوم » فاذا رأيت البيت فى أية

لحظة حسبت أن كل شيء فيه قد تم لساعته • فلم يحدث أبدا أن بدت أرض المطبخ ملوثة أو مبقعة ، ولم يحدث أبدا أن كانت المناضد والمقاعد وأدوات الطهو غير منظمة أو منسقة ، وذلك رغم أن أفراد الاسرة كانوا يتناولون فيه وجبات الطعـام ثلاث مرات أو أربعا فى اليوم ، ورغم أن عملية غسل ملابس الأسرة وكيها كانت تتم فيـه أيضا ، ورغم القيام بصنع أرطال الزبد والجبن فيـــه ، وكأنما هى نظهر الى عالم الوجود بطرائق خفية سرية •

فى هذه المزرعة ، وفى هذا البيت ، وهذا الجو العائلى ، أمضت المس أوفيليا فى هدوء ودعة خمســـة وأربعين عاما حتى دعاها ابن عمها لزيارة قصره فى الجنوب • ورغم أنها أكبر بنات أسرتها سنا، فان أبويهـــا كانا يريانها « طفلة من أطفالهمـا » ، ومن ثم أثارت دعوتها الى أورليانز اهتماما كبيرا فى محيط الأسرة• فالوالد العجوز المشتعل الرأس شيبا قد تناول أطلس مورس من خزانة الـكتب ، وراح يبحث عن موضع المدينة بالتحديد من خطوط الطول والعرض، ويقرأ رحلات فلنت فى الجنـــوب والغرب ، ليكون فكرة عامة عن طبيعة تلك المناطق •

وتساءلت الأم فى لهفة وقلق ألم تكن أورليانز « من أسوأ المدن وأكثرها شرا » « وأن الذهاب اليها يشبه تماما الذهاب الى جزائر ساندويتش أو أى مكان آخر يسكنه الوثنيون »

وسرعان ما انتشر النبـــأ فى بيت القسيس ، وبيت الطبيب ، ومتجر أزياء المس بيبودى أن « الحديث » قد دار حول ذهاب المس أوفيليا سانت كلير الى أورليانز مع ابن عمهـا • ولم يسع سـكان القرية كلها ، بطبيعة الحال ، الا الاشتراك فى عملية تبادل الحديث عن هـذا الأمر المهم ، فالقسيس الذى كان شـديد التعصب لمبدأ تحرير العبيد ، يعرب عن مخاوفه من أن هذه الخطوة قد تشـــجع الجنوبيين على استمرار استعبادهم للزنوج ، بينمـا أيد الطبيب ، وهو استعمارى متعصب ، الرأى القـــائل بذهاب مس أوفيليا لكى يرى أهالى أورليانز « أننا لا نضمر لهم حقـــدا » ، وكان رأيه ، فى الواقع ، هو أن سكان الجنوب فى حاجة الى تشجيع وتأييد • فلما

عرف الأهلون جميع التفاصيل الخاصة باعتزام أوفيليا الذهاب ، انهالت عليها الدعوات الى الشاى من الأصدقاء والجيران مدة أسبوعين ، وضعت خلالهما آراؤها ومشروعاتها موضع المناقشة . فالمس موزلى التى كانت تأتى الى البيت للمعاونة فى اعداد الملابس قد اكتسبت فى محيط القرية أهمية كبيرة بسبب معلوماتها اليومية عن الملابس التى تعدها المس أوفيليا للرحلة . وقد ثبت عن يقين أن « السيد سنكلير » ـ وهو الاسم الذى يطلق عليه فى تلك النواحى ـ أعطى المس أوفيليا خمسين دولارا لتشترى ما يحلو لها من ثياب ، وأن ثوبين جديدين من الحرير وقبعة أرسلت اليها من مدينة بوسطن . وانقسم الرأى العام فى القرية الى قسمين فيما يتعلق بهاتين المنحتين السخيتين . فبعضهم يؤكد أن هذا كله لا غبار عليه اذا عرف أن مثل هذا لا يحدث للانسان الا مرة واحدة فى العمر ، والبعض الآخر يؤكد بكل قواه أنه كان من الأفضل أن تمنح هذه الأموال والهدايا لبعض الارساليات التبشيرية . ولكن الجميع اتفقوا فى الرأى على أن تلك النواحى لم تشاهد أبدا مظلة «شمسية» فاخرة كالتى أرسلت اليها من نيويورك ، وأنها تمتلك ثوبا من الحرير الذى يمكن أن يقف بمفرده على الأرض ، بصرف النظر عما قد يقال عن صاحبته . ودارت شائعات كثيرة أخرى صدقها الناس عن منديل جيب رائع التطريز ، بل امتدت هذه الشائعات الى حدود الولاية تقول ان لمس أوفيليا منديلا كل أطرافه من « المخرمات » الفاخرة . وقد أضيف الى هذا أنه أيضا مطرز فى جميع أركانه ، ولكن هذه النقطة الأخيرة لم تثبت بصفة قاطعة ، وهكذا بقيت ، فى الواقع ، موضع الشك حتى يومنا هذا .

أما المس أوفيليا ، فهى كما تراها الآن ، واقفة أمامك ، فى ملابس سفر من التيل البنى اللامع ، طويلة القامة ممتلئة الجسم . وكان وجهها نحيلا ، على شىء من حدة الملامح ، وشفتاها مزمومتين ، كشفتى شخص تعود أن يحدد رأيه عن كل ما يعن له من أمور . بينما كانت لعينيها السوداوين النافذتين طبيعة البحث والتقصى وسرعة الحركة ، وملاحظة كل شىء ، وكأنهما تبحثان دائما عن شىء ترعيانه وتهتمان به .

وكانت كل حركاتها حادة ، حاسمة ، نشيطة ، فاذا تحدثت كانت كلماتها واضحة المعنى متجهة الى الغرض المقصود وان لم تكن أبدا ثرثارة كثيرة الحديث ٠

أما عن عاداتها فقد كانت هى النظام والترتيب والدقة مجسمة ٠ وهى فى دقة مواعيدها كالساعة الدقيقة وكانت فى صلابة رأيها كقاطرة سكة الحديد ٠ وانها لتنظر فى ازدراء وكره شديد الى كل من يختلف معها فى هذه الطباع ٠

اما كبيرة الكبائر وجماع الشرور فى نظرها ، فيمكن التعبير عنها بكلمة واحدة من الكلمات التى اعتادت هى أن تسميها «العجز» أو « قلة الحيلة » ذلك أن كل مشاعر احتقارها تتركز تماما فى رنين صوتها وهى تنطق بكلمة « العجز » ، وهى تعنى بهذا كل أنواع الأعمال والاجراءات التى لا تحقق غرضا معينا لا مندوحة عنه ٠ فالأشخاص الذين لا يفعلون شيئا ، أو لا يعرفون على وجه التحديد ماذا هم فاعلون ، أو الذين لا يتخذون الطريق المباشر لتحقيق الهدف المرتسم فى أذهانهم ، هم عادة موضع احتقارها الشديد ، وهو احتقار لا تعبر عنه بلسانها بقدر ما تعبر عنه بملامح وجهها ، وكأنما هى تأنف من مجرد الحديث فى هذا الشأن ٠

أما عن رقيها الذهنى وثقافتها الفكرية ، فقد كان لها عقل قوى نشيط صاف ٠ وكانت كثيرة الاطلاع فى كتب التاريخ والأدب الانجليزى الراقى القديم ، قوية التفكير وان كان تفكيرها محصورا فى مجال ضيق ٠ أما اتجاهاتها الدينية فكانت قد تحددت واستقرت فى صور ايجابية واضحة استقرت عليها ، كأنها لفائف فى حقيبة عليها شىء ٠ وكذلك أيضا شأن آرائها فيما يتعلق بمعظم شئون الاتجاهات والعلاقات السياسية فى قريتها ٠ وكان أهم وأعمق من هذا كله ،وأعرض وأسمى شىء فى حياتها ، وأقوى شىء فيما يتعلق بكيانها ضميرها الحى ٠ فليس فى أى مكان آخر بالعالم نساء

يسيطر عليهن ضميرهن ويستحوذ على كيانهن كله كنساء نيو انجلاند · انه الأساس الصلب العميق الذى يرتكز عليه كيانهن ، ويسمو بهن الى أعلى عليين ·

وكانت المس أوفيليا شديدة التفانى فى « الشعور بالواجب » فهى اذا عرفت « طريق الواجب » ـ كما نسميه ـ وتأكدت من اتجاهه لا تستطيع قوة على الأرض أن تجعلها تحيد عنه · انها لا تتردد عن السير مباشرة فيه ولو انتهى بها المطاف الى بئر عميقة أو الى مواجهة فوهة مدفع ، وليست تحتاج فى ذلك الا الى أن تتأكد أنه طريق الواجب · وكان مستوى الحق عندها عاليا رفيعا شاملا دقيقا ، لا تؤثر فيها أسباب الضعف البشرى ، ولهذا فانها لم تصل قط الى هذا المستوى وان بذلت أقصى الجهود لبلوغه ، ولهذا كانت تحس بطبيعة الحال بألم فى معظم الأوقات لعجزها هذا مما أضفى على سلوكها الدينى طابعا عنيفا لا يخلو بعض الشىء من الاكتئاب ·

ولكن كيف أمكن مع هذا كله أن تتجاوب المس أوفيليا مع مثل أوجستين سانت كلير ـ المرح السهل غير المواظب وغير العملى فى تصرفاته ، المتشكك ، الذى يدوس ، وهو يمضى فى الحياة حرا طليقا ، على كل رأى من آرائها ومبادئها المقدسة العزيزة عليها ·

ان شئت الحقيقة ، قلنا ان المس أوفيليا كانت تحبه · فقد كانت هى التى تدرس المواعظ والحكم له وهو صغير ، وكانت هى التى تصلح ملابسه وتمشط شعره وتوجهه ، بصفة عامة ، الى الطريق الذى ينبغى أن يسير فيه ، واذ كان لقلبها جانب عاطفى ، فقد استطاع أوجستين ـ شأنه دائما مع معظم الناس ـ أن يحتكر لنفسه قسما كبيرا من قلبها هذا · والى هذا السبب يرجع نجاحه فى اقناعها بسهولة أن « طريق الواجب » يتجه هذه المرة نحومدينة نيو أورليانز ، وأنه ينبغى لها أن تمضى معه لتعنى بالصغيرة ايفا ، وأن تمنع كل شىء من أن يتحطم ويدمر بسبب نوبات المرض الكثيرة التى تعترى زوجته · وقد أثار عطفها وشفقتها مجرد التفكير فى بيت ليس فيه سيدة تعنى به وتشرف على أموره · ثم انها أحبت

هذه الطفلة اللطيفة الجذابة التى قل من الناس من لم يحبها • ومع أنها كانت تعتبر أوجستين أقرب الى الالحاد منه الى الايمان ، فقد كانت تحبه وتضحك من نوادره وتحتمل نقائصه الى الحد الذى يجعل الذين يعرفونه لا يكادون يصدقون • فاذا أراد القارىء بعد هذا أن يزداد علما بالمس أوفيليا ، فعليه أن يكشف عن ذلك بنفسه •

فها هى ذى الآن جالسة فى بهو الباخرة ، يحيط بها عدد كبير من الحقائب الكبيرة والصغيرة المصنوعة من قماش الطنافس ، والصناديق ، والسلال تحتوى كل منها على أشياء خاصة كانت تربطها وتجمعها وتشدها ثم توثقها بوجه ينم عن الاهتمام الشديد •

وكانت تقول للطفلة :

ـ اسمعى يا ايفا • هل أحصيت كل شىء يخصك ؟ انك لم تفعلى بطبيعة الحال ، فان الأطفال لا يفعلون هذا أبدا • فها هو ذا الكيس المرقط والصندوق الصغير الأزرق ، والشريط المحتوى على أحسن قبعة لك • هذان اثنان • ثم كيس المطاط المتمم للثلاثة وصندوق الشرائط والابر الخاص بى أربعة • فهذه وصندوق يدى خمسة • وصندوق أطواقى ستة • وهذه الحقيبة الصغيرة لأدوات الشعر ومجموع هذه سبعة • وماذا فعلت بمظلتك ، هاتيها لأشبكها بمظلتى بعد أن ألفها بالورق • هكذا •

ـ عجبا ياعمتى • اننا سنمضى الى البيت فورا • فما فائدة هذا كله ؟ ••

ـ ليكون كل شىء كما ينبغى يابنيتى ، فالواجب أن يحافظ الناس على حاجياتهم اذا أرادوا أن تكون لديهم حاجيات • والآن يا ايفا ، هل أودعت قمع خياطتك فى صندوقك ؟

ـ الحقيقة أننى لا أعرف ياعمتى •

ـ لا عليك • لسوف أبحث أنا عنه فى صندوقك : آه •• ان فيه القمع ، والشمع وملفين للخيط ، والمقص ، والسكين ، وابرة التطريز ، عظيم جدا • ضعيه هنا • عجبا • ماذا كنت تفعلين

يابنيتي عندما كنت تسافرين معه وحده ؟ لا شك أنك كنت تفقدين كل ما لك ٠

ـ نعم ياعمتي ٠ انني كنت أفقد أشياء كثيرة ، وكنـا حين نقف هنا أو هناك يشتري أبي لي بدلا منها ، أيا كان الشيء الضائع ٠

ـ ليرحمنا الله يا ابنتي ـ يالها من فوضى ٠

ـ لقد كانت هذه طريقة سهلة جدا ياعمتي ٠

ـ بل ان هذا يدل على العجز وقلة الحيلة يا ابنتي ٠

ـ عجبا يا عمتي ٠ ماذا أراك تفعلين الآن ؟ ان هـذه الحقيبـة الكبيرة قد امتلأت بحيث لن تستطيعي اغلاقها ٠

فقالت العمة بلهجة القائد العسكري وهي تضغط الأشياء داخل الحقيبة ثم تحاول احكام الغطاء «بل ينبغي أن تغلق» ٠ولكن انفراجا بسيطا بقي بين طرفيها مما جعل أوفيليا تقولا لايفا مشجعة :

ـ اصعدي هنا يا ايفا ٠ ان ما سبق أن فعلناه يجب أن نفعله مرة أخرى ، يجب أن نضم حافتي هذه الحقيبة ، ثم نغلقهـا بالقفل ٠ وليس هناك مفر من هذا ٠

ولم تلبث الحقيبة ، التي تخاذلت أمام هـذه العزيمة بلا ريب ، أن استسلمت وطقطق لسان القفل بقوة في الفجوة وأدارت أوفيليا المفتاح ثم أودعته جيبها مزهوة منتصرة وهي تقول :

ـ اننا الآن على استعداد ٠ فأين والدك ؟ أعتقد ان الوقت قد حان لانزال هذه الحقائب ٠ امضي يا ايفا وانظري أين ذهب والدك ٠

ـ انه هناك ٠ في الجانب الآخر من جناح السادة الركاب ، يأكل برتقالة ٠

فقالت العمة :

ـ انه لا يعرف أننا قد اقتربنا من آخر الرحلة ٠ أليس من الأوفق أن تسرعي وتتحدثي اليه ٠

فقالت ايفا :

ــ ان أبى لا يتعجل الأشياء أبدا . ونحن لم نصل بعد الى المرساة . تعالى هنا ياعمتى الى هذا الحاجز . انظرى . ها هو ذا بيتنا .. فى ذلك الشارع .

وهنا بدأت الباخرة ــ فى زئير قوى كأنه صادر من وحش ضخم مرهق ــ تستعد لشق طريقها بين مختلف السفن والبواخر فى المرساة ، وأخذت ايفا ، وهى مبتهجة ، تشير الى مختلف الأبراج والقباب والمعالم التى تعرف بها مدينتها ومسقط رأسها .

وقالت أوفيليا

ــ نعم . نعم ياعزيزتى . عظيم جدا . ولكن رحمتك يارب . لقد وقفت الباخرة ، فأين الدك ؟

وهنا بدأ ضجيج وصخب الهبوط من الباخرة ــ خدم الباخرة يندفعون فى عشرين طريقا مرة واحدة ، والرجال يشدون الصناديق والأكياس والحقائب ، والنساء ينادين بلهفة على أبنائهن ،والجميع يتزاحمون ويتسابقون نحو المعبر المؤدى الى الرصيف .

وجلست المس أوفيليا بعزم واصرار على الحقيبة التى أخضعتها لسلطانها ، ونسقت حولها بقية الأمتعة بطريقة عسكرية رائعة ، وبدا عليها الاصرار على الدفاع عنها حتى النفس الأخير .

وكانت هذه العبارات تنهال عليها كالمطر دون أن تعيرها التفاتا

« هل أحمل لك هذه الحقيبة ياسيدتى ؟ » « هل أمضى بهذه الأمتعة الى الرصيف ؟ » « دعينى أهتم بأمتعتك يا آنستى » « ألا يحسن أن أهبط بهذه الحاجيات يا آنسة ؟ » ولكنها كانت تجلس بصلابة واصرار ، كأنها إبرة خياطة مغروزة فى لوح خشب ، ممسكة بالمظلات ، ترد على الحمالين باصرار عنيف يملأ أغلظهم قلبا بالاستياء واليأس ، وتوجه بين الحين والآخر ، الى ايفا، هذا التساؤل « بالله أين ذهب أبوك ؟ ليس من المحتمل أن يكون قد سقط فى الماء ، ولكن لا شك أن شيئا ما قد حدث له »

وفيما كانت تثير انفعالاتها الى حد القلق والمخاوف ، اذا هو يأتى اليها ببساطته المعتادة فى السير والحركة ، ويقـــدم الى ايفا ربع برتقالة كان يأكل منها ويقول :

ـ هيه يا ابنة عمى فيرمونت . أعتقد أنك متأهبة .

فقالت أوفيليا :

ـ لقد كنت متأهبة وفى انتظارك منذ ساعة أو نحوها . بل لقد بدأت أشعر حقا بالقلق عليك .

فقال :

ـ آه . انك دائما بارعة . ان المركبـــة فى الانتظار ، وقد خف الزحام . الآن يستطيع الانسان أن يسير بطريقـة معقولة محترمة دون أن يدفع هنا أو هناك .

ثم قال الى سائق مركبة كان وراءه :

ـ هلم .. تعال احمل هذه الأشياء .

وقالت المس أوفيليا :

ـ لسوف أمضى وأشرف على وضعها فى داخل المركبة .

فقال سانت كلير

ـ عجبا يا ابنة عمى . ما جدوى هذا ؟

فقالت المس أوفيليا وهى تشير الى ثلاثة صناديق وكيس :

ـ على أى حال سوف أحمل هذا وهذا وهذا .

ـ ياعزيزتى المس فيرمونت . لا ينبغى أن تتصرفى هنـا بنفس الطريقة التى تتصرفين بها فى جبالك الخضراء . ويجب على الأقل أن تتكيفى مع بعض التقاليد الجنوبية . فلا يجوز أن تسيرى تحت كل هذه الأثقال والا حسبوك خادمة . اعطيها لهذا الرجل، ولسوف يعنى بوضعها كما لو كانت مجموعة من البيض .

وارتسمت أمارات الابتئاس على وجه المس أوفيليا وهى ترى ابن عمها يأخذ منها كل كنوزها ، ولكنها لم تلبث أن ابتهجت حين وجدت نفسها مرة أخرى معها فى المركبة ، وأن تراها سليمة من كل أذى .

وقالت ايفا :

ـ أين توم ؟

ـ انه على المقعد الخارجى ياحبيبتى . اننى سأقدمه الى والدتك لأسترضيها ولأكفر به عن ذلك السائق السكير الذى قلب المركبة .

فردت عليه ايفا قائلة :

ـ أوه . اننى أعلم أن توم سيكون سائقا ممتازا . انه لن يسكر أبدا .

ووقفت المركبة أمام قصر قديم ، شيد على ذلك النمط العجيب الذى يمتزج فيه الطرازان الاسبانى والفرنسى ، والذى توجد نماذج كثيرة منه فى بعض جوانب نيو أورليانز ، وكان مقاما على الطريقة المغربية ، يتكون من بناء مربع يتوسطه فناء وصلت المركبة اليه عن طريق باب مستدير من أعلاه وما من شك فى أن الفناء من الداخل قد أعد ونسق لكى يوائم نزعة الجمال والترف . فالأروقة الواسعة التى تدور حول الجوانب الأربعة بأقواسها المغربية ، وأعمدتها الرفيعة وزخارفها العربية ، كل هذا يعود بالذهن ـ كما يحدث فى الحلم ـ الى عصر الخيال الشرقى فى الأندلس . وكان فى وسط الفناء نافورة تقذف خيوط مياهها الفضية عالية فى الهواء وتتساقط برشاش لا ينقطع فى حوض من الرخام له حافة دائرية عميقة من زهور البنفسج العاطر . وكانت مياه النافورة الصافية كالبللور ، تنبض بأسراب من السمك الذهبى والفضى ، يومض ويمرق فيها كأنه عدد كبير من الجواهر الحية ، وكان حول النافورة ممر دائرى مرصوف بالحصباء فى صورة الفسيفساء التى كانت مصففة فى أوضاع زخرفية بديعة . وكان يحيط بهذا أيضا ممر معشب ناعم كالمخمل الأخضر ويدور حول هذا كله ممر خاص بالمركبات . وكان

ثمة شجرتا برتقال كبيرتان يفوح منهما أريج أزهارهما ، تلقيـــان بالظل الممتع ، وقد صفصفت حول الممر المعشب فى دائرة كاملة أصص زهور من الرخام عربية النحت ، تنمو فيها أجمل الأشجار المزهرة الاستوائية المختارة • منها أشجار الرمان الكبيرة بأوراقها اللامعـة المصقولة وأزهارها ذات الألوان النارية المتوهجة ، ونبات الياسمين العربى بأوراقه القاتمة ، وأنجمه الفضية ، وزهور الجرانية « عطر الحدائق » وأعواد الورد الفاخرة التى تنوء بحمولتهـــا الثقيلة من الأزهار ، والياسمين الذهبى ، والوربينا ذات الرائحة الليمونية • كلها متحدة فى التزهير والشذى ، بينما يتناثر هنا وهناك نبـــات الند العريض بأوراقه العريضة الضخمة ، وقدبدا كأنه جماعة من السجدة المسنين جالسين فى عظمة عجيبة بين ألوان الزهر والشذى القصيرة المحيطة بهم ، والتى هى أقل منهم بقاء على الأيام •

وكانت الأروقة المحيطة بالفناء يحجبها ستار من نسيج مراكشى يرفع أو يسدل لحجب أشعة الشمس ، وجملة القول انه كان رائعا ساحرا شعريا مترفا •

وكانت ايفا ، أثناء دخول المركبة ، تبـدو كالطائر الذى يوشك أن ينطلق من قفصه وقد استخفتها البهجة البادية •

وقالت لأوفيليا :

ـ ألا ما أحلى هذا وما أجمله ؟ بيتى الحبيب العزيز • أليس جميلا بحق ؟

فقالت أوفيليا وهى تهبط من المركبة :

ـ انه مكان جميل ، ثم انه يبدو لى قديما موحشــا بعض الشىء وعليه مسحة من الالحاد •

وهبط توم من المركبة ، وراح يتلفت حوله فى هدوء لا يخلو من استمتاع • فالرجل الزنجى ، كما ينبغى أن نذكر ، هـو ابن أفخم وأروع بلاد العالم ، وفى أعماق قلبه احساس شديد بكل ما هــو رائع فخم خيالى ، وهذا الاحساس يطلقه قويا لافتقــاره الى الذوق

المهـذب المدرب ، فيجلب عليه سخرية الجنس الأبيض البارد المقيد بمظاهر الحضارة والنظام ٠

وابتسم سانت كلير ـ الذى كان فى أعماق قلبه شاعرى الاحساس ـ عندما أبدت أوفيليا ملاحظتها عن قصره ، ثم استدار نحو توم الذى كان واقفا يتلفت حوله ، وقد أشرق وجهه وارتسمت عنيه كل أمارات الاعجاب والابتهاج وقال :

ـ يبدو أن هذا المكان يلائمك يا توم ؟

فقال توم :

ـ نعم ياسيدى ٠ يبدو لى أنه هو المكان الذى أطلبه ٠

حدث هذا كله فى لحظة بينما كانت الحقائب والأمتعة تحمل الى الداخل بسرعة ويؤدى للحوذى الأجر ، وبينما كان عدد كبير من الخدم والعبيد ، من جميع الأعمار والأحجام ، رجالا ونساء وأطفالا ، يندفعون من الأروقة فى أعلى وأسفل ليشهدوا مقدم السيدة ، وكان أولهم شابا خلاسيا فاخر الثياب ينم مظهره عن أهمية شخصيته ، فقد كان يرتدى أحدث طراز فى الملابس وكان يلوح فى رشاقة بمنديل عاطر فى يده ٠

وكان هذا الشخص يثبت أهميته ، بنشاط كبير ، فى دفع ذلك القطيع من الخدم الى الجانب الآخر من الشرفة وهو يقول فى لهجة الآمر المطاع :

ـ الى الوراء ٠٠ جميعا ٠ اننى أشعر بالخجل منكم ٠ أهكذا تقحمون أنفسكم فى الأمور الخاصة بالسيد منذ اللحظة الأولى لمقدمه ؟

واستشعر الجميع الخجل ازاء هذا الحديث البليغ الذى ألقاه الشاب فى خيلاء ، ثم تجمعوا فى ركن قصى ، فيما عدا اثنين من الحمالين الأقوياء أقبلا وبدآ يحملان الأمتعة ٠

وكانت النتيجة التى انتهت اليهاتنظيمات المستر أدولف

ـ الخلاسى ـ المحكمة ، أن سانت كلير لم ير أمامه ـ حين استدار بعد أن نقد الحوذى الحوذى أجره ـ أحدا غير المستر أدولف نفسه، متألقا في صدارته الحريرية ، وسراويله البيضاء ، وسلسلة الحراسة الذهبية ، منحنيا أمامه فى رشاقة واحترام بالغين ٠

وقال السيد وهو يبسط يده اليه :

آه ٠ أدولف ٠ أهذا أنت ؟ كيف حالك ياغلام ؟

وأخذ أدولف يسكب فيضا من حديث بليغ كان قد أعده بعناية بالغة قبل ذلك بأسبوعين ٠

وقال سانت كلير وهو يمضى بطريقته التى تنم عن المجون وعدم المبالاة :

ـ جميل ٠٠ جميل ٠٠ لقد أحسنت هذا الحديث يا أدولف ٠ والآن عليك أن تشرف على نقل المتاع كما ينبغى ٠ ولسوف أعود الى الجميع بعد لحظة ٠

ثم مضى مع أوفيليا الى القاعة الكبيرة المتصلة بالشرفة ، وفيخلال هذا كله ، كانت ايفا قد طارت كالطائر الصغير من خلال مدخل الدار وحجرة الاستقبال الى مخدع صغير يفضى الى الشرفة ٠

وهناك همت بالنهوض سيدة طويلة سوداء العينين نحيلة الجسم، من المتكأ التى كانت مسترخية عليه ، فقالت لها ايفا فى نشوة بالغة :

ـ أماه ٠

ـ وألقت بنفسها على عنقها ، وراحت تضمها بقوة المرة بعد الأخرى ، حتى قالت الأم بعد أن قبلتها فى كسل واسترخاء :

ـ كفى ٠٠ كفى ٠ حاذرى يابنيتى ٠ لا ٠ انك ستصدعين رأسى ٠

وأقبل سانت كلير ، وعانق زوجته كما ينبغى أن يعانق الزوج المخلص زوجته ، ثم قدم اليها ابنة عمه ٠ فرفعت مارى عينيها

الواسعتين الى ابنة العم فى شىء من الفضول ، واستقبلتها بأدب فاتر ، بينما كان عدد كبير من الخدم يتزاحمون عند باب المدخل ، بينهم سيدة خلاسية فى منتصف العمر ، ذات مظهر وقور ، وكانت تتقدم الجميع فى لهفة وابتهاج وترقب عند الباب ٠

وصاحت ايفا وهى تندفع خلال الغرفة ، وتلقى بنفسها بين ذراعى تلك المرأة وتنهال عليها بالقبلات :

ـ آه ٠٠ مامى ٠٠

ولم تقل لها هذه المرأة انها ستصدع رأسها ، بل راحت تضمها وهى تضحك حينا وتبكى حينا حتى ليساور من يراها الشك فى سلامة عقلها ٠ ولما أطلقت ايفا من بين ذراعيها ، اندفعت الصغيرة من خادم الى أخرى ، تصافح وتقبل بطريقة قالت عنها المس أوفيليا فيما بعد ، انها تقززت منها ٠

وقالت أوفيليا

ـ انكم يا أطفال الجنوب تقدرون على أشياء لا أقدر عليها أنا ٠٠

فقال سانت كلير

ـ ما هى هذه الأشياء الآن ، أرجوك ؟

ـ انني طبعا أحب أن أكون عطوفا على كل انسان ، ولا أرضى أن أوذى شعور أحد ٠ ولكن مسألة التقبيل ٠٠٠

فقاطعها سانت كلير قائلا بسرعة :

ـ تقصدين تقبيل الزنوج ! أليس كذلك ؟

ـ نعم ٠ هذا ما أقصد ٠ فكيف تستطيع هى تقبيلهم ؟

فضحك سانت كلير وهو يمضى الى الدهليز ، وصاح قائلا :

ـ آه ٠ ها أنتم أولاء هنا ٠٠ مامى وجيمى وبوللى وسوكى ـ مسرورات جميعا لرؤية السيدة ! أليس كذلك ؟

وبعد أن صافحهن الواحدة بعد الأخرى ، قال وهـو يكاد يتعثر في طفل صغير كان يزحف على أطرافه الأربعة

ــ حافظن على الأطفال • واذا دست على أحدهم فلتقلن لي هذا •

وقوبلت عبارته الأخيرة بعاصفة من الضحك ، ثم انهالت عليه الدعوات بالبركة وهو يوزع على الجميع قطعا من النقد الصغير ويقول :

ــ والآن • انصرفوا جميعا الى شئونكم ، كما يفعل أحسن الصبيان والبنات •

وسرعان ما انطلق الجميع ، سودا وسمرا ، منصرفين من باب الشرفة ، تتبعهم ايفا حاملة كيسا كبيرا كانت قد ملأته أثناء رحلة العودة بالتفاح والجوز والحلوى والشرائط والمخرمات والدمى المختلفة الأنواع •

وفيما كان سانت كلير يستدير ، وقعت عيناه على توم الذي كان واقفا في قلق ، متململا يرفع قدما بعد أخرى ، بينما وقف أدولف بلا مبالاة معتمدا على سياج الشرفة ، يتفحص توم بمنظار كبير ، وبطريقة تنم عن التعالي والشموخ •

وقال سيده وهو يضرب منظاره الكبير ويسقطه من يده

ــ آه ، أيها الشقي •• أهكذا تعامل زملاءك •

ثم أضاف قائلا وهو يضع اصبعه على الصدار الحريري الفاخر الذي كان يرتديه أدولف :

ــ يخيل الي أن هذا صداري أنا •

ــ آه • ياسيدي ! كان هذا الصدار كثير البقع ملوثا بالخمر بحيث لم يعد بطبيعة الحال لائقا لأن يرتديه سيد مثلك • وقد فهمت من هذا أن آخذه • فهو يليق بزنجي مسكين مثلي •

ورفع أدولف رأسه ، وتخلل بأصابعه شعره الناعم المعطر •وقال السيد في غير اهتمام

ـ أهكذا الأمر ؟ اننى ذاهب لأقدم توم هذا الى سيدته ، ثم عليك بعدئذ أن تمضى به الى المطبخ ، وحذار أن تتعالى عليه ، انه يساوى اثنين مثلك ٠

فقال أدولف وهو يضحك :

ـ ان السيد لا يحب أن تفوته النكتة أبدا ٠ وانه ليسعدنى أن أرى سيدى مبتهجا ٠

وأشار سانت كلير الى توم وقال :

ـ هيا يا توم !

ودخل توم الغرفة ، وتطلع فى قلق الى الطنافس الوثيرة ، والى البهاء الذى لم يكن يطوف من قبل بخياله والمنبعث من المرايا ، والصور ، والتماثيل ، والسجف ، وبدا كما بدت ملكة سبأ أمام سليمان ، خائفا حتى من أن يضع قدمه على الأرض ٠

وقال سانت كلير لزوجته

ـ انظرى يا مارى ! لقد تمكنت أخيرا من أن آتى لك بسائق مركبة بارع ٠ وأؤكد لك أنه أنموذج للطاعة والاتزان ٠٠ وفى مقدوره أن يقود لك المركبة ، وكأنه فى جنازة ، ان شئت ٠ افتحى عينيك الآن ، وانظرى اليه ٠ ولا تقولى بعدئذ اننى لا أفكر فيك وأنا بعيد عنك ٠

ففتحت مارى عينيها وركزتهما على توم دون أن تنهض وقالت :

ـ أنا أعلم أنه سيشرب حتى يسكر ٠

ـ لا ٠ ان بائعه ضمن لى تقواه وامتناعه عن الشراب ٠

ـ أرجو أن يتحقق أملى فيه ٠ وان كان هذا أكثر مما أتوقع ٠

وقال سانت كلير

ـ أدولف ٠ امض بتوم الى الطابق الأسفل ٠ ولا تنس ما قلت لك ٠

ومضى أدولف برشاقة فى المقدمة ، ومن ورائه توم يمشى مبطئا وقالت مارى :

ـ انه يشبه فرس البحر تماما ٠

وجلس سانت كلير على مقعد صغير بجانب زوجته وقال :

ـ هلم الآن يا مارى ٠ كونى لطيفة وقولى شيئا طيبا لزوجك ٠ فقالت وهى تلوى شفتيها فى استياء :

ـ لقد تأخرت عن موعد عودتك أسبوعين ٠

ـ نعم ، وقد كتبت لك عن سبب التأخير ٠

فقالت السيدة :

ـ لقد كانت رسالة قصيرة فاترة ٠

ـ ويحى ٠ كانت مركبة البريد توشك أن تتحرك ، وكان على أن أوجه الرسالة أو لا أكتبها اطلاقا ٠

فقالت السيدة :

ـ هذه هى حجتك دائما ٠ فأنت على الدوام تجد الأعذار التى تبرر بها اطالة غيبتك وايجاز رسائلك ٠

فقال وهو يتناول من جيبه علبة أنيقة مكسوة بالمخمل ويفتحها :

ـ أنظرى ٠ هذه هدية جئت بها لك من نيويورك ٠

وكانت صورة شمسية ناعمة واضحة تمثله جالسا مع ايفا ويده فى يدها ٠

ونظرت مارى اليها بامتعاض وقالت :

ـ وما الذى جعلك تتخذ هذا الوضع السمج ؟

ـ ان الوضع قد يكون مسألة ذوق خاص ٠ ولكن ما رأيك فى الشبه ؟

فقالت مارى وهى تغلق العلبة :

ـ ما دمت لا تؤمن بذوقى فى ناحية ، فلماذا تريد أن تعرف رأيى فى الناحية الأخرى ؟

وقال سانت كلير لنفسه :

ـ تبا لهذه الزوجة ·

ثم أضاف بصوت مسموع :

ـ اسمعى يا مارى · ما رأيك فى موضـــوع الشـــبه · لا داعى للهراء الآن ·

ـ ليس من اللائق أبدا يا سانت كلير أن تصر على أن أتحـــدث وأنظر الى الأشـــياء · وأنت تعرف أننى كنت راقدة طيلة النهـار عرضة للصداع · وقد أحدثت بمقدمك ضجيجا وصخبا جعـــلانى أوشك على الموت ·

وعندئذ قالت المس أوفيليا وهى تنهض من أعمـــاق مقعد وثير كانت جالسة عليه بهدوء تتأمل الأثاث وتقدر أثمانه فى نفسها

ـ هل أنت عرضة للصداع دائما ياسيدتى ؟

ـ نعم · اننى ضحية بائسة له ·

ـ ان الشاى المصنوع من ثمـار نبـات العرعر مفيد فى حالات الصداع · أو أن هذا على الأقل ما تقوله زوجة القس ابراهام بيرى ، وهى ممرضة بارعة ·

فقال سانت كلير وهو يشد حبل الجرس :

ـ سأحصل على أول ثمار ناضجة لنبات العرعر النامى فىحديقتنا بجانب البحيرة ، وآتى به لهذا الغرض · والآن ، لا شك أنك يا ابنة العم ، فى حاجة الى الراحة فى غرفتك ، حيث تستردين نشـاطك بعد هذه الرحلة ·

ثم وجه الحديث الى أدولف قائلا :

ـ يا آدولف ابعث مامى الى ٠

وسرعان ما أقبلت السيدة الخلاسـية المؤدبة التى لاطفتها ايفـا أشد ملاطفة وكانت مرتدية ملابس أنيقة ، وعلى رأسها عمـامة عالية صفراء ، آخر هدية لها من ايفا التى كانت عندئذ تنسقها لهـا على رأسها ٠

وقال لها سانت كلير :

ـ مامى ٠ اننى أعهد اليك بهذه السيدة ٠ وهى الآن متعبة وتريد أن تستريح ، فامضى بهـا الى غرفتها ، ووفرى لها جميـع أسباب الراحة ٠

واختفت أوفيليا منصرفة وراء مامى ٠

تصويبات

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٣	٢١	سمعنا	سمعا
٣٧	١٢	المرء	: المر
٥٢	٢٣	تصور	تصوروا
٥٥	٦	صفقته	: صفقته
٦٧	٥	خارحة	: خارجة
٧٩	١٠	أحد	أحد
٨٢	٢١	حل	: كل
٨٤	٢٧	أمها	: أمامها
٨٥	٢٢	الغذاء	: الغداء
٨٧	١٣	بمبدعة	: بميدعة
٩١	٢١	أشعلر	أشعر
٩٤	١٦	يحفظ	: يحتفظ
١٠١	١	امض	: امضى
١٠٩	١٦	حاورلت	حاولت
١٢٣	٢١	فـ نا	فأنا
١٢٧	٤	قوالك	: قولك
١٢٧	٦	قول	: أقول
١٣٧	١٧	الستر	: المستتر
١٥٠	١٩	ويضع	: وبضع
١٥٥	١	مندا	: منذا
١٦٠	١٢	يشتروه	: تشتروه

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٦٦	١١	سوء	: سوءا
١٧٠	٩	تتم	: تنم
١٧٤	٢٢	للحقيقة	الحقيقة
١٨٤	٢٣	وحينما	: وحينئذ
١٩٢	٢١	وتوماں	: وتوماس
٢٠٥	٢٣	نساب	: تنساب
٢٠٧	١٨	أعى	: أعلى
٢٠٨	٤	وصغر	: وصغر
٢١٨	٣	الآآن	: الآن
٢٢٧	٢	المليك	: اليك
٢٢٩	١٨	لأجيال	الأجيال
٢٣١	١	فاال	: فقال
٢٣٣	٦	اء	: لم
٢٣٦	١	نحمله	: تحمله
٢٣٦	٢٦	حذف السطر كله	
			أن يجعل أبناء سيده يقرءون أمامه فى الكتاب المقدس علامات قوية
٢٥٣	٢٣	لسسكوت	: لسكوت
٢٥٤	٤	أربع	: أربعا
٢٥٦	١	تحدتت	تحدثت
٢٥٦	٢٤	شيئا	: شيء



مطبعة اطلس
١١ ـ ١٣ ش سوق التوفيقية